الكواكب الدرية
في
السيرة النورية

(تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي)

تأليف

بدر الدين ابن قاضي شهبة

تحقيق

الدكتور محمود زايد

دار الكتاب الجديد

الكواكب الدرية
في
السيرة النورية



مقدمة

١ ـ التعريف بالمؤلف

مؤلف مخطوطة هذا الكتاب هو بدر الدين أبو الفضل محمد بن تقي الدين ابن قاضي شهبة الأسدي الشافعي الدمشقي . وقد ترجم له المؤرخ شمس الدين محمد ابن عبد الرحمن السخاوي في الجزء السابع من كتابه **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** صفحة ١٥٥ – ١٥٦ بقوله :

«محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب الفقيه البدر أبو الفضل بن فقيه الشام التقي الأسدي الدمشقي الشافعي، ويعرف كسلفه بابن قاضي شهبة . ولد في طلوع فجر الأربعاء ثاني صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ، ونشأ فحفظ كتباً منها **المنهاج** لرؤيا رآها أبوه ، وتفقه بأبيه وغيره، وأسمعه أبوه على عائشة ابنة ابن عبد الهادي،والشهاب بن حجى ، وابن الشرائحي وغيرهم فيما قاله ابن أبي عذيبة ، وقرأ على شيخنا في سنة ست وثلاثين بدمشق الأربعين المتباينات له ، وارتحل الى القاهرة بعد أبيه ، وحضر مجلس شيخنا ، وتناظر هو والبرهان بن ظهيرة بين يديه ، فكان الظفر للبرهان ، واستنابه السفطى ، وبرع في الفقه استحضاراً ونقلاً، وشرح **المنهاج** بشرحين سمى أكبرهما **ارشاد المحتاج الى توجيه المنهاج** ، والآخر **بداية المحتاج** . وعمل سيرة نور الدين الشهيد ، وصنف غير ذلك . وتصدى للإقراء ، فانتفع به الفضلاء، ودرس بالظاهرية والناصرية والتقوية والمجاهدية الجوانية والفارسية وكذا في الشامية

البرانية نيابة عن النجم بن حجى ، وولي إفتاء دار العدل ، وناب في القضاء من سنة تسع وثلاثين حتى مات . وصار بأخرة فقيه الشام بغير مدافع ، عليه مدار الفتيا والمهم من الأحكام . وعرض عليه قضاء بلده فأبى. لقيته بدمشق، وسمعت كلامه ، وكان من سروات رجال العالم علماً وكرماً وأصالة وعراقة وديانة ومهابة وحزامة ولطافة وسؤدداً ؛ وللشاميين به غاية الفخر . مات في ليلة الخميس ثاني عشر رمضان سنة أربع وسبعين ، ودفن من الغد بمقبرة الباب الصغير عند أسلافه بعد الصلاة عليه بعدة أماكن . وكانت جنازته حافلة ، وكثر الثناء عليه . ولم يخلف بدمشق في محاسنه مثله ، رحمه الله وإيانا . »

٢ ـ أهمية المخطوطة

جمع المؤلف في مخطوطته سيرة البطل الشهيد نور الدين محمود الذي قضى حياته يجاهد في سبيل توحيد كلمة المسلمين والدفاع عن الشرق الاسلامي ضد الصليبيين . وبهذا فان المؤلف جمع الأخبار من مختلف مظانها، فوفر على القارىء مشقة جمعها وترتيبها . وبالرغم من أنه اعتمد المراجع الأساسية المعروفه عن نور الدين محمود ، فانه في بعض المواقف زاد على ما هو منشور ، وصحح ما أورده كثيراً من الروايات كما سيرى القارىء .

مراجع المؤلف

اعتمد المؤلف على المراجع الاساسية عن عصر نور الدين محمود وتشمل: **مرآة الزمان** لسبط بن الجوزي ، وكتاب **الروضتين في أخبار الدولتين** لأبي شامة **والبداية والنهاية في التاريخ** لابن كثير ، **والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل** ، **والكامل** لابن الأثير ، **والنوادر السلطانية** لابن شداد .

المخطوطة

هناك أربع نسخ مخطوطة من مؤلف ابن قاضي شهبة عن سيرة نور الدين محمود :

الأولى: بدار الكتاب المصرية (رقم ١٢٢٧ تاريخ) وهي مصورة عن نسخة أيا صوفيا وتاريخ نسخها في القرن التاسع . وعدد صفحاتها ١٨٧ صفحة مقاس ١٢ × ١٨ سم . وقد نقلت عن نسخة المؤلف وعليها خطه وهي بعنوان « الدر الثمين في سيرة نور الدين . » ورمزنا إليها بالحرف ، ف .

الثانية مصورة عن نسخة بدار الكتاب البلدية بالاسكندرية تحت رقم ١٣٣٦ ب . وتقع في ٨٥ ورقة مقاس ١٨ × ٢٧ .وتاريخ نسخها مذكور عليها وهو ٨٦٣ هـ . ورمزنا إليها بالحرف ص .

الثالثة مصورة عن نسخة سوهاج ٢٦٢ وتقع في ١٠١ صفحة ومقاسها ١٣ × ١٦ سم . وهي بلا تاريخ . ورمزنا إليها بالحروف س .

الرابعة نسخة بدار الكتب المصرية في ١٢٥ صفحة تاريخ نسخها ١١٢٧ هـ . وفيها تصرف كبير في النص . ورمزنا إليها بالحرف د .

وقد وجدنا الثالثة ناقصة اكثر من النصف وفيها تصرف وتقديم وتأخير . لكن النسختين الأولى والثانية متشابهتان وكاملتان تقريباً . على أن الأولى أدق واوفي في عدد كبير من المواضع . لكن عدداً كبيراً من صفحاتها مطموس أحيانا ويفتقر إلى الوضوح أحيانا أخرى ، الأمر الذي دفعنا إلى اتخاذ الثانية أصلاً وأثبتنا الفوارق بينها وبين الأولى في الهوامش . لكننا لم نجد ضرورة للإشارة إلى الثالثة والرابعة إلا في مواضع قليلة جداً . وقابلنا الأخبار التي أوردها ابن قاضي شهبة بمراجعه فأثبتنا زيادات في السياق أشرنا إليها في مواضعها . وقمنا أحيانا باثبات بعض الفروق المهمة بين أخبار ابن قاضي شهبة ومايقابلها في المراجع.

مراجع التحقيق

١ — **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** لأبي شامة الإمـــام شهاب الدين (ط . القاهرة ١٢٨٧ — ١٢٨٨ هـ).

وقد رجعنـــا الى القسمين اللذين حققهما الدكتور حلمي محمد أحمد : الجزء الاول — القسم الاول (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦)والجزء الاول ، القسم الثاني (وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٢).

٢ — **كتاب الكامل في التاريخ** لابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن (القاهرة ، ١٣٠٣ هـ).

٣ — **التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل** لابن الأثير ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات (دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٣).

٤ — **كتاب سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** لابن شداد ، القاضي بهاء الدين (القاهرة ، ١٣١٧).

٥ — **البداية والنهاية في التاريخ** لابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل (مطبعة السعادة ، لا تاريخ).

٦ — **مرآة الزمان في تاريخ الاعيان** — القسم الأول من الجزء الثامن لسبط ابن الجوزي (حيدر أباد ، ١٩٥١).

كلمة شكر

ولا بد لي من التنويه بمساعدة المرحوم الدكتور نبيه أمين فارس رئيس هيئة الدراسات العربية بجامعة بيروت لما قدمه لي من مساعدات مكنتني من اخراج هذه المخطوطة .

الكواكب الدرية في السيرة
النورية للعـالم العـلامة
بدر الدين أبي الفضـل
محمد بن تقي الدين
ابن قاضي شهبة
الأسدي الشافعي
رحمـه الله
تعـالى
بمنّـه
أمـين



مقـدّمة (1)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي (2)، الحمد لله مالك الممالك وموضح المسالك، وجاعل العدل نجاة من المهالك . أحمده وهو المحمود المـالك . وأوحده وهو الغني عن المشارك . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إلهاً لا يزول ملكه ولا يفنى ، وملكاً تخصّص بالصفات الجميلة والأسماء الحسنى . حكم فعدل في حكمه ، وعلم ما كان وما يكون ، فلم يخف شيء عن علمه . وأشهد ان سيدنا محمداً ﷺ عبده ونبيه ورسوله وصفيه ، الذي رفع به منار (3) الحق ، وأرسله رحمةً للخلق ، وزيّنه بالصفات الحسان . وأنزل عليه (ان الله يـأمر بالعدل والإحسان) (النحل : ٩٠).صلى الله عليه وعلى آله الأمجـاد وصحبه الأنجاد الذين جاهدوا في الله حق جهـاده ، واجتهدوا رضي الله عنهم في مصـالح عباده ، وبسطوا بساط العدل في بلاده ، وسلّم وكرم ، وشرّف وعظم .

وبعد ، فإن العدل قوام الدنيا والدين ، وسبب صلاح (4) المخلوقين . بـه تألفت القلوب ، والتأمت الشعوب . ولاح الفـلاح ، وظهر النورُ والصلاح ،

---

(١) أضاف المحقق هذا العنوان . الصفحة الأولى ناقصة في ص ، ولكنها موجودة في النسخ الأخرى .

(٢) في س : توفيقي .

(٣) في س : منازل .

(٤) في س : اصلاح .

واتصلت أسبابُ النجاح . وهو أحسن[1] ما تزين به الملوك الذين مكّنهم الله في أرضه ، وأوجب عليهم القيام بفرضه ، ولا يوفّق إلى صراطه القويم إلا من سبقت له العناية في الأزل القديم . ويكفي ملوكَ العدل من مزيد الكرامة قولُ [رسول الله] ﷺ (المقسطون [عند الله] على منابر من نور)[2] وقوله ﷺ وزاده شرفاً لديه[3] أحبّ الناس الى الله وأدناهم مجلساً منه يومَ القيامة إمام عادل ، وهو من السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله[4] او كما قال ﷺ وعلى الجملة والتفصيل ففي العدل الخير كله ، فسبحان من وفق اليه من سبقت له الحسنى ، ومن بوّأه لديه المقامَ الاسنى ، فأضفى عليه من ملابس نعمه الفاخرة ، وجمع له بين سعادة الدنيا والآخرة .

ولما كان الملك العادل السعيد، نور الدين الشهيد محمود بن زنكي بن آق سنقر التركي ، سقى الله عهده ، ووطّأ[5] في الفردوس مهده ، وشكر في مصالح الإسلام سَعْيَه الناجح ، وثقّل بعظيم الحسنات ميزانَه الرّاجح ، ممن شاع فضلُه واشتهر، وذاع عدلُه وظهر، وأشرق نورُه الساطع وبهر، وسلك من[6] العدل في[7] الرعايا أحسن السلوك ، ويسّر الله تعالى له ببركة العدل ما عجز عنه عظماء الملوك، أحببتُ ان أذكر طرفاً من سيرته الفاضلة، وأحكامه العادلة، ومحاسنه الظاهرة ، وسجاياه الطاهرة ، وأوصافه الزاهرة المشرقة اشراقَ الشموس الباهرة ، ليقتدي بها من نظر اليها ووقف عليها من أعلام سلاطين

---

(١) من هنا تبدأ الصفحة الثانية في ص .

(٢) هكذا في صحيح مسلم ٦ (القاهرة ، ١٩٣٢) ص ٧ ، وفي ص : نور يوم القيامة.

(٣) عبارة (وزاده شرفاً لديه) غير موجودة في س .

(٤) نص الحديث : (سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله . إمام عادل الخ) صحيح البخاري / ٤ (القاهرة ١٣٢٠) ص ١٠٧ .

(٥) في س : ووطى .

(٦) في ص : في .

(٧) زيادة من ف ، س .

الإسلام ، الذين كرمت سجاياهم ، وشرفت مزاياهم ، ورغبوا في الذكر الجميل ، والثواب[1] الجزيل ، وحرصوا على نيل السعادة الكبرى ، وأمّلوا حسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى في الأخرى .

ورتّبتُ هذا الكتابَ على سبعة أبواب مشتملة على أوصافه ، وعدله وانصافه ، ونعوته التي فاق بها على الملوك ، وحسن أعماله التي سلك بها من مناهج الرشاد أحسن السلوك . وهذه فهرست الأبواب ،

الباب الأول في ذكر مولده وصفاته ، وذكر أفعاله الدّالة على حسن نياته .

الباب الثاني في ذكر عدله الدال على رصانة عقله ، ووفور كرمه وفضله .

الباب الثالث في ذكر شجاعته وشهامته ، ونجدته ، وصرامته ، وقوة عزمه ، وحسن رأيه وحزمه [2] .

الباب الرابع في ما فعله في بلاد الإسلام[3] من المصالح ، والمساعي الكفيلة بالمناجح ، وما أدخلَ على المسلمين من المسار ، وعمهم به من المبار .

الباب الخامس في زهده وورعه وعبادته ودينه وعمله[4] المكمل لسيادته ، الشاهد بتأطيد[5] دعائم سعادته .

---

(١) هكذا في ف . في ص : الحظ .

(٢) الصفحتان التاليتان بياض في ص .

(٣) في س : الشام بدل الإسلام .

(٤) في س : وعلمه .

(٥) في س : بقاطنية .

الباب السادس في نبذة مما مدح به من الأشعار الفائقة ، والقصائد البديعة الرائقة .

الباب السابع في ذكر غزواته العديدة ، وفتُوحاته السعيدة ، وما جرى في زمانه من الأمور الغريبة ، والحوادثِ العجيبة وسمَّيته **الكواكبَ الدرية في السيرة النّورية**. والله سبحانه وتعالى الموفـّق للصواب ، المرجو لحُسن الثـّواب ، وهو تعالى المؤمّل لصلاح الأحوال ، وتسديد الأقوال والأفعال .

الباب الأول

في ذكر مولده وصفاته، وذكر أفعاله الدالة على حسن نياته

ولد[1] نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي مولاهم يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوّال سنة إحدى عشرة وخمسمائه بحلب. ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة ، وقلّة المخالطة للجند . وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده ، ويرى فيه مخايل النجابة . وكان معتدلَ القامة ، أسمر اللون ، واسعَ الجبهة ، حسن الصورة ، لحيته شعرات في حنكه[2] .

ولما تُوفي والده في سنة إحدى وأربعين ، وبلغ أسد الدين شيركوه وفاته، ركب من ساعته وقَصدَ خيمةَ نور الدين ، وأشار اليه بالتوجُّه إلى حلب ، وأن يجعلَها كرسي مملكته . وذكر أنه إذا ملك حلب ، اجتمع في خدمته عساكرُ الشام وقال له : أنا أعلم أنّ الأمرَ يصيرُ جميعُه إليك لأن مُلك الشام يحصل بحلب . ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق . فركب وأمر أن يُنادى بالليل في عساكر الشام بالاجتماع ، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ، فدخلها في سابع شهر ربيع الاول . وجاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها ففتحها ، وأصعدَ نورَ الدين اليها ، وقرّر أمره ، ومشى أحواله .

---

(١) في س : فولد .

(٢) في س : في خده .

ثم إن نورَ الدين خرج غازياً ففتح حصوناً كثيرة . قال **ابن عساكر** : فتح نيفاً وخمسين حصناً ، وكسر برنس انطاكية ، وقتله وقتل معه ثلاثة آلاف[1] نفس ، وأخذ من القومص ثلاثمائة ألف دينار ، وخمسمائة زردية ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة أسير[2] .

قال **ابن الجوزي**[3] : استرجع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة . وكان قد عزم على فتح القدس فوافته المَنِيَّة . وخُطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وبلاد الشام ومصر . وأظهر السنةَ بمدينة حلب ، وأزالَ البِدعة التي للروافض في الآذان : حي على خير العمل . وقمع بها الروافض ، وبنى بها المدارس والمساجد ، وأصلح طرقها ، ووسع أسواقها ، وأسقط جميع المكوس ، وعاقب على الخمر .

وكان في الحرب ثابِتَ القدم ، حسن الرومي ، صلب الضرب ، يتقدم أصحابَه في الحرب ، ويَتَعَرَّض للشهادة ، ويسألُ اللهَ تعالى أنْ يحشره من بطون السباع وحواصل الطيور .

ووقف أوقافاً على المرضى والمجانين . وبنى المكاتب لليتامى ، وبنى المارستان بدمشق ، ووقف على سُكان الحرمين الشريفين ، وأقطعَ أُمراءَ العرب الأقاطيع لئلا يتعرضوا للحجاج . وأمر بإكمال سور المدينة . وأجرى اليها

(١) في ف : ألف .

(٢) يذكر ابن عساكر في تاريخه المخطوط بدار الكتب المصرية أن نور الدين محمود كسر برنس انطاكية وقتل معه ثلاثة آلاف افرنجي . أما باقي العبارة فهي ليست في ترجمة ابن عساكر لنور الدين . على أن سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان يذكر العبارة كلها على أنها من قول ابن عساكر .

(٣) راجع ابن الجوزي : مرآة الزمان طبع حيدر آباد (١٩٥١) القسم الأول من الجزء الثامن ، ص ٣٠٥ وما بعدها .

العَيْنَ التي بأحد عند قبر حمزة رضي الله عنـــه . وبنى الربط والجسور والخانقات والقناطـــر ، وجدّد كثيراً من قنيّ السبيل في دمشق وغيرها من البلادالتي ملكهـــا ، ووقف كتباً كثيرة في مدارسه . وله أوقافٌ دارّة على جميع أبواب الخير .

وكان الجامع الاموي قد دثر[1] ، فولـّى نظره لقاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري ، فأصلح أموره ، وفتح المشاهدَ الاربعة ، وكان حاصلُ الجامـع بها من حين احترق سنة إحدى وسبعين وأربعمائة . وأضاف الى أوقاف الجامع المعلومة[2] الاوقافَ التي لاتُعرف شروط واقفيها ، وسمّاها مالَ المصالح[3] ، ورتـّب عليها لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والارامل والايتام ومـــا أشبه ذلك .

وفتح بدمشق باب الفرج ولم يكن قبله هناك باب بالكلية ، وأغلق باب كيسان .

وكان رحمه الله حسنَ الخطّ ، كثير المـُطالعة للكتب الدينـية ، متـّبعاً للآثار النبوية ، مواظِباً على الصّلوات في الجماعات ، عاكِفاً على تِلاوة القرآن ، حريصاً على فعل الخير ، عفيفَ البطن والفرج ، مقتصداً في الإنفاق ، متحرّياً في المطعم والمشرب والملبس . لم يسمع منه رحمه الله تعالى كلمة فـُحش قـــط لا في رضاه ولا في غضبه . وأشهى ما يكون إليه كلمة حق يسمعها ، أو ارشاد الى سنـّة يتبعها ، ولو لم يكن من حسن خصاله إلا مــا علم منه وشاع أنه إذا وعد وفي ، وإذا أَوعد عفا ، واذا تحـــدّث بشيء يقف عليه ، ولا يخالف قوله ، ولا يجري في مجلسه الفسقُ والفـُجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم

---

(١) في س : خرب .
(٢) في س : العلوية .
(٣) في ص : الصالح .

كما يجري في مجالس الملوك، ولا يطمع في أخذ أموال المسلمين. قال **أبو الحسن ابن الأثير**[1] : قد طالعتُ تواريخَ الملوك المتقدمين قبـــل الاسلام ومنه الى يومنا هذا فلم أرَ فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثرَ تحرّياً للعدل والانصاف منـــه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهـادٍ يتجهّزُ له ، ومظلمة يزيلهـا ، وعبادة يقوم بها ، وإحسانٍ يوليه ، وإنعام يُسديه ، فلو كان في أمة لافتخرتْ به ، فكيف ببيتٍ واحد !

(١) أنظر ابن الاثـــير : التاريخ الباهر (القاهرة ، ١٩٦٣) تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، ١٦٣ .

الباب الثاني

في ذكر عدله الدال على رصانة عقله ووفور كرمه وفضله

قال ابن الأثير[١] : وفي الحقيقة هو الذي جدد للملوك سنّةَ العدل والانصاف ، وترك المحرمات من المأكل والملبس والمشرب وغير ذلك ، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية همّ أحدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، والزم بذلك أتباعَه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه . ومن سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. كان رحمه الله تعالى أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً ، فمن عدلِه أنه لم يتركْ في بلد من بلاده ضريبة لا مكساً ولا عشراً بل أطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه . وكان يتحرى العدلَ وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان : الضعيف والقويّ عنده في الحق سواء . وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولّى كشفَ حاله بنفسه ، ولا

---

(١) تجد النص التالي في التاريخ الباهر مع اختلاف يسير .

يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير ، فلا جرم سار ذِكرُه في شرق الارض وغربها .

ومن عدله : كان يعظّم الشريعة المطهّرة ، ويقفُ عند أحكامها ، ويقول : نحن شِحن لها نمضي أوامرها . فمن اتباعه [أحكامها] [1] أنه كان [يوماً][1] يلعب بالأكرة فرأى انساناً يحدّث آخر ويومىء بيده إليه ، فأرسل اليه يسأله عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهذا غلام القاضي ليحضر معي إلى مجلس الشرع يحاكمني على المُلك الفلاني . فعــاد اليه ولم يتجاسر يعرفه مــا قال ذلك الرجل . ثم[2] لمــا ألح عليــه في السؤال ذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، وهو حينئذ كمال الدين الشهرزوري وأرسل إلى القاضي يقول : إني قد جئت محاكماً ، فاسلك معي ما تسلكه مع غيري . فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه . وتحاكما فلم يثبُتْ عليــه حق ، وثبت المـُلك لنور الدين . فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا . فقال : اشهدوا عليّ أني قد وهبتُ له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وقــد كنت أعلم انه لا حق له عندي ، وانما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته . فحيث ظهر أن الحق لي ، وهبتُه له . وهذا غايةُ العدل [والانصاف][3] بــل غايةُ الفضل[4] ، وهي

---

(١) زيادة من التاريخ الباهر ، ص ١٦٦ .

(٢) نجد العبارة التالية في التاريخ الباهر كما يلي : « وغالطه فلم يقبل منه غير الحق فذكر له . . . »

(٣) الزيادة من التاريخ الباهر ، ص ١٦٧ .

(٤) فـي التاريخ البـاهر : الإحسان .

درجة فوق درجة العدل[1] . فرحم الله تلك النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه .

قال **ابن الاثير** : وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة ، وإلا فقد انقاد إلى مجلس الحكم جماعة من الصحابة مثل عمر وعلي ومعاوية رضي الله تعالى عنهم[2] .

قال : ومن عدله أنه لم يعاقِبْ على المظنّة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ،فإن قامت عليه بيّنة شرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ. فدفع الله تعالى بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنّة . وأمِنَتْ بلادُه مع سعتها ، وقلّ المفسدون ببركة العدل واتّباع الشريعة المطهرة .

قال[4] : وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال ، فرأى مالاً كثيراً ، فقال : من أين هذا ؟ قالوا : بعث به القاضي كمال الدين من فائض الأوقاف ، فقال : إنّ هذا المالَ ليس لنا . ولا لبيتِ المال في هذه الجهةِ شيء ، وأمر بردّه وإعادته على القاضي كمال الدين ليرده على صاحبه . فأرسله مُتَولّي الخزانة إلى القاضي فردّه أيضاً إلى الخزانة ، وقال : إذا سأل

---

(١) في المرجع السابق : وهي درجة وراء العدل .

(٢) العبارة من (وهذا مستكثر) إلى هنا ليست في ابن الاثير . وقد وجدنا أنها من تعليق صاحب الروضتين على عدل نور الدين. راجع أبو شامة : الروضتين، الجزء الاول من القسم الاول، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد (القاهرة : ١٩٥٦) ص ١٦ .

(٣) الصفحة التالية غير واضحة في ف . راجع هذا القول في التاريخ الباهر ، ص ١٦٧ .

(٤) راجع هذه الرواية في التاريخ الباهر مع اختلاف يسير في اللفظ .

السلطانُ عنه فقولوا له : غيره . فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فوجده . فأنكر على الخازن ، وقال : ألم أقلْ لك إن هذا المالَ يُعـــاد على أصحابه ؟ فذكر له القاضي ، فردّه اليه ، وقال لرسوله : قـلْ لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا ، وأما أنا فرقبتي رقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله عز وجل .

قال [١] : ومن عدله أيضاً ، بعد موته ، وهو أعجب مـا يحكى ، أنَّ إنساناً كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لمـــا رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي [ومَلكَها صلاحُ الدين] [٢] ، تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجـل ، فشكاه ، فلم يُنْصَفْ منه [٣] ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي ، وقـد شق ثوبه ويقول : يا نور الدين ! لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم [٤] لرحمْتنـا . أينَ عدلك ؟ وقصد تربةَ نور الدين ومعه من الخلق مـا لا يُحصى ، وكل منهم يبكي ويصيح . فوصل الخبر الى صـلاح الدين وقيل له : احفظ البلدَ والرعيّة وإلاّ خرج عن يدك . فأرسل الى ذلك الرجـل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه فطيّب قلبه ، ووهبه شيئاً وأنصفه ، فبكى أشدّ من الأول ، فقال له صلاح الدين : لمَ تبكي ؟ فقال : أبكي على سلطانٍ عـدل فينا بعد موته ! فقال له صلاح الدين : هذا هو الحق ، وكلما ترى فينـــا من عدله ومنه تعلمّناه .

---

(١) راجع الرواية التـــالية في التاريخ البـاهر ، ص ١٦٧ مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٢) زيادة من التاريخ البـاهر .

(٣) فـي التـاريخ الباهر : فلم ينصفه صلاح الدين .

(٤) من هنا الخط واضح في ف .

قال[١] : ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق، وسماها دار الكشف. وسببُه أنّ الأمراءَ لما قدموا مدينةَ دمشق فبنوا الأملاك واستطالوا على الناس ، وخصوصاً أسد[٢] الدّين شيركوه ، وكثُرت[٣] الشكاوى إلى القاضي فلم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين ، فشكاه الى نور الدين ، فأمر ببناء دار العدل . فلما سمع أسدُ الدين بذلك ، أحضر أصحابَه وديوانَه وقال لهم : اعلموا أن نورَ الدين ما بنى هذه الدّار إلا بسببي وحدي ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على القاضي كمال الدين ؟ والله لئِنْ حضرتُ الى دار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه ، فامضوا الى [كل] [٤] من كان بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوه وأرضوه بأي طريق أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي ، فقالوا له : إن الناس اذا علموا هذا اشتطوا في الطلب ، فقال : خروج أملاكي عن يدي أسهلُ عليّ من أن يراني نورُ الدين بعين أني ظالم ، او يساوي بيني وبين أحد العامة[٥] في الحكومة . ففعلوا وأرضوا الخصوم. فجلس نورالدين في دار العدل لفصل الخصومات والحكومات . وكان يجلسُ في الاسبوع اليومين والاربعة والخمسة وعنده القاضي والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحجاب والبواب ، ويوصل اليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عن ما أشكل

---

(١) راجع الخبر التالي في التاريخ الباهر ، ١٦٨ مع اختلاف في اللفظ .

(٢) إلى هنا ينتهي البياض في ص .

(٣) في ف : وكثرة .

(٤) زيادة من ف .

(٥) (أحد العامة) من ف . وفي ص : أحداثها .

عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه[1] إلا محض الشريعة المُطهّرة . وبقي على ذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو من شيركوه . فعرّفه القاضي الحال ، فسجد لله شكراً وقال : الحمد لله الذي أَصحابنـا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم إلينا . قال : فانظر الى هذه المعدلة ما أحسنَها ، وإلى هـذه المهابة[2] ما أعظمها ، والى هذه السياسة ما أشدّها هذا مع أنه كان لا يريق دماً ولا يبالغ في عقوبة ، وانما كان يفعل هذا صدقة في عدله وحُسن نيته .

وحضر[3] اليه يوماً جماعة من التجار وشكوا اليه ان القراطيس كان ستون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار ، وتزيـد وتنقص ويخسرون . فسأل نورُ الدين عن كيفيّة الحال ، فذكروا له أن عقد المعـاملة على اسم الدينار في الوسط ، وإنما يعدّون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار ، وتارة سبعة وستين بدينار . فأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه ، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية ، وتبطل القراطيس بالكليّة ، فسكت ساعة ، وقال : اذا ضربتُ الدينار[4] وابطلتُ المعـــاملة بالقراطيس فكأني خربتُ بيوتَ الرعية ، فإن كلّ واحد من السوقة [عنده][5] عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس ، ايش يعمل بها ! فيكون سبباً لخراب بيته . فأيّ شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية رحمه الله تعالى !

---

(١) في ف : مجلس .

(٢) في ف : الهيبة .

(٣) راجع الخبر التـالي في الروضتـين ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٥ .

(٤) في ف : الدنانير .

(٥) زيادة من ف .

وحكي أنه [كان][1] قبل بناء دار العدل يجلس يوم الثلاثاء بالمسجد المعلّق الذي بالكشك ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم .

وحكى شادبخت[2] الطواشي الخادم النوري ، قال : كنت يوماً أنا وسنقر خجا واقفيْن على رأسِ نور الدين وقد صلّى المغربَ وجلس وهو مفكراً فكراً عظيماً ، وجعل ينكتُ بأصبعه في الأرض . فعجبنا من فكره وقلنا : في أي شيء يفكر : في عائلته أو في وفاء دينه ؟ وكأنه فطن بنا ، فرفع رأسَه ، وقال : ما تقولان ؟ فقلنا : ما قلنا شيئاً ، فقال : بحياتي قولا لي ، فقلنا : عجبنا من افراط مولانا في الفكر ، وقلنا : يفكّر في عائلتِه أو في وفاء دينه ، فقال : والله إني أفكر في والٍ ولّيته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدلْ فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني ، وأخاف المطالبةَ بذلك . فبالله عليكم والا فخبزي عليكم حرام ، لا تريان قصةٍ ترفع إلي أو تعلمان مظلمةً إلا وأعلماني بها ، وارفعاها إلي .

وحكى **أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم**[3] قال : كان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة الموصل أن لا يعملَ شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي ، وأن لا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة

---

(١) زيادة من ف .

(٢) هذه رواية صاحب الروضتين سمعها من الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذ بخت (بالذال) النوري .

(٣) وهو القاضي بهاء الدين بن شداد . سمع أبو شامة من ابن شداد الحكاية التالية وأوردها في الروضتين .

الشيخ عمر الملاء[١] قال : فكان لا يعمل بالسياسة وبطلت الشحنكية[٢] . فجاء أكابر الدولة وقالوا [لكمشتكين][٣]: قد كثر الدّعار [وأرباب الفساد][٣]،ولا ينجي من هذا شيء إلا بالقتل والصلب ، فلو كتبتَ إلى نور الدين في ذلك ، فقال : أنا لا أكتب اليه في هذا المعنى ولا أجسُرُ على ذلك ، ولكنْ قولوا للشيخ عمر يكتب اليه . فحضروا عنده ، وذكروا له ذلك ، فكتب إلى نور الدين ، وقال له : إن الدعار والمفسدين وقطاعَ الطريق قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة ، ومثلُ هذا لا يجيءُ إلا بقتلٍ وصلب وضرب ، وإذا أُخذ مال إنسان في البرّية من يجيء ليشهد له ؟ قال : فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره : إن الله تعالى خلق الخلقَ وهو أعلم بمصلحتهم ، وإنّ مصلحتَهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم ان على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه اللهُ تعالى ، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته ، وهذا من الجرأة على الله وعلى شَرْعه . والعقول المُظلمة لا تهتدي ، فالله سبحانه يهدينا وإياك الى الكتاب والى صراط مستقيم . قال : فجمع الشيخُ عمر أهلَ الموصل واقرأهم الكتابَ وقال: انظروا في كتاب الزاهد الى الملك [٤] ، وكتاب الملك الى الزاهد .

وحكي[٥] أنه دخل في أيام نور الدين الى حلب تاجرٌ موسر فمات بها ،

---

(١) « سمي الملاء لأنة كان يملأ تنانير الآجر ويأخذ الاجرة فيتقوت بها . وكان ما عليه مثل القميص والعمامة ما يملك غيره ولا يملك من الدنيا شيئاً . وكان عالماً بفنون العلوم . وجميع الملوك والعلماء والاعيان يزورونه ويتبركون به » .

للاستزادة راجع مرآة الزمان ج ١ ، ص ٣١٠ - ٣١١ .

(٢) أي صار عليه أن يوقع العقوبات التي حددها الشرع .

(٣) زيادة من ف .

(٤) هنا أكلت الارضة بضع كلمات من ص فأثبتنا عبارة ف .

(٥) راجع حكاية التاجر التالية في الروضتين نقلاً عن تاريخ حلب لابن العديم .

وخلَّف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً . فكتب من بحلب الى نور الدين يذكر له انه
قد مات هاهنا رجل تاجر موسر خلّف عشرين ألف دينار أو فوقَها ، وله
ولدٌ صغير عمره عشرُ سنين ، وحسّن له أن يرفع المال الى الخزانة فإذا كبر
الفتى يرضى منه بشيء[1] [ويمسك الباقي للخزانة][2] ، فكتب نورُ الدين على
الرقعة : أما الميِّتُ فرحمه الله تعالى ، وأما الولدُ فأنشأه الله ، وأما المـــال
فثمّره الله ، وأما الساعي فلعنه الله . وهذه الحكاية تحكى عن غير نور الدين،
فلعله مما تطابق عليه الحافر .

---

(١) النص في ف يختلف في اللفظ وترتيب العبارات .

(٢) زيادة من ف .

الباب الثالث

في ذكر شجاعته وشهامته ونجدته وصرامته وقوة عزمه وحسن رأيه وحزمه

فقد[١] كانت النهاية اليه في ذلك ، وكان أصبرَ الناس في الحرب ، وأحسنهم مكيدة ورأياً ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد [وأحوالهم][٢] . وبه[٣] كان يضرب المثل السائر في ذلك .

يقال انه لم يُرَ في زمانه على الفرس أحسن منه ، كأنه خلق عليها [لا يتحرك ولا يتزلزل . وكان من أحسن الناس لعباً بالأكرة وأقدرهم عليها][٤] وربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء[٥] ويرميها الى آخر الميدان . ولم يرَ جوكانه يعلو رأسَه ، وكانت يدُه لا تُرى والجوكان فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وكان اذا حضر الحربَ أخذ قوسين وشدّ تِركاشين[٦] . [وكان يباشر

---

(١) نجد الوصف التالي لنور الدين في التاريخ الباهر ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) زيادة من ف .

(٣) في ص : وفيه . في ف : وبه .

(٤) زيادة من ف .

(٥) في ص : في الهوى ، وفي ف : من الهوى .

(٦) أي جعبتين .

الحرب بنفسه][1] ، وكان يقول : قد تعرضتُ للشهادة غيرَ مرة فلم أُدركها ، ولو كان فيَّ خيرٌ ولي عند الله قيمةٌ لرزقتها ، والأعمال بالنيات .

وقال[2] له يوماً القطبُ النيسابوري الفقيه الشافعي : يا مولانا السلطان ، لا تُخاطرْ بنفسك وبالإسلام والمسلمين فانك عمادهم . فلو أصبت في معركةٍ ، والعياذُ بالله ، لا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيفُ وتؤخذ البلاد، فقال: يا قطب الدين ، اسكتْ ، فإن قولك هذا إساءةُ أدبٍ على الله . ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي من حفظ البلاد ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو، فبكى من كان حاضراً .

قال **ابن الأثير**[3] : ومن أحسن الآراءِ ما كان يفعله مع جنده ، فإنه كان اذا توفي أحدُهم وخلّف ولداً أقرَّ إقطاعه عليه ، فان كان الولد كبيراً استبد بنفسه ، وان كان صغيراً رتّب معه من يتولّى أمره [إلى أن يكبر][4] فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها . وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب المقتضية للصبر في المشاهد والحروب .

وما[5] كان يَكِلُ الجندَ إلى الأمراء ، بل يتولاهم بنفسه ويباشر خيولهم

---

(١) زيادة من ف .

(٢) راجع الرواية التالية في التاريخ الباهر ص ١٦٩ .

(٣) راجع التاريخ الباهر : ص ١٦٩ .

(٤) زيادة من ف .

(٥) راجع الخبر التالي في التاريخ الباهر ، ص ١٦٩ مع اختلاف في اللفظ .

وسلاحهم مخافة ان يقصّر الأمراء في حقّهم ، ويقول : نحن كل وقت في النفير ، فاذا لم يكن أجنادُنا كاملي العُدّة دخلَ الوهن على الإسلام .

وأما[1] هيبته ووقاره فإليه النهاية . وكان[2] ، كما قيل ، شديداً من غير عنف ، رقيقاً من غير ضعف ، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فانه ضبطَ ناموسَ المُلك مع أجناده وأصحابه إلى غايةٍ لا مزيد عليها ، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة ، الصغير منهم والكبير . ولم يجلسْ عنده أميرٌ من غير أمره له بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف [بن أيوب] ، وأما ما عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية وغيرهما فانهم كانوا اذا حضروا عندده يقومون إلى أن يأمرهم بالقعود . وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي [أو الفقير][3] ، يقوم له ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه الى جانبه [ويقبل عليه بحديثه][4] كأنه أقرب الناس اليه . وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول : هؤلاء لهم في بيت المال حقّ ، فاذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنّة [علينا][5] .

وكان مجلسه[6] كما رُوي في [صِفة][7] مجلس رسول الله ﷺ : [مجلس][8]

---

(١) نجد الوصف التاريخ الباهر : ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) في ف : وكأنه .

(٣) زيادة من التاريخ الباهر .

(٤) زيادة من التاريخ الباهر .

(٥) زيادة من ف .

(٦) راجع صفة مجلسه في التاريخ الباهر ، ص ١٧٣ .

(٧) زيادة من ف .

(٨) زيادة من التاريخ الباهر .

حلم وحيــــاء لا تؤبن فيه الحرم . هكذا! كان مجلسُه لا يُذكر فيه إلا العلمُ والدين وأحوالُ الصالحين ، والمشاورةُ في أمر الجهاد وقصدِ بلاد العدو ، ولا يتعدّى هذا .

وحُكي[1] أن الحافظَ بن عساكر رحمه الله[2] حضر مجلس الملك الناصر صلاح الدين يوسف لمّا ملَكَ دِمشق ، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجالسين ما لم يحدث في غيره[3] ، فشرع يحدّث صلاحَ الدين كما كان يحدّث نور الدين ، فلم يتمكن من القولِ لكثرة الاختلاف من المحدِّثين[4] وقلّة استماعهم ، فقام ، وبقي مدة لا يحضر المجلس الصّلاحي ؛ وتكرر من صـــلاح الدين الطلب له [فحضر][5] ، فعاتبه صلاحُ الدين على انقطاعه ، فقـال : نزَّهتُ نفسي عن مجلسك ، فاني رأيتُه كبعض مجالس السوقة لا يستمع إلى قول قائل ، ولا يُردُّ جوابُ متكلم . وقد كنا بالأمس نحضر مجلسَ نور الدين ، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، فاذا تكلم أنصَتْنا ، وإذا تكلمنا أنصت[6] لنا . فتقدّم صلاحُ الدين إلى أصحابه أن لا يكونَ منهم مـا جرت به عادتُهم إذا حضر الحافظُ . قال ابن **الأثير** : هكذا كانت أحواله رحمه الله [جميعها][7] مضبوطة محفوظة .

وكان معتنياً بحفظ أصول الديانات ، ولا يمكّن أحداً من إظهار مـــا يخالف الحق . ومتى أقدم مُقدم على ذلك ، أدّبه بمـا يناسب بدعته . وكان

---

(١) روى الحكاية التالية صاحب التاريخ البـاهر ، ص ١٧٣ .
(٢) في ف : رضي الله عنه .
(٣) في ف : (ما لا يحد) بدل (ما لم يحدث في غيره) .
(٤) في ف : المتحدثين .
(٥) زيادة من ف .
(٦) في ف : استمع .
(٧) زيادة من ف .

يبالغ في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدينَ ونمنعُ عنه ما يناقضه . قال[1] : وحكي ان إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يُظهر الزهد والنسك . وقد كثر اتباعه وأظهر شيئاً من التشبيه ، فبلغ خبرُه نورَ الدين ، فأركبه حماراً وأمر بصفعه ، وطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه : هذا جزاءُ من أظهر في الدين البدع ثم نفاه من دمشق ، فقصد حرّان . قال : ويسوقُ اللهُ القصيري الأعمار إلى البلاد الوخمة .

(١) أي ابن الاثير ، راجع التاريخ الباهر ، ص ١٧٣ .



الباب الرابع

فيما فعله في بلاد الإسلام من المصالح والمساعي الكفيلة بالمناجح وما أدخل على المسلمين من المسارّ وعمّهم به من المبارّ

وذلك[١] عظيم كثير . من ذلك أنه بنى أسوارَ [مدن] [٢] الشام جميعِها وقلاعها ، منها دمشق وحمص وحماة وحلب وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون، وحصّنها وأحكم بناءها ، وأنفق عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس ، وبنى أيضاً المدارسَ بدمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها للشافعية والحنفية . حتى ان بلاد الشام كانت خاليةً من العلم[٣] وأهله ، وفي زمنه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، وبنى الجوامعَ في غالب البلاد . فجامعهُ في الموصل اليه النهاية في الحسن والاتقان. وكان قد فوّض أمرَ عمارته والخرج[٤] عليه الى الشيخ عمر الملاء رحمه الله ، وكان من الصالحين ، فقيل له : انه لا يصلح لمثل هذا العمل ، فقال : إذا ولّيت العمل بعضَ [أصحابي من] [٥] الأجناد أو بعضَ العمال أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامع بظلم

---

(١) يورد ابن قاضي شهبة هنا ما قاله ابن الاثير عن مآثر نور الدين . راجع التاريخ الباهر: ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) زيادة من ف .

(٣) في ص : البلاد . في ف : العلم .

(٤) في ف : الخروج .

(٥) زيادة من التاريخ الباهر .

رجل مسلم ، واذا ولّيت هذا الشيخَ غلب على ظني أنه لا يظلم أحداً ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا عليّ .

وإنما سميَ هذا الشيخُ بالملّاء[1] لأنه كان يملأ تنانير الآجر ، ويأخذُ الأجرةَ يتقَوّتُ بها . وكان ما عليه من الثياب مثلَ القميص والعمامة يملكه لغيره ، فلا يملك من الدنيا شيئاً . وكان عالماً بفنون العلوم ، وجميعُ الملوك والأعيان والعلماء يزورونه ويتبرّكون به . وكان يعمل مولِداً لرسول الله ﷺ في كل سنة ويحضر دعوتَه صاحبُ الموصل والأكابر . وكان نورُ الدين يحبه ويكاتبه .

وكان مكان الجامع النوريّ خربةً واسعةً ما شرع أحدٌ في عمارتها إلا وقصر عمره ، فأشار الشيخُ عمر على نور الدين بعمارتها جامعاً ، فاشتراها وأنفق عليها أموالاً كثيرة يقال ستين ألف دينار ، ويقال ثلاثمائة ألف دينار ، فتم في ثلاث سنين . ولما تم توجه[2] نور الدين الى الموصل ، وهي المرة الأخيرة ، فصلى فيه ، ووقف عليه قرية بالموصل ، ورتب فيه خطيباً ومؤذنين ، وعمل له البسط والحصر وغيرها . ثم دخل الشيخُ عمر على نور الدين وهو جالس على دِجْلة فترك بين يديه دساتيرَ الخرج على الجامع ، وقال : [يا مولانا ، أشتهي أن تنظر فيها] [3] ، فقال له : يا شيخ نحن عملنا هذا لله تعالى ، دع الحساب الى يوم الحساب ، ثم رمى بالدساتير في دجلة .

وبنى[4] جامع حماة على نهر العاصي ، وهو من أحسن الجوامع وأنزهها .

---

(١) راجع ترجمة عمر الملاء في مرآة الزمان ، ج ١ ص ٣ ، ٣١٠ .

(٢) في ف : جاء .

(٣) زيادة من ف .

(٤) راجع ما فعله نور الدين من المصالح في التاريخ الباهر ، ص ١٧٠ - ١٧٢ .

وبنى البيمارستانات في البلاد . ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فانه عظيم كثير الخرج .

وحكي[1] أنه وقع بيد نور الدين افرنجي من أكابر الملوك ، ففدى نفسه بمال عظيم ، فشاور نور الدين أُمراءَه ، فأشاروا ببقائه في الأسر خوفاً من شره ، فأرسل اليه نور الدين في السر يقول : أحضِرِ المال . فأحضر ثلثمائة ألف دينار ، فأطلقه نور الدين . فعند وصوله الى مأمنه مات . وبلغ نور الدين خبره فأعلم أصحابَه ، فتعجبوا من لُطف الله بالمسلمين حيث جمع لهم الحُسنيين: الفداء وموت ذلك اللعين [2]

وبنى نور الدين البيمارستان بدمشق ، وبنى أيضاً مدرسته ودارَ الحديث بدمشق ، ووقف عليها الاوقاف . قاله ابن الأثير [3]

قال الشيخ **عماد الدين بن كثير**[4] : ومن شرط البيمارستان أنه على الفقراء والمساكين . وإذا لم توجد بعض الأدوية التي يعزّ وجودُها إلا فيه فلا يُمنع منه الأغنياء ، ومن جاء اليه فلا يمنع من شرابه [ولهذا جاء نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله تعالى] [5] . قال : ويقول بعضُ الناس إنه لم تخمد منه النار منذ بني الى زماننا هذا . قلت : ويقال إنها مستمرة لم تخمد إلا في فتنة تمرلنك . عامله الله بما يستحق .

---

(١) راجع الحكاية التالية في مرآة الزمان ج ١ ، ص ٣١١ .

(٢) رواية مرآة الزمان لنهاية الحكاية هي كما يلي : « فطلب الامراء سهمهم من المال فقال نور الدين : ما تستحقون منه شيئاً لأنكم نهيتم عن الفداء ، وقد جمع الله لي الحسنيين : الفداء وموت اللعين وخلاص المسلمين منه . فبنى بذلك المال مارستاناً » .

(٣) راجع التاريخ الباهر : ص ١٧٢ .

(٤) أنظر البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٥) زيادة من ف . في نص ص بعض الاضطراب في ترتيب قال وقلت .

حكى الشيخ الجزري في تذييله على **المرآة** أن نور الدين لمـــا حضر الى البيمارستان أحضر له قدح شراب فشربه ، وقال : هذا حلال على جميع المسلمين وعلى مثلي وعلى أقلّ العالم، وحرام على اليهود والنصارى وعلى غلام وجارية تحت الرقّ ، فلا يدخله إلا من هو معتوق[١] .

قال[٢] : وبنى أيضاً الأبراجَ على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الحمام الهوادي ، فإذا رأوا من العدوّ أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم ، فلم يبلغ العَدوُّ منهم غرضاً . وكان هذا من ألطفِ الفِكر وأكثره نفعاً .

قـــال[٣] : وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ، ووقف عليهم[٤] الوقوف الكثيرة ، وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحـة ، وكان يُحضر مشايخَهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويباسطهم ويتواضع لهم ، واذا أقبل عليـه أحدُهم يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ، ويقبل عليه بحديثه . وكان كذلك يفعل بالعلمـــاء من التعظيم والتوقير والاحترام ، ويجمعهم عند البحث والنظر . وكانوا يقصدونه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها ، وكان اذا نقل عن انسان منهم عيب يقول: ومن المعصوم؟ إنما الكامل من تعدّ ذنوبه .

قـال **ابن الأثير**[٥] : ان بعض [الأكابر من] [٦] الأمراء حسد قطبَ الدين

---

(١) هذه الفقرة من (حكى) الى (معتوق) ليست في ف .

(٢) راجـع التاريخ البـاهر : ص ١٧١ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) في ف : عليها .

(٥) راجع القصة التالية في التاريخ الباهر .

(٦) زيادة من المرجع السابق .

النيسابوري الفقيه الشافعيّ لقربه من نور الدين ، [وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والإحسان اليه ، فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين] [١] فقال له : يا مسكين ، لو نظرتَ في عيب نفسك لشغلك عن عُيوب غيرك ، ولو صحّ ما تقول فله حسنة تغفرُ كل زلة تذكرها [وهي العلم والدين ، وأما أنتَ وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة نغفرها] [٢] ، والله لئن عدتَ الى ذكره او ذكر غيره بسوء لأوذينَّك ، فكف عنه [٣] . قال **ابن الاثير** : هذا هو الاحسان والفعل الذي ينبغي ان يُكتب على العيون بماء الذهب .

قال [٤] : وبنى داراً للحديث بدمشق ، وهو أولُ من بنى دار الحديث فيما علمنا . وبنى مكاتبَ الأيتام في كثير من البلاد ، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الخيرات الوافرة ، وبنى أيضاً المساجد الكثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، قال : وهذا فعل لم يسبق اليه ، قال : وبلغني ممن هو عارف [٥] بأعمال الشام ان وقوف نور الدين في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة في [٦] أبواب البرّ بالشام كلّ شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها ملك فيه كلام ، بل حقٌ ثابت بالشرع باطناً وظاهراً .

وذكر العماد الكاتب في أول كتابه **البرق الشامي** نورَ الدين [٧] وأثنى عليه

---

(١) زيادة من التاريخ الباهر .

(٢) زيادة من ف .

(٣) باقي القصة في التاريخ الباهر كما يلي : « ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا - ان صحت - مع وجود حسنته، على أنني والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأوذينك ، فكف عنه » .

(٤) ابن الاثير . أنظر المرجع السابق، ص ١٧٢ .

(٥) في ف : من عارف .

(٦) في ص : من .

(٧) العبارة من (وذكر) الى هنا تختلف لفظاً عن عبارة ف .

وقال : في سنة تسع وستين وخمسمائة التي توفي فيها نورُ الدين أكثر فيهـــا من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وأمر بتعفية آثار الآثام وإسقاط كل ما فيه [من] [1] الحرام ، فما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج . قال : وأمرني بكتابة مناشير لجميع البلاد ، فكتبتُ أكثرَ من ألف منشور ، وحسبنا ما تصدّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار . وكانت[2] عادته في الصّدقة ان يُحضر جماعةً من أماثلِ البلد من كلّ محلة ويسألهم عمن يعرفونه في جوارهم من أهل الحاجة ، ثم يصرف اليهم على قدر حاجاتهم ، قال : ولو اشتغلتُ بذكر وقوفه وصدقاته في كلّ بلد لطال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد . ومشاهدةُ أبنيته دالـّةٌ على خُلوص نيّته ، تغني عن خبرها بالعيان ، وتكفي أسوارُ البلدان والربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب ، وفي شرح طوله طول ، وعمـــله لله ذلك مبرور مقبول .

قال[3] : ولما أسقط نور الدين الجهـــات المحظورة والشبه المحذورة ، عزل الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين الشهرزوري: انظر أنت في ذلك ، واحمل أمور الناس فيها على الشريعة ، قـــال : ولم يكن لبيت المواريث حاصل ولا لديوانه حامل ، فجعل نور الدين ثلث ما يحصل منه لكمال الدين الحاكم فوفره نوابه وكثروه . وما كان نور يحاسب القاضي على شيء من الوقوف ، ويقول : أنا قد قلدته على أن يتصرف بالمعروف .

وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله[4] أنه حضر مع عمه

---

(١) زيادة من ف .

(٢) في ص : وكان .

(٣) أي صاحب البرق الشامي .

(٤) ابن عساكر . راجع الروضتين ق ١ ج ١ ص ، ٢٧ - ٢٨ .

الحافظ أبي القاسم رحمه الله مجلسَ نور الدين لسماع شيء من الحديث ، فمر في أثناء الحديث أنّ النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً ، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه ، وقال : كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف ، يشير الى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم ، قال : فلما كان من الغد مرّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان ، فوقفنا ننظر اليه ، فخرج نور الدين رحمه الله تعالى من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك ، فرحم الله هذا الملكَ الذي لم يفرط في الاقتداءِ بالنبيّ ﷺ بمثل هذه الحالة ، بل لما بلغَتْه رجعَ بنفسه وردَّ جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيّه ﷺ ، فما الظن بغير ذلك من السنن !

وكان رحمه الله فرداً في زمانه من بين سائر الملوك . ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها وان اشتملت على ألفاظ قد أغلظ فيها .

وحكى شرف الدين بن المستوفي[١] في **تاريخ اربل** ان المنتجب الواعظ أبا عثمان ابن أبي محمد البحتري عمل في نور الدين قصيدة وأنشده إياها من لفظه وهي قوله :

مثّل وقوفك أيهـا المعذور	يوم القيـامة والسماء تمور
انْ قيل نورالدين رحتَ مسلماً	فاحذر بأن تدعى وما لك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من	كأس المظالم طافح مخمور
عطّلت كاسات المدام تعفّفاً	وعليك كاساتُ المكوس[٢] تدور

---

(١) هو أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي ، والملقب شرف الدين المعروف بابن المستوفي الاربلي . جمع لاربل تاريخاً في أربع مجلدات . وتوفي في الموصل عام ٦٣٨ هـ .
راجع وفيات الأعيان (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ترجمة ٥٢٦ من الجزء الثالث .

(٢) في الروضتين : الحرام .

ماذا تقولُ إذا نقلت إلى البلى	فردا ، وجاءك منكر ونكير
ماذا تقولُ إذا وقفتَ بموقف	فرداً ذليلاً والحسابُ عسير
وتعلّقت فيك الخصوم وأنت في	يوم الحساب مُسحب مجرور
وتفرقت عنكَ الجنود وأنت في	ضيق اللحود موسَّد مقبور
ووددت أنك ما وليتَ ولايةً	يوماً ، ولا قال الأنامُ أمير
وبقيت بعد العزّ رهنَ حفيرة	في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عرياناً حزيناً باكياً	قلقاً ، ومالك في الأنام مجير
أرضيتَ أن تحيا وقلبك دارس	عافي الخراب وجسمك المغمور[1]
أرضيتَ أن يحظى سواك بقربه	أبداً وأنت مبعد مهجور
مهّد لنفسك حجة تنجو بها	يوم المعاد لعلك المعذور[2]
تدعى بنور الدين فاحذر في غد	تدعى ظلام الدين مالك نور

قال صاحب الروضتين[3] : ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة لإبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم ، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه ، ووفّق من رام الإقتداء به .

وكان هذا الواعظ من كبار الصالحين ليسَ له شيءٌ ولا يقبل من أحد شيئاً، إنما كانت له جبة يلبسها اذا خرج إلى مجلس وعظه . وكان في مجلس وعظه ألوف من الناس .

وقال **قاضي القضاة بهاء الدين**[4] أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم : حكى لي

---

(١) في الروضتين : المعمور .

(٢) هكذا في الروضتين : ، وفي ص : ويوم تبدو العور .

(٣) راجع الروضتين ، ق١ ج١ ، ص ٢٩ .

(٤) هو القاضي بهاء الدين بن شداد صاحب النوادر السلطانية . راجع النص التالي في الروضتين ج١ ق١ ، ص ٣٧ .

الملك الناصر[١] صلاحُ الدين،قال: أرسلني الملكُ العادلُ نورُ الدين الى عمّي أسد الدين شيركوه ، وكان لا يفعل شيئاً الا بمشورته ، وقال : امض اليه ، وقل له : قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس ، وخذ رأيه في ذلك ، قال: فجئتُ الى عمّي ، وأنهيتُ اليه ما قال لي، فقال : امضِ وقل له : يامولانا،إذا فعلتَ ذلك فالأجنادُ الذين أرزاقهم علىهذه الجهات من أين تعطيهم، ونحتاج اليهم غداً للجهاد وخروج العساكر للغزاة . فقال صلاح الدين : فقلت لعمي : هذا أمر قد ألهمه الله إياه فساعد عليه ، [فصاحَ في][٢] وقال : امضِ إليه وقل له ما قلتُ لك ، قال : فعدتُ الى نور الدين وأنهيتُ اليه ما قال لي عمي ، فقال : امض إليه وقل له : إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج ، قال : فعدتُ الى عمي وقلت له ما قال ، فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو . فراجعته [في][٣] ان لا يثبطه في ذلك فصاح في وقال : امض وقل له ما قلت لك . فجئت إليه وقلت له ذلك . فترك ذلك مدة ثم أمضى ما كان عزم عليه .

وحكي[٤] عن بعض مماليك نور الدين انه كان يرفع يديــــه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول : ارحم العشار المكاس .

قال **صقر**[٥] بن يحيى : بلغني ان موفق الدين خالداً رأى في النوم نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها ، فقصّها على نور الدين فتمعّر[٦] وجهُه ، فخجل موفق الدين ، وبقي أياماً على غاية من الخجل . فاستدعاه نور الدين يوماً وقال : قد آن

---

(١) في ف : السلطان الملك الناصر .
(٢) زيادة من ف .
(٣) زيادة من ف .
(٤) صاحب الرواية التالية هو ابن شداد .
(٥) سمع ابن شداد الرواية التالية من صقر بن يحيى. واجع الروضتين ج١ ق١ ، ص ٣٧ .
(٦) أي تغير وعلته صفرة .

لك أن تغسل ثيابي ، اقعد واكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين اني قد رفعت عنهم ما رفعه الله تعالى عنكم ، واثبتُ مـا أثبتَـه اللهُ عليكم . فكتب موفق الدين توقيعاً بذلك .

وحدث[1] رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر ان نور الدين حين خرج لأجل شيزر خرج ابو غانم بن المنذر صحبته ، فأمره[2] نور الدين رحمه الله بكتابة منشور باطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وسنجار وحرّان والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب ، فكتب عنه توقيعاً نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقرّب به الى الله سبحانه صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا ، رعاهم الله ، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار ، أبادهم الله تعالى ، عند استيلائهم على البلاد ، وظهور كلمتهم على العباد ، رفقاً بالمسلمين المثاغرين[3] ، ولطفاً بالضعفاء والمرابطين الذين خصهم الله تعالى بفضيلة الجهاد ، واستمحنهم بمجاورة أهل العناد ، اختباراً لصبرهم ، وإعظاماً لأجرهم ، فصبروا احتساباً ، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . وأعاد عليهم مـا اغتصبوا عليه من املاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمرية ، وأقرها في الدولة الإسلامية ، بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين ، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين ، فطمس عنهم بذلك معالم الجور ، وهدم أركان التعدي ، وأقر الحق مقرّه لقوله تعـالى : (من جـاءَ بالحَسَنَةِ فلهُ عَشْرُ أمْثـالهـا) (الانعـام ، ١٦٠) (واللهُ يُضَاعِفُ لمـن يشاء) (البقرة ، ٢٦١) . ثم أعانه [اللهُ][4] بعَونه ، وأيّده بنصره ، وقمع به عادية

---

(١) رواية ابن شداد عنه . راجع الروضتين ج١ ق١ ، ص ٣٨ .

(٢) هكذا في الروضتين ، وفي ص : فأمر .

(٣) المرابطون بالثغور لجهاد العدو .

(٤) زيادة من ف .

الكفر، واظهر بهمته شعائر الإسلام، واظهره على الفئة الباغية[1]، وأمكنه من ملوكها الطاغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنوع الرّقاد (وآخرين مُقَرَّنين في الاصفاد هذا عطاؤنا فامْنُنْ او أَمْسِكْ بغير حساب، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) (ص ٣٨-٤٠) علم ان الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية[2]، واستبقى ملكه الزائل بأن قدّمه وجعله ذخراً للمعاد، فالتقوى مادة زاده اذا انقطعت المواد (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمْرُ يَوْمَئِذٍ لله) (الانفطار، ١٩) . فسمح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس، فأسقطها من دواوينه، وحرّمها على كلّ مُتطَاولٍ إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لاثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغُ ما سامح به واطلقه وأنفذَ الأمرَ فيه اتباعاً لكتاب الله وسنةِ رسوله ﷺ في كل سنة [من العين][3] مائة الف [وستة وخمسون][4] الف دينار، جهة ذلك: حلب المحروسة خمسون الف دينار، عزاز عن مكس جددته الفرنج خذلهم الله على المسافرين عشرة آلاف دينار . [تل باشر واحد وعشرون ألف دينار، المعرّة ثلاثة آلاف دينار][5] دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ به من فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو، وضعفهم عن مقاومته، ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه القشَّة، عشرون الف دينار [حمص ستة وعشرون الف دينار، حران خمسة آلاف دينار][6] . سنجار الف دينار، الرحبة عشرة آلاف دينار، [عداد العرب عشرة آلاف دينار][6] طلباً لما عندَ الله، واللهُ عنده حُسْنُ الثواب . فالواجب على كل إمام عادل وسلطان قادر أن يمده

(١) في ف : وأظفره بالفئة الباغية .
(٢) في ف : الأخرى الباقية .
(٣) زيادة من ف .
(٤) زيادة من ف .
(٥) زيادة من ف .
(٦) زيادة من ف .

ويودّه ، ويشدّ عضده ، ويقوّي عزمه ، وينفّذ حكمه . وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار . وكتب [خادم دولته وغذيّ نعمته عبدُ الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي غفر الله له ورحمه ورضي عنه][1] إلى كل من يصلُ اليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبدين ، وكافة التجار المسافرين ، احسنَ اللهُ توفيقهم ، ليُشْعروا [بذلك من حضرهم][2] من التجار المترددين اليهم من السفّار ليعرفوا قدر ما أنعم الله به عليه وعليهم (وليُنْذِروا قَوْمَهم إذا رَجَعوا إليهم) (التوبة : ١٢٢) ويُمدّوه بأدْعِيَتِهم،ويبرئوا ذمته مما سبق من أخذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه برّ ، وتجهيز جيش ، ومعونة مجاهد ، وردع كافر ومعاند ، فهم شركاؤه في الثواب . [قال لي رضي الدين ابو سالم بن المنذر][3] : فلما وقف نور الدين على قوله : ويبرئوا ذمته مما سبق ، استحسن ذلك ووعده باقطاع حسن .

وذكر قاضي القضاة بهاء الدين [4] أن نورَ الدين سيّر كتاباً إلى بغداد يعلم الخليفة بما أطلقه[5] وبمقدار ما أطلق،ويسأله ان يتقدم الى الوعاظ بأن يستحلوا [من التجار][6] ومن جميع المسلمين له وان يجعلوه في حل مما كان وصل اليه من أموالهم . فتقدم بذلك ، وجعل الوعاظَ ينادون على المنابر بذلك .

قال صاحب **الروضتين**[7] : نقلتُ من خطّ الشيخ الامين أبي القاسم عبد

---

(١) زيادة من الروضتين ج١ ق١ ، ص ٤٠ .

(٢) زيادة من ف .

(٣) زيادة من الروضتين .

(٤) سمع صاحب الروضتين الرواية التالية من القاضي بهاء الدين ابن شداد . راجع الروضتين: ج١ ق١ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٥) في الروضتين : أطلق .

(٦) زيادة من ف .

(٧) راجع الروضتين ج١ ق١ ، ص ٤١ - ٤٢ .

الرحمن بن الحسين بن عبدان الازدي الدمشقي : وقف المولى نورُ الدين بستان الميدان ، سوى الغيطة التي من قبلته ، بعد عمارته واصلاح ما يحتاج اليه على تطبيب المساجد التي يأتي ذكرها : وهي جامع دمشق المحروسة ، جامع القلعة بها ، ومدرسة الحنفية التي جدّدها نور الدين ، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية ، مسجد ابن لبيد بالفُسْقار ، مسجد سوق الرماحين ، المسجد المعلّق بسوق الصاغة ، مسجد دار البطيخ المعلّق ، مسجد العبّاس بسوق الاحد بالصالحية ، المسجد الذي جدّده نورُ الدين جوار بيعة اليهود ، جامع الصالحين بجبل قاسيون : يُبتاع بذلك طيب وعود ، ويفرق على هذه الأماكن : النصف للجامع بدمشق ، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً : جزءان للمدرسة ، وتسعة أجزاء للمساجد الباقية لكل مسجد جزء واحد . تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة ، ومواسم الاجتماعات ، وليالي شهر رمضان ، والأعياد ، وأيام الجُمع وقتَ عقد الجمعة في الجوامع ، وليالي الجمعة والخميس والاثنين .

قال[1] ونقلت من خطّه ايضاً ان نورَ الدين حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين ابو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي ، والفقهاء الشيخ شرف الدين بن ابي عصرون ، والخطيب عز الدين ابو البركات بن عبد ، والإمام عز الدين ابو القاسم [علي بن الحسن الشافعيون وشرف الدين أبو القاسم][2] عبد الوهاب بن عيسى المالكي ، وشرف الاسلام نجم الدين بن عبد الوهاب الحنبلي ، ورضي الدين ابو غالب بن عبد المنعم بن محمد بن اسد التميمي رئيس دمشق ، ونظام الدين ابو الكرم[3]

---

(١) أي صاحب الروضتين . راجع ج١ ق١ ، ص ٤١ .

(٢) زيادة من ف .

(٣) في ف : الكرام .

الحسن بن ابي الضيا متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق: وهم عبد الصمد بن تميم ، وعبد الواحد بن هلال ، والصائن ابو الحسن وغيرهم . فسألهم نورالدين عن المضاف الى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفا عليه ، وان يُظهر كل واحد منهم ما يعمله من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه ، وقال لهم : ليس يجوزُ لأحدٍ منكم أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره ، ولا يُنكر شيئا مما يقوله غيرُه إلا وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوِّب لقوله ، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدون به ، وعلى هذا كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم [يجتمعون][1] ويتشاورون في مصالح المسلمين ، وكل من الحاضرين شكره على ما قصده ، وأثنى عليه ، ودعا له بالبقاء . ثم أمر نور الدين رحمه الله تعالى متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقنيِّ السبيل وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبةَ الأوقاف موضعا موضعا ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف . فافتتح بالسوق المستجدّ تحتَ المئذنةِ الغربية جوارَ البيمارستان ، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال : هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين [وليس من وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين][2] . كما شهدوا به ، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة . ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي علوها ، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن المستجدّ بها ، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل ، وحانوت في الخواصين في الصف الغربي ، واثني عشر حانوتا متلاصقات من الصف

---

(١) زيادة من ف .

(٢) زيادة من ف .

الشرقي تعرف بالمعتصات ، ونصف حانوت ، والفرجة المستجدة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي ، وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً ومصطبة ، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي لصق الفرجة من شرقها ، وحانوت بالفُسقار في[1] الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي ، وحوانيت اللبادين [والتي بحضرة الفوارة تحت اللبادين][2] وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة ، وحانوتان[3] في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين ، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي [بحضرة البياطرة، وقطعة جوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي][4] من سوق الأحد وهي خمس عشرة عضادة ، وستة أسهم من طاحون السقّيفة ، وذلك كلّه بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل ، وبعضهُ اشتُري بمال الوقف والمصالح ، وبعضه أخذ ممن باد أهلُه الموقوف عليهم ولم يكن له مال ، وبعضُه أُحدث في الطريق . قال : فلما شهدوا بصحة جميع ما ذُكر ، [وأن منافع ذلك][5] وأجوره جارية في المصالح ، قال نور الدين : إنّ أهم المصالح سد ثغور المسلمين ، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم . وصوّبوا ما أشار اليه وشكروه . ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق [للمصلحة][6]

---

(١) هكذا في ف ، وفي ص : وفي .

(٢) زيادة من ف .

(٣) هكذا في ف ، وفي ص : حانوتاً .

(٤) زيادة من ف .

(٥) زيادة من ف .

(٦) زيادة من ف .

المتوجهة للمسلمين ، فأفتى شرفُ الدين [ابن عبد الوهـــاب][١] المالكي بجواز ذلك ، ومنهم من توقف ليتروى[٢] . فقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون [الشافعي][٣] : لا يجوز أنْ يُصرف وقفُ مسجد الى غيره ، ولا وقفٌ معيّن الى جهة غير تلك الجهة . وإذا لم يكن بدّ من ذلك ، فليس طريقه إلا أن يقرضه من إليه الأمر في بيت المال للمسلمين . [فيصرفه في المصالح ويكون القضـــاء واجبا من بيت المال][٤] فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك . ثم سأل ابن أبي عصرون نورَ الدين : هل أُنفق شيء قبـل اليوم على سور دمشق ، وعلى بنـاء الكلاسة من شام الجامع ، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع ، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجـامع ، وسائر العمائر المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا ، وهل كان إلا بمبلغ الأمر العالي في عمل ذلك ، فقال نور الدين : لم ينفق ذلك [ولا][٥] شيء منـه إلا بإذني ، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين غربيّ الجـامع المعمور اللذين كانا مخربين ، وكنت مبلغـاً عني ومؤذناً أمري .

هذا[٦] مختصر المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس ، وهو مشتمل على فوائد حسنة ، وتأكيد لمـا نقل من سيرة هـذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة . وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين .

---

(١) زيادة من الروضتـين .

(٢) الكلمة بعد توقف في ص غير واضحة . في ف : ليتروى .

(٣) زيادة من الروضتـين .

(٤) زيادة من ف .

(٥) زيادة من الروضتين .

(٦) الفقرة التـالية من كلام صاحب الروضتـين .

وحكى[1] صاحب الروضتين عن بعضهم أنه حضر صبيّ عند الملك العادل وبكى ، وذكر ان أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف ، فسأل عن حاله، فقالوا : هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعيد الصوفي ، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة [الوقف][2]وليس له قدرة على الأجرة،وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة ، قال الملك العادل نور الدين . كم أجرة السنة ؟ قالوا : مائة وخمسون قرطاساً. وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرقّ له وأنعم عليه، وقال : نحن نعطيه كلّ سنة هذا القدرَ ليصرفه الى الأجرة ويقعد فيها. [وتقدم بذلك][3] وأمر باخراجه من الحبس ، فوصل الى قلب كل أحد من الحاضرين الفرح حتى كأنّ الانعامَ كان في حقـّه .

---

(١) راجع الروضتين ج ١ ق ١ ، ص ٣٦ . ويروي صاحب الروضتين الحكاية التالية عن ابن شدّاد .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) زيادة من الروضتين .



الباب الخامس

في [ذكر] زهده وورعه وعبادته ودينه [وعلمه][1]
المكمل لسيادته ، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته

قال ابن الأثير[2]: فان قال قائلٌ كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليــه الأموال الكثيرة، فليذكُرْ نبيَّ الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه وهو سيّد الزاهدين في زمانه ، ونبيّنا ﷺ قد حكم حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام الى أرض العراق وهو على الحقيقة سيّدُ الزاهدين . قال : وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيــا لا خلو اليد منها .

وكان[3] نور الدين رحمه الله تعالى مع سعة ملكه وذخائر بلاده لا يأكلُ ولا ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم . وكان يُحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحلُّ له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فيأخذ ما يُفتونه[4] بحله ، ولم يتعدَّه الى غيره البتة .

ويقال إن نفقته كانت من الجزية في كل شهر ألفا قرطاس يصرفُها في كسوته

(١) زيادة من ف .

(٢) راجـع التاريخ الباهر ص ١٦٦ .

(٣) تجد الفقرة التالية عن زهد نور الدين في التاريخ البـاهر ، ص ١٦٤ مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٤) في ص وف : يفتوه .

وملبوسه ومأكوله حتى أجرة خياطه ، ويستفضل منها ما يتصدق به في آخر الشهر . ويقال انّ قيمة القراطيس مائة وخمسون درهماً ، وما كان يصلُ اليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعثه الى القاضي يبيعُه ويعمّر بـــه المساجدَ المهجورة ، ويشتري لها أوقافاً ولا يتناولُ منها شيئاً[1]، ولا[2] يلبس قط ما حرمه الشرعُ من حرير او ذهب او فضة، ومنع من شُرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن إدخالها الى بلد ما ، وكان يحدُّ شاربَها الحدَّ الشرعيّ ، كل الناس عنده فيه سواء .

وكان كثيرَ الصيام ، وله أوراد في الليل والنهار . وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ، ثم يتمم أوراده .

أخبرت[3] عنه زوجته الخاتون بنتُ معين الدين أنه كان اذا جاء اليها يجلسُ في المكان المختص به فتقوم في خدمته ، ولا تتقدم اليــه إلا [أن يأذن لها] [4] في أخذ ثيابه عنه ، ثم تنعزل في المكان المختص بها ، وينفرد هو تارةً يطالعُ في وقائع أصحاب الأشغال ، او ينظر في كتاب أتاه ويجيب عنــه . وكان يصلـّي فيطيل الصلاة . وله رحمه الله تعالى أوراد في النهار ، فاذا جــاء الليل وصلـّى العشاء ، نام ثم استيقظ نصف الليل ، فيتوضـــأ ويصلي الى الفجر ، ثم يصلـّي الصبح ، ويظهر للركوب ويشتغلُ بمهات الدولة . وأرسلتْ اليه الخاتونُ يوماً أخاها من الرضاع تذكر له أنه لم يكفها ما كان قرّره ، وتطلب منه زيادة . فلما قال ذلك، تنكر واحمر وجهه ، ثم قال: من أين أعطيها ما يكفيها ! والله

---

(١) راجع النص من هنا الى آخر الفقرة في التاريخ الباهر ، ص ١٦٤ .

(٢) في ف : لم .

(٣) راجع الخبر التالي في التاريخ الباهر ، ص ١٦٤ . ويقول ابن الأثير إنه سمع الخبر من صديق له بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر ، زوجة نور الدين ، ووزيرها . وبين الروايتين في ص وفي التاريخ الباهر اختلاف يسير في اللفظ .

(٤) زيادة من التـاريخ الباهر .

لا أخوض في نار جهنم في هواها . إنْ كانتْ تظن أنَّ الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن ، إنمـا هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، وأنا خازنُهم فلا أخونهم فيها . ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم ، وقد وهبتُها إياها ، فلتأخذها . وكان يحصُل منها قدر يسير .

وقد كانت زوجته هذه أيضاً من الصالحات الخيّرات تُكثر القيام . فنامت ليلةً عن وردها فأصبحت وهي غضبى ، فسألها نور الدين عن أمرها ، فذكرت له نومها الذي فوّت عليها وردها ، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السّحر [ليوقظ النـــائم ذلك الوقت لقيام الليل][1]، ورتب للضارب جراية وجامكية .

قال ابن **الأثير**[2] : وكان لا يفعل فِعلاً إلا بنيّه حسنه . وكان بالجزيرة رجلٌ من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس . وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ، ويرجع الى قوله ، ويعتقد فيه اعتقـــاداً حسنـــاً . فبلغه ان نورَ الدين يُدمن اللعبَ بالكرة ، فكتب اليه يقول : ما كنت أظنك تلهو وتلعب[3] وتعذب الخيل لغير فائدة دينية . فكتب اليه نور الدين بخطـه يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، انما نحن في ثغر والعدو[4] منا قريب ، فربما وقع صوتٌ فتكون الخيلُ قد أدمنتْ على سرعة الانعطاف بالكر والفرّ ، فاذا طلبنا العدو أدر كناه، ولو تركناها على حالها لصارت جماماً لا تنفع ، ولا يمكننا ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاء ، إذ لا بد من الراحة للجند . فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة، قال : فانظر الى هذا الملك المعدوم النظير الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله ،

---

(١) زيادة من ف .

(٢) راجع الحكاية التـــالية في التاريخ الباهر ، ص ١٦٤ - ١٦٥ مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٣) في ص : أو تلعب .

(٤) في ف : العدو .

فان من يجيء الى اللعب بهذه النية الصالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات ، فقلّ في العالم مثلُه . وفيه دليل على انه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة . وهذه أفعالُ العُلماء الصالحين العاملين .

قال[١] : وحُكي عنه انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فوضعت بين يديه ، فلم يلتفت اليها . وبينما هم معه في حديثها ، إذْ جاءه رجل صوفي فأمر له بها . فقيل له : إنها لاتصلح لهذا الرجل ، ولو أُعطي غيرها كان أنفع له ، فقال : اعطوها له فإني أرجو ان أعوّض عنها في الآخرة . فسلمت اليه، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار اميري او سبعمائة دينار أميري[٢]. ويقال انه أعطاها لشيخ الصوفية أبي الفتح بن حمويه ، فبعث بها الى العجم ، فبيعت بألف دينار .

قال : وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه ، وليس عنده تعصب على أحد ، والمذاهبُ كلها عنده سواء .

قال ابن **عساكر**[٣]: وسمع[٤][نورُ الدين] الحديثَ وأسمعه،وكان قد استجيز له ممن سمعه ، وجمعه حرصاً منه على فعـــل الخير في نشر السنة [بالأداء][٥] والتحديث ، ورجاء أن يكون ممن حفظ على[٦] الأمة أربعين حديثاً كما جاء في

---

(١) راجع قول ابن الأثير التالي في التاريخ الباهر ، ص ١٦٥ .

(٢) الى هنا تنتهي قصة ابن الاثير . أما باقي القصة فقد قرأها صاحب الروضتين في حاشية من كتاب ابن الأثير بخط ابن من أُعطيَ العمامة. راجع الروضتـــين ، ج ١ ق ١ ، ص ١٣ .

(٣) راجع سيرة نور الدين في تاريخ ابن عساكر في دار الكتب المصرية .

(٤) نجد العبارة من (وسمع نور الدين) الى (أسمعه) في ابن عساكر كما يـــلي : حق روى من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ما سمعه .

(٥) زيادة من ابن عساكر .

(٦) هكذا في ف ، وفي ص : عن .

الخبر[١] . فمن رآه شاهدَ من جَلال السلطنة وهيبة المملكة[٢] ما يبهره ، فاذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيّره[٣] .[وكان] يحبّ الصالحين ويؤاخيهم ويزورهم في أماكنهم لحسن ظنه فيهم . قال الشيخ شهاب الدين في **المرآة**[٤] : وقد صنف له جَدّي كتاباً سماه **البحر النوري** فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك ، وصنف نور الدين أيضاً كتاباً في الجهاد وهو بدمشق ، ثم قال : فقد ذكرت ما نقله علماء السير مما وقع له من سيرته ، وما يستدل بها على صالح سريرته . وقد وقع لي مآثر لم يذكروها ، ومفاخر لم يسطروها ، لم تكن لغيره من ملوك الجاهلية ولا الإسلام ، ولا رأوها ولا في الأحلام .

وكان مشغولاً بصيد الصّيد لا بصيد الغزلان ، وما زال بدر مبادرته إلى الخيرات يتم لا عن نقصان ، هذه المكارم لاقعبان ، وهذه الفصاحة لا سحبان . فمن ذلك انه كان في عزمه ان يفتح البيت المقدس ، فعمل منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفي إلى رحمة الله تعالى قبل الفتوح . فلما ملك[٥] صلاح الدين بيتَ المقدس حملَ المنبرَ اليه ، وأبقى القبلة بجامع حلب .

[ومنها أنه كان له عجائز بدمشق وحلب][٦] وكان يخيط الكوافي ويعمل السكاكر للأبواب وتبيعها العجائز ولا يدري بهن أحد . [فكان يوماً يصوم ويفطر على أثمانها][٧] .

---

(١) في ابن عساكر : الحديث .

(٢) في ابن عساكر : من حال السلطنة وهيئة الملك .

(٣) حذف ابن قاضي شهبة بعد هذه الكلمة سطرين من قول ابن عساكر .

(٤) راجع مرآة الزمان ، ص ٣١٣ .

(٥) في ف : فتح .

(٦) راجع الخبر التالي في المرآة ، ص ٣١٣ . الزيادة من ف .

(٧) زيادة من ف .

وحكى[1] لي شرف الدين يعقوب ولد المبارز المعتمد أن في دارهم سكرة من عمل نور الدين على خرستان ، وهي باقية إلى سنة خمسين وستمائة يتبركون بها .

ومنها[2] ما حكاه لي الشيخ أبو عمر شيخ المقادسة رحمه الله تعالى قال : كان نور الدين يزور والدي الشيخ أحمد في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير ، ونور الدين [الذي][3] بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن ، قال : فجاء يوماً لزيارة والدي[4] ، وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة فقال له [بعض الجماعة][5] : يا نور الدين ، لو كشفت السقف وجدّدته . فنظر الى الخشبة وسكت . فلما كان من الغد جاء معماره ومعه خشبة صحيحة ، فزرقها موضع المكسورة ومضى ، فعجب الجماعة . فلما جاء الى الزيارة قال بعض الحاضرين : يا نور الدين ، ناكرتنا[6] في كشف سقف وإعادته ، فقال : لا والله ، وإنما هذا الشيخُ أحمد رجل صالح وإنما أزوره لأنتفع به ، وما أردتُ أن أزخرف له المسجد ، وانقضَ ما هو صحيح ، وهذه الخشبة يحصل بها المقصود . فدعوني مع حسن ظني فيه ، فلعلّ الله ان ينفعني ببركته .

ومنها[7] ما حكاه لي رجل صالح من أهل حران لقبه الشيخ حياة في سنة

---

(١) اقتباس من المرآة ، ص ٣١٣ .

(٢) الخبر التالي مقتبس من المرآة ، ص ٣١٤ مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٣) زيادة من المرآة .

(٤) في المرآة : جدي .

(٥) زيادة من المرآة .

(٦) هكذا في ص وفي ف .

(٧) القصة التالية مقتبسة أيضاً من المرآة ، ص ٣١٤ وما بعدها ، مع اختلاف يسير في اللفظ .

خمس[1] و ثمانئة، وقد كان نيّف عن التسعين سنة ، قال : لما قُتل أتابك زنكي على قلعة جعبر وملك نورُ الدين قلعة حلب ، تصدّق وأزال المكوس ورد المظالم ، وأنا حديث عهد بعرس ، وقد ركبني دين ، فقالت لي زوجتي : قد سمعتَ أوصافَ نور الدين وإحسانَه إلى الناس ، فلو قصدتَه وأنهيتَ إليه حالك لقضى دينك،قال : فخرجت من حرّان وليس معي سوى درهمين،تركت عندَها درهماً ، وتزودتُ بدرهم ، وأتيتُ الفرات وقتَ القائلة ، فعبرتُ جسرَ منبج ، [وأبعدتُ عن أعين الناس][2] ، وخلعتُ ثيابي ، ونزلت فتوضأت ، وصليت ركعتين ، وإذا إلى جانبي رجلٌ ملفوف في عباءة ، فقال لي : يا فقير ، من أين أنت ؟ قلت : من حرّان قال: وإلى أين ؟ قلت : إلى حلب . قال : وما تصنع فيها ؟ قلت : أنا فقير مديون،وقد بلغني إحسانُ نور الدين إلى الخَلق فقصدتُه لعلّه يقضي دَيْني ، فقال : وأينَ أنتَ من نور الدين ، ومن يوصِلُك إليه ؟ كم عليك دين ؟ قلت : خمسون ديناراً . فأخرج يده من العباءة وبحث [في][3] الرمل ، وأخرج منه قرطاساً وألقاه إليّ ، وقال : خُذْ هذا واقضِ به دينك ، وارجعْ به إلى أهلك . قال : فأخذته فعددتُه وإذا به خمسون ديناراً ، والتفتّ فلم أره ، فبهتُّ وبتُّ في مكاني أفكّر هل أرجعُ إلى حران أو أمضي الى حلب ، وقلت في نفسي : فهذه أوفي بها ديني فمن أين أتقوّت ؟ ثم قمتُ وقصدتُ طريقَ حلب ، فبتُّ بباب بزاعة ، وقمتُ في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح ، [فصليّتُ وقعدت تحت القلعة][4] ، وإذا قد فتح بابُها ونزل نورُ الدين في أبهة عظيمة والأمراء بين يديه حتى جاء إلى الميدان.

---

(١) الصفحة التالية مهزوزة في ف ولكنها واضحة في ص .

(٢) زيادة من المرآة .

(٣) الزيـادة من المرآة .

(٤) زيادة من المرآة .

فلما أراد أن يدخل ، نظر إليّ ورمقني طويلاً ، وأشار إلى خادم بين يديه فجاء الخادم إليّ وقال : قم ، فأخذني وصعد بي القلعة . قال : فندمتُ على مجيئي إلى حلب ، وقلت : يا ليتني قبلت من ذاك الرجل الصالح ، ولعلّ نور الدين توهم أني اسماعيلي فداوي . فلما كان بعد ساعة ، عاد نورُ الدين إلى القلعة ، وجلس في الإيوان ، ومدّ سماط عظيم ولم يمد يده إليه ، وإذا قد فُتح باب عن يمينه وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص[مغطى بمنديل فوضعه بين يديه][1] وفيه عصارة عليها رغيف ، فتأملتُها من بعيد فإذا هي ثردة ، فتناول منها شيئاً يسيراً وأكل الناس ، وأكلتُ معهم . وانصرفَ الناس ، وبقيتُ قاعداً خائفاً . فأوما إليّ ، فقمت وأتيتُ بين يديه وأنا خائف أرعد . فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من حران . قال : وما الذي أقدمك ؟ قلت : عليَّ دين ، وبلغني إحسانُك إلى الناس ، فقصدتُك لتقضي ديني ، قال : وكم دينك ؟ قلتُ خمسون ديناراً . قال فما قد أعطاكَ أمس صاحب العباءة على الفرات خمسين ديناراً ؟ هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر ، وإذا حصل القوت للفقير ما يطلب شيئا آخر ! ثم قال : ما نضيع تعبك ، ورفع سجادتَه وكانت زرقاء ، فإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة ، قال : فبكيت بكاءً كثيراً وقلت : لا آخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة ، فقال : هذا أمر لا يلزمك ، فقلت : يا مولانا ، أنا رجل غريب [وضيف][2] ولي حرمة ، فبالله عليك أخبرْني ! فقال : احلف لي أنك لا تحدّث بهذا في [حال][3] حياتي . فحلفتُ له ، فكشف القباءَ عنه ، وإذا بتلك العباءة على جسده ، وقال :

---

(١) زيادة من المرآة .

(٢) زيادة من المرآة .

(٣) زيادة من المرآة .

أنا ذاك الفقير ، فقلت : بالذي أعطاكَ هذه المنزلةَ بأي شيء وصلتَ إلى هذا ؟ فقال : بقوله تعالى : (إنّ الذين سبقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنى)(الأنبياء : ١٠١) ولكن لا بد من السبب . لما التقينا بالفرنج على حارم ونصرنا الله تعالى عليهم وعُدْتُ إلى حلب، التقاني في الطريق شاب حسنُ الوجه طيّب الرائحة،فسلّم عليّ ، وقال : يامحمود ، أنت من الأبدال ، قد أعطاك الله الدنيا ، فاشترِ بها الآخرة، وسَلْه مهما شئت . ثم علّمني كلمات وقال: إذا طلبتَ أمراً فاذكرها، فقلت له : من أنتَ رحمك الله ؟ قال : أنا أخوك الخضر ، ثم غاب عني . فإذا عزمتُ على أمر ، أو أردتُ أن أذهبَ إلى مكة أو المدينة أو أيّ بلد شئتُ لبستُ هذه العباءة وتكلمتُ بتلك الكلمات ، وأغمضُ عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة .

قال [ابن الجوزي][1] : حكى [لي][2] نجم الدين الحسنُ بن سلام ، أحدُ عدول دمشق وأعيانها ، وكان صديقنا [وصاحبنا رحمه الله][3] قال : لما ملك الأشرفُ بن العادل دمشق وعمر مسجد أبي الدرداء في القلعة ، [دخلتُ عليه يوماً وهو فيه ، فقال لي : يا نجم الدين، كيف ترى هذا المسجد وقد عمّرتُه][4] وأفردتُهُ عن الدور ، وما صلّى فيه أحد منذ زمن أبي الدرداء إلى الآن؟قال: فقلت له : اللهَ اللهَ يا مولانا ، ما زالَ نورُ الدين منذ ملك دمشقَ يصلّي فيه الصلواتِ الخمس . قال : من أين لك هذا ؟ قلت : حدّثني والدي أنه لما نزلتِ الفرنجُ على دمياط بعد وفاة أسد الدين وضايقوها ، أشرفَتْ على الأخذ، فأقام

(١) راجـع مرآة الزمان ، ص ٣١٦ وما بعدها .

(٢) زيادة من مرآة الزمان .

(٣) زيادة من مرآة الزمان .

(٤) زيادة من مرآة الزمان .

نور الدين عشرين يوماً صائماً لا يُفطر إلا على الماء ، فضعف وكاد يتلف . وكان مُهاباً فلم يتجاسرْ أحد أن يخاطبه في ذلك . وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصلّي [به][1] في هذا المسجد ، وكان يقرأ عليه القرآن وله عنده حُرمة . فاجتمع اليه خواصُ نور الدين وخَدَمه ، وقالوا: قد خِفْنا على السلطان، ونحن من هيبته ما نقابله، وأنت تدل عليه، ونسألك أن تسأله أن يتناولَ ما يحفظُ به قُوّته. قال: نعم إذا صلّيتُ بعد غداة غد الفجر سألته. قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخُ يحيي في المنام رسول الله ﷺ يقول له : يا يحيى ، بشّر نورَ الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط ، قال : فقلت : يا رسولَ الله ، ربما لا يصدّقُني ، وأريدُ أمارة ، قال : قل [له][2] بعلامة يوم حارِم ، قال : فانتبه يحيى وهو ذاهبُ العقل ، فلما صلّى نور الدين خلفه الفجرَ وسلّم وشرع يدعو أهابه[3] أن يتحدّثَ معه . فقال له نور الدين : [يا] يحيى ،قال : لبيك يا مولانا ، قال : تُحدّثني أو أحدّثك! [قال] :[4] فارتعد يحيى وخرس ، فقال له : أنا أُحدّثك : رأيتَ رسول الله ﷺ في نوم[5] هذه الليلة وقال لك كذا وكذا ، فقال : نعم ، فبالله يا مولانا ما معنى قوله ﷺ بعلامة يوم حارم . فقال [له][6] نور الدين : لما التقى الصّفان خفتُ على الاسلام لأني رأيتُ من كثرة الفرنج ما هالني ، فانفردت عن العسكر ، ونزلت فمرّغْتُ وجهي في

---

(١) زيادة من ف .

(٢) زيادة من ف .

(٣) في المرآة : ففاته .

(٤) زيادة من المرآة .

(٥) (نوم) ساقطة من ف .

(٦) زيادة من المرآة .

التراب ، فقلتُ : يا سيِّدي ، من محمود في البين[١] ، الدين دينك ، والجند جندك ، وهذا اليوم[هو][٢] فافعل ما يليق بكرمك ، قال : فنصرنا الله عليهم .

قال[٣] : وحدثني شهاب الدين ابن البانياسي عم كمال الدين ابن البانياسي[٤] وكان على ديوان جامع دمشق : أول ما قدمت الشام اجتمعتُ به في درب الشعارين في قاعة الوزير صفيِّ الدين بن سكر وزير العادل بن أيوب ، وكان هناك جماعة ، فاشتغل الوزيرُ بالحديث معهم . وكان الشِّهاب الى جانبي ، فتذاكرنا نور الدين ، فقال : كان أبي يخدم نورَ الدين في أسفاره ومقامه على ديوانه ، قال : حكى لي وأنا صغير ، قال : خرج نورُ الدين من دمشق يتصيد في ارض قطا[٥] ويعفور وأنا معه ، فبينما هو[٦] ذاتَ يوم قد ركب من المخيم ليذهب الى الصيد ، إذا برجلٍ أعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ومعه خيل ومماليك ، وكان تاجراً ، فلما وصل الى نور الدين ، ترجَّلَ وقبل الأرض ، فرحب به نور الدين وكان صديقه ، قال: أين الأرمغان؟ قال : حاضر ، ومضى نور الدين ، فلما عاد استدعاه ، فاحضر قماشاً وعدةَ مماليك فيهم مملوكٌ مستحسن جداً ، فقبل المملوكَ وردَّ الباقي . وكان له خادمٌ أبيض اسمه سهيل قد رباه ، فقال له : يا سهيل ، خذ هذا المملوكَ وادفَعْ الى التاجر خمسمائة دينار وخلعةً وبغلة . قال ابو الشهاب : فحدثني سهيل ، قال : لما قال [لي][٧] كذا ، قلت [في

---

(١) هكذا في ص ، وفي المرآة : الفئتين .

(٢) زيادة من المرآة .

(٣) أي سبط ابن الجوزي . راجع المرآة ، ص ٣١٨-٣١٩ .

(٤) ابتداء من هنا نجد ف ناقصة حوالي ورقة .

(٥) في ص قطنـا وفي المرآة : قطيا .

(٦) في المرآة : أنا .

(٧) زيادة من المرآة .

نفسي][1] : إنا لله وإنا اليه راجعون ، هـذا ما اشترى مملوكاً قط يساوي خمسين ديناراً يشتري مملوكاً بخمسمائة دينار ، قال : ففعلت ما أمرني [به][2] فتركني أياماً وقـال : يا سهيل ، أحضر المملوك مـع المماليك كل يوم يقف في الخدمة ، قال : فأحضرته . فلما كان بعد أيام قال لي : أحضره وقت العشاء الآخرة الى الخيمة ، ونم أنت وإياه على باب البرج ، قـال : فقلتُ في نفسى : هذا الشيخُ في زمن شبابه ما ارتكبَ كبيرة لما ارتفع يقع فيها ! والله لاقتلَنّه قبل أن يقع في معصية ، قال: فعمدت الى غدارة[3] لي فأصلحتُها وقلت : والله لأقتلنه قبل أن يصل اليه . وجئتُ بالمملوك الى الخيمة [وأنا قلق][4] فسهرت عليه [الليـل][5] ونور الدين في أعلى البرج ، فلما كان وقتُ السَّحر غلبتني عيناي ، فنمتُ [ثم انقلبت][6] فوقعتْ يدي على خدّ الغلام ، واذا به مثـل الجمرة وقد أخذته الحمّى ، فأخذته ومضيت [به][7] الى خيمتي ، فلما أصبحت أحضرت الطبيب فرآه ، فقـال : هذا مرضه سماوي . فلما كان وقتُ الظهر مات، فغسّلْته وكفّنته ودفنته. فلما كان في اليوم الثاني دعاني نور الدين: فقال : اقعُدْ فقعدت، فقال : يا سهيل، إنّ بعض الظنّ إثم، قال: فاستحييت. قال : قد عرفتَ حالي وأنتَ ربيتني ، هل عثرتَ لي على زلّة ؟ قلت : حاشى

---

(١) زيادة من المرآة .

(٢) زيادة من المرآة .

(٣) في المرآة : كاذة .

(٤) زيادة من المرآة .

(٥) زيادة من المرآة .

(٦) زيادة من المرآة .

(٧) زيادة من المرآة .

الله . قال : فلم حملتَ الغدّارةَ وحدثتك نفسُك لي بالسوء ؟ ما أنا معصوم .
لما رأيتُ الغلام وقع في قلبي منه مثل النار ، فعلمتُ أنه من تسويل الشيطان
فقلتُ : اشترهِ لعلّ يذهب عني ما أنا فيه ، فلم يذهب . فقالت لي نفسي : أريد
ان أراه كلّ يوم ، فأمرتُكَ باحضاره ، فقالت : ما أقنع إلا بأن تحضره عندك
في البرج في الليل ، فأمرتك أن تحضرَه فأحضرتَه . فلما كان في تلك الليلة ما
تركتني [نفسي](1) أنام ، وبقيتُ أنا وإياها في حرب إلى الصباح وقت السحر ،
فهممت أنْ أفتحَ بابَ البرج وأُصعده إلى عندي ، فجاءتني اليقظةُ وكشفت
رأسي ، وقلت : إلهي ، محمود عبدك ، المجاهد في سبيلك ، الذابُّ عن دين نبيّك
عليه أفضل الصلاة والسلام ، الذي عمّر المدارسَ والربط ، ووقف الأوقاف ،
وفعل ما فعل تختم أعماله بمثل هذا ؟ قال : فسمعت هاتفاً يقول : قد كفيناكَ
يا محمود أمره ، لا بأس عليك ! فعلمت أنه قد حدث به حادث . وأما أنتَ يا
سهيل فجزاك الله عن الصّحبة خيراً ، والله إنّ القتلَ أهونُ عليّ من الوقوع في
المعصية . ثم [قدّم سهيلا](2) وأحسن اليه .

قال(3) : وحكى لي الكمال ابن البانياسي ابن أخي الشهاب قال: حكى لي
من يتولى أوقافَ نور الدين أنه أجّر بعض بساتينه لرجل من دمشق بستمائة
درهم ، فأصابت البساتينَ جائحة ، فجاء ذلك الرجل يتضرر ، فأسقطوا عنه
ثلثمائة درهم . فلما كان بعد أيام ، جاء الرجلُ ومعه ستمائة درهم وهو يبكي ،

(١) زيادة من المرآة .
(٢) زيادة من المرآة .
(٣) أي صاحب المرآة ، ص : ٣٢٠ .

فقلنا له : ما لك ؟ فقال : رأيتُ في المنام وقد خرج عليَّ نورُ الدين من قبره وبيده جوكان وقال : أنت تكسر وقفي ، وأراد ان يضربني ، فقلت : أنا تائب . ورمى بالدراهم ، فقلنا له : خذها ، فقال : لا والله ، أخاف ان يضربني .

قال [1] : وحدث رجل من أهل حرّان قال : خرج يوماً نور الدين من حران قاصداً الى الرّها ، فاجتاز على نهر وفقير نائم على جانب النهر ، فوقف وسلّم عليه ، فرفع الفقير رأسه وقال بيده كذا ، ومعناه [2] في أيّ شيء أنت ، فحرّك نور الدين اصبعاً واحدة ، فحرك الفقير اصبعين ، ومضى نور الدين باكياً ، فقيل له : ما هذا ؟ قال : أشار إليّ الفقير فقال : في أيّ شيء أنت ؟ وهذا كلّه لماذا ؟ فقلت : من أجل رغيف واحد ، فأشار إلي بإصبعيه وقال : فأنا آكل كلّ يوم رغيفين وما أنا مثلك [3] .

وقال الفقيه **أبو الفتح الأشتري** [4] معيد النظامية وكان قد جمع سيرةً مختصرة لنور الدين : بلغنا [بأخبار التواتر] [5] عن جماعة يُعتمد على قولهم أنَّ نور الدين كان أكثر الليل يصلّي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه [عليه] [6] ، ويؤدي الصلواتِ الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها. قال [7] : وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار

(١) أي صاحب المرآة ، ص : ٣٢ .
(٢) هكذا في المرآة ، وفي ص : ومعنى .
(٣) في المرآة : وأنا مثلك .
(٤) يبدو ان ابن قاضي شهبة نقل الخبر التالي من الروضتين . راجع الروضتين ج١ ق١ ، ص : ٣٤ .
(٥) زيادة من الروضتين .
(٦) زيادة من ف .
(٧) أي الأشتري . راجع الروضتين ج١ ق١ ، ص ٣٤ .

القدس للزيارة حكاية عن الكفار أنهم يقولون : ان القسيم ابن القسيم[١] ، يعنون نور الدين ، له مع الله سر ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل ، فإنه يصلي الليلَ ويرفع يديه [الى الله ويدعو] [٢] والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤلَه ، وما يردُّ يده خائبة ، [ويظفر علينا بهذا] [٣] . فهذا كلام الكفار في حقه .

وحدّث[٤] الشيخ داود المقدسي خادم قبر سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين، فحضر رجلٌ زاهد وفيه سمة الخير معروف بالسداد والصلاح ، فسألت عنه ، فقالوا : أخو الشيخ أبي البيان . وكان شخصٌ قد أودعَ عند أخيه[٥] أبي البيان وديعةً وقد توفي ، فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة وطالبه بالردِّ عليه ، فأنكرَ هذا الرجل علمه بالوديعة ، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع ان يحلفَ أنه لا علم له بهذه الوديعة ، فحلف على ذلك ، فجعل المودع يشنِّع عليه ويقول : انه حلف كاذباً ، ويتكلم في عرضه ، ويقول في حقه من التنمس وغيره . فحضر الى عند الملك العادل شاكياً منه ، وذاكراً سيرته وطريقته ، ومن ذا الذي يقدر ان يقول في حقِّي هذا ، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدم باحضاره والإنكار عليه مما يقول في حقه ! فلما فرغ من هذا الكلام ورمى ما كان في جُعبته من دعوى الحقيقة والطريقة ، وكان حاصلُه التماس الإنكار عليه ، فقال له الملك العادل : أليس ان الله تعالى يقول (وإذا

---

(١) في الروضتين : إن ابن القسيم .

(٢) زيادة من ف .

(٣) زيادة من ف .

(٤) من رواية الأشتري صاحب سيرة نور الدين . راجع الروضتين ج١ ق١ ، ص ٣٤ .

(٥) في الروضتين : وكان قد أودع عند أخيه .

خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) (الفرقان : ٦٣) فاذا كان [هو][1] يجهل عليك ، ويقول في حقك بالجهل ما لا يجوز ، فيجب عليك ان لا تعمل معه مثل معاملته فتكون مثله ، وكأنك قابلت الاساءة بالاساءة ، ومن حقك ان تقابل الاساءة بالإحسان . فقلت في نفسي : الحقُّ ما قال الملك العادل . إما قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه ، او أجراه الله على لسانه وأنطقه به .

قال قاضي القضاة **بهاء الدين بن رافع بن تميم**[2] : كان نور الدين ينفذ في كل سنةٍ في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئاً يفطر عليه ، فكان ينفذ اليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك ، فكان نور الدين يفطر عليه . وكان اذا قدم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء .

وقال **صاحب المرآة**[3] حكى لي[4] شيخنا تاج الدين الكندي رحمه الله قال : لم يتبسم نور الدين إلا نادراً . قال : وحكى لي جماعة من شيوخنا المحدثين[5] أنهم قرأوا عليه حديث التبسّم وكان يرويه ، فقالوا : تبسّم ، فقال : لا والله لا أتبسّم من غير عجب .

ذكر ألقابه التي جاءت من بغداد مع الخلعة ويخطب له [بها][6] على المنابر.

اللهم وأصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد ، الورع

---

(١) زيادة من الروضتين .

(٢) وهو ابن شداد ، صاحب النوادر السلطانية . وقد سمع صاحب الروضتين «راجع ج١ ق١ ، ص ٣٢» الخبر التالي من ابن شداد .

(٣) راجع المرآة ، ص ٣٢٠ .

(٤) في المرآة : حكى شيخنا بدون « لي » .

(٥) في المرآة : من المحدثين .

(٦) زيادة من ف .

المجاهد ، المرابط المثاغر نور الدين وعدته ، ركن الإسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضي[1] الامامة وأثيرها، فخر الملة ومجيرها، شمس المعالي وملكها ، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلوم من الظالمين ، ناصر دولة أمير المؤمنين .

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته وقال : اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي .

وروي[2] أنه كتب رقعةً بخطه الى وزيره خالد [بن][3] القيسراني يأمره بأن يكتب له صورة ما يدعى له على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ما ليس فيه [فكتب ابن القيسراني كلاماً دعا له فيه][4]، ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير الى رحمتك، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين . فإن هذا ما يدخله كذب على نور الدين[5] . فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما صورته : مقصودي أن لا يكذب [على المنبر][6] . أنا بخلاف ما يقال . أفرحُ بما لا أعمل ، قلة عقل، عظيم الذي كتبتَ به جيد ، اكتبْ به نسخاً إلى [جميع][7] البلاد .

---

(١) بعض الكلمات في السطر التالي مطموسة في ص ، ولهذا قرأنا النص من ف .

(٢) الخبر التالي مقتبس من الروضتين . وقد نقله أبوشامة من تاريخ حلب لابن العديم . راجع الروضتين ج١ ق١ ص ٣٠ .

(٣) زيادة من ف .

(٤) زيادة من ف .

(٥) العبارة الأخيرة اختصار لما يقابلها في الروضتين . (على نور الدين) ليست في ف .

(٦) زيادة من ف . في ص : أن لا يكذب الخطيب .

(٧) زيادة من الروضتين .

وكتب في آخر الرقعة : [ثم يبدأ بالدعاء][1]: اللهم أره الحق حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس. [وكان][1] يقول لأصحابه: حرام على كل من صحبني ولا يرفع إليّ قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي.

قال **ابن الأثير**[2] : حكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن السكري وكان خصيصاً بخدمة نور الدين [قد صحبه من الصبا وأنس به، وله معه انبساط][3] قال: كنتُ مع نور الدين يوماً في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عُدنا صار الظلُّ وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، ثم قال لي: أتدري لأيّ شيء أُجري فرسي والتفتُّ ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبَّهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من هرب منها، [قلت][4] : فرضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا. وأنشد صاحب الروضتين في هذا المعنى:

مَثلُ الرزق الذي تطلبُـه   مَثلُ الظل الذي يمشي معك[5]
أنتَ لا تدركه متَّبعــاً   فـإذا ولّيتَ عنـه تَبِـعك

وذكر عبد الرحمن بن نصر الشيزري في كتابه المسمى **المنهج المسلوك في سياسة الملوك**، قال: حدّثني الفقيه أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن الحصني الحموي قال: كنت عند الملك العادل [نور الدين] محمود بن زنكي في دار العدل بدمشق، وقد أخرج جريدة خراج الأملاك[6]، فجعل ينظر فيها، فلما انتهى الى ذكر

---

(1) زيادة من ف.
(2) راجع ما يلي في التاريخ الباهر، ص ١٦٥.
(3) زيادة من التاريخ الباهر.
(4) أي صاحب الروضتين. والكلمة زيادة من المرجع ذاته.
(5) في الروضتين ج١ ق١، ص ١٣: ملك.
(6) هكذا في ف، وفي ص: وقد أخرج جريدة فيها أملاك البلاد.

خراج معرة النعمان قال : إني عزمتُ على انتزاع أملاك أهل المعرة [من أيدي أهلها ، فقد رفع إلي أهل الخير من الثقات ان جميع] [١] أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهدُ أحدهم لصاحبه في دعوى ملك حتى يشهد معه ذاك في دعوى أخرى ، وان الملكَ الذي بأيديهم انما حصل لهم بهذا الطريق ، قال : فقلت له: أيها الملك ، إنّ الله أوجب عليك العدل في رعيتك ، فانظر واكشف ، وتوقف في الأمور اذا رفعت اليك ، فــان أهل المعرة خلقٌ كثير ، كيف تستحل تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هـــذا القول ؟ لا يجوز ، قال : فأطرق ساعةً ثم قال : إني أمسكها عليهم ، ثم أكشف عنها بعد ذلك . والتفت إلي كاتبه وقال : اكتب الى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك الذي في أيدي أهله حتى تستدعي البيّنة في ذلك ، فكتبه ووضعه بين يـديه ليعلـّم عليه ، واذا صبيّ على شاطىء بردى يغني ويقول :

اعدلوا ما دام أمركم نافذاً في النفع والضررِ
واحفظوا أيّامَ دولتكم إنـكم منها على خطرِ
إنمــا الدّنيــا وزينتها طيب ما يبقى من الأثرِ

قال : فلما سمع الملك العادل ذلك تغيّر لونه ، وهملت عيناه بالدموع ، ثم نظر فقال: (فمن جاءه مَوْعظةٌ من ربِّهِ فانتهى فله ما سلف وأمرُهُ إلى الله) (البقرة : ٢٧٥) ثم استدار نحو القبلة وقال : اللهم إني أستغفرك وأتوب اليك مما عزمت عليه الآن ، ثم تناول الكتاب فمزقه وجعل يستغفر الله جميـــع ذلك اليوم .

---

(١) زيادة على ص من ف . الكلام من هنا غير واضح في ف .

وحكى الشيخ جمال الدين المطري رحمه الله في **تاريخ المدينة الشريفة** له على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، **قال** : وصل السلطان الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله في سنة سبع وخمسين وخمسماية الى المدينة الشريفة لرؤيا رآها ذكرها بعض الناس ، وسمعتُها من الفقيه علم الدين يعقوب ابن أبي بكر المحترق أبوه ليلةَ حريق المسجد الشريف عمن حدثه عن أكابر من أدرك : أنّ السلطان محموداً المذكور رأى النبي ﷺ ثلاثَ مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة : يا محمود ، أبعـــدني عن هذين الشخصين ، يشير الى أشقرين تجاهه . فاستحضر وزيره قبل الصبح ، فذكر له ذلك ، فقال : هــذا أمر قد حدث في مدينة النبي ﷺ ليس له غيرك . فتجهز وخرج على عجـــل بمقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من أهلها والوزير [معه] [1] ، فزار وجلس في المسجد لا يدري مـا يصنع ، فقال له الوزير : تعرف الشخصين اذا رأيتهما ؟ قال : نعم ، فطلب الناس عامة للصدقة ، وفرّق عليهم ذهباً كثيراً وفضة ، وقال: لا يبقى أحد بالمدينة إلا جاء. فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الناحية التي هي قبـلة حجرة النبي ﷺ من خارج دار آل عمر بن الخطاب رضي الله تعـالى عنه التي تعرف اليوم بدار العشرة . وطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا: [نحن] [2] على كفاية ما نقبل شيئاً . فجدّ في طلبهما، فجيءَ بهما . فلما رآهما قال للوزير: هما هذان . فسألهما عن حالهما وماجاء بهما، فقالا: لمجاورة النبي ﷺ ، فقال: أصدقاني، وتكرر السؤال حتى أفضى الى معاقبتهما، فأقرا أنهما من النصارى وأنهما توصلا لكي ينقلا من في هذه الحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهم . فوجدهما قدحفرا نقباً تحت الأرض من

---

(١) زيادة من ف .

(٢) زيادة من ف .

تحت حائط المسجد القبلي وهما قاصدان الى جهة الحجرة الشريفة ، ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه ، فضرب أعناقهما [1] عند الشباك الذي في شرقي حجرة النبي ﷺ خارج المسجد ، ثم أُحرقا بالنار آخر النهار . وركب متوجهاً الى الشام ، فصاح [به] [2] من كان نازلاً خارج السور واستغاثوا وطلبوا أن يبنيَ عليهم سوراً يحفظ أبناءَهم وماشيتَهم ، فأمر ببناء هذا السور المجدد اليوم فبني في سنة ثمان وخمسين ، وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق الى اليوم ، رحمه الله وقدّس روحه .

---

(١) هكذا في ص وفي ف .

(٢) زيادة من ف .

الباب السادس

في نبذة مما مدح به من الأشعار الفائقة
والقصائد البديعة الرائقة

وكان رحمه الله قليل الابتهاج بالشعر ويجيز عليه . وقد مدح بأشعار كثيرة ، وأوصافه فوق ما مدح به . وكان في أول دولته شاعرا زمانها أبو عبدالله محمد ابن نصر بن صغير القيسراني[1] ، وأبو الحسن أحمد بن منير[2]، ولهما فيه مدائح، وله اليهما منائح ، فمن ذلك قول ابن القيسراني فيه :

ذو[3] الجهادين من عدو ونفس   فهو طول الحياة في هيجاءِ
أيها المالك الذي ألزم النا   سَ سلوكَ المحجة البيضاءِ
قد فضحتَ الملوكَ بالعدل لما   سرتَ في الناس سيرةَ الخلفاءِ

---

(١) القيسراني نسبة الى قَيسارية. وكان من الشعراء المجيدين متضلعاً في الأدب وعلم الهيئة. ولد سنة ٤٧٨ بعكا وتوفي عام ٥٤٨ بمدينة دمشق ، ودفن بمقبرة باب الفراديس . راجع وفيات الأعيان ٤ / ص ٨٢ - ٨٥ .

(٢) وهو أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذب الدين عين الزمان . ولد سنة ٤٧٣ بطرابلس وتوفي عام ٥٤٨ بحلب ، ودفن في جبل جوشن بقرب المشهد الذي هناك . راجع وفيات الأعيان ١/١٣٩ - ١٤٤ .

(٣) راجع القصيدة التالية في الروضتين ق ١ ج ١ ص ٤٥ - ٤٦ .

قاسماً ما ملكتَ في الناس حتى لقسمت التـُّقى على الأتقيـــاءِ

شيِم الصالحين في حيِّز[1] الترك وكم من سكينة في قباءِ

أنت حيناً تقاسُ بالأسد الورد وحيناً تـُعدّ في الأوليـــاءِ

صاغك اللهُ من صميم المعـــالي حيث لا مشبه[2] سوى الالاءِ

وكأن القباء منك لما ضمّ من الطـّهر مسجدٌ بقبـاءِ[3]

أنتَ إلا تكن نبيّاً فما فـا تـك إلا خلائق الأنبيـــاءِ

رأفة في شهامة ، وعفـــاف في اقتدار ، وسطوة في حياء[4]

وجمـــال ممنطق بجـــلال وكمـــال متوّج ببهـــاء

عجب الناس منك [أنك][5] في الحرب شهاب الكتيبة الشهباءِ

وكأن السيوف من عزمك الماضي أفادت مـــا عندها من مضاء

ولعمري لو استطاع فـَداك القوم بالأمهات والآباء وله أيضاً فيه :

لله عزمــك[6] أيّ سيف وغى طبعت مضــاربه على القهــر

---

(١) فـي الروضتـين : حتر .

(٢) في ص : تشبه ، وفي الروضتـين : نسبة .

(٣) فـي الروضتين : لقباء .

(٤) هذا البيت غير وارد في ص ولكنه موجود في ف وفي الروضتـين .

(٥) زيادة من الروضتين .

(٦) هكـذا في ف ، ص والروضتين ، وفي س : درك .

مـا زفت الحرب[1] العوان[2] به ... إلا انجلـت عن معقـل بكر
هل وجه نور الدين غير سنـا ... سطع الدجى عن خجلة البـدر
ملـك مهـابته طليعتـه ... أبداً أمـام[3] جيوشه[4] تسري
كم فك كيدَهم بصاعقـة ... شغلت قـلوبهم عن الفكر
ترَكـتْ حصونهم سجونهم ... فالقوم قبـل الأسر في أسر
عصم العواصم فهي ضاحكة ... تجـلو الظبى ثغراً على ثغر
وإذا سرايا خيـله قفلت ... نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندهـا ... حتى استكان الصخر بالصخر
يا سائـلي عن نَـهْج سيرتـه ... هـل غير مفرق هامه الفجر
عـدلٌ حقيق مـن تـأمله ... أن يحيي العمرين بالذكر
وشهامة في الله خـالصة ... عقـدت عليه تمائم الأجر
وندى يدٍ مـا ضرّ واردهـا ... ألا يبيت مجـاورَ البحـر
هـذا المخـيم في ذرا حلب ... وثنـاؤه أبـداً على ظهر

وله أيضاً فيه :

ملـكٌ أشبهَ الملائك فضـلا ... وشبيه بمـالك الأمر جنـده

---

(١) هكذا في س ، ف والروضتين ، وفي ص : الحرم .

(٢) هكذا في الروضتين وفي س ، ف ، و ص : الغواني .

(٣) هكذا في س ، ف والروضتين وفي ص : ما .

(٤) هكذا في الروضتين ، وفي ص ، س ، ف : جيشه .

عمَّ إحسانُه فأصبح يُتلى شكره في الورى ويُدرسُ حمدُه
فسقى الله ذكره أينما حلّ ولا فاته من[1] النصر رفده

وله أيضاً فيه :

سام الشآم ويا لها من صفقة لولاه ما عنَّت على يد سائم[2]
تلك التي جمحت على من راضها ودعوت فانقادت بغير شكائم
وإذا السعادةُ ساعدتْ في دولةٍ قام الزمانُ لها مقام الخادم
حصّن بلادَك هيبة لا رهبة فالدّرع في عدد الشجاع الحازم
هيهات يطمع في محلك طامع طال البناء على يمين[3] الهادم
كلّفتَ همتك السمو فكلفت وكأنما هي دعوة من[4] ظالم
وأظن أن الناس لما[5] لم يروا عدلاً لعدلك أرجفوا بالقائم

ولابن المنير فيه :

أيا ملك الدنيا الحُلاحل[6] والذي له الأرضُ دار والبرية أعبد

---

(١) هكذا في س ، ف والروضتين ، وفي ص : في .
(٢) هكذا في س وفي الروضتين ، وفي ص و ف : سالم .
(٣) هكذا في س ، ف والروضتين ، وفي ص : على بناء الهادم .
(٤) هكذا في س ، ف، والروضتين ، وفي ص : في .
(٥) ساقطة من ص .
(٦) هكذا في ص ، ف والروضتين وفي س : الحاصل . والحلاحل السيد في عشيرته .

وليستْ بدعوى لا يقوم دليلُها ولكنه الحقُّ الذي ليس يجحد
أخو غزوات كالعقود تناسقت تحـــل بأجياد الجيـاد وتعقد
لسان[1] بذكر الله يكسو[2] نهاره وجفن في الدجى ليس يرقـد
وبذل وعدل أغرقا وتألقـــا فلاالودُّ مثمودٌ[3] ولاالباب موصد
قوام سمـاوي ، وحزم مسدد ورأي شهـــابي ، وعز مؤيد

---

(١) هكذا في س ، ف والروضتين وفي ص : لكان .
(٢) هكذا في ص ، ف والروضتين ، وفي س : لسان بذكر الله طول نهاره .
(٣) ثمد الماء : قلّ .

الباب السابع

في ذكر غزواته العديدة وفتوحاته السعيدة وما جرى في زمانه من الأمور الغريبة والحوادث العجيبة من ولادته الى وفاته

سنة ٥١١

فيها ولد نور الدين محمود .

وفيها غرقت سنجار من سيل المطر ، وهلك فيها خلق كثير حتى إن السيل أخذ باب المدينة وذهب بـه عدة فراسخ ، واختفى تحتَ التراب الذي جرّه السيل [ثم ظهر بعد سنين] [١] . ومن أعجب ما حُكي أن السيلَ حمل مهداً فيه طفل، فعلق المهدُ في شجرة، ونقص الماء وسلم ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين في السباحة [٢].

وفيها زلزلت إربل وبغداد وغيرهما من البلاد المجـاورة لهما زلزلة عظيمة ، ووقع بالجانب الغربي من بغداد دور وحوانيت على أهلها [٣] .

وفيها هجم الفرنج على ربض حماة، وقتلوا خلقاً كثيرا ورجعوا الى بلادهم [٤] .

---

(١) زيادة من س ، ف ، د .

(٢) راجع التاريخ الباهر ، ص ٢٠ والروضتين ق١ ج١ ، ص ٢٠ .

(٣) راجع مرآة الزمان ، ص ٦٨ وفي الروضتين ، ص ٧٠ .

(٤) يقول صاحب المرآة ص ٦٩ إن الفرنج هجموا ليلة خسوف القمر وقتلوا من أهلها (أي حماة) مائة وعشرين رجلا .

وفيها توفي السلطان [غِياثُ الدين] محمد بن ملكشاه السلجوقي سلطان بلاد العراق وخراسان وغير ذلك من البلاد الشاسعة والأقاليم الواسعة . وكان من خِيار الملوك وأحسنهِم سيرة، وقام بالأمر بعده ابنه محمود وله أربع عشرة سنة، وفرق خزائنه في العسكر ، وقيل [انها] كانت أحدَ عشرَ ألف الف دينار وما يناسب ذلك من العروض[1] .

سنة ٥١٢

فيها مات بغدوين الذي افتتح القدس [وكان جباراً خبيثاً شجاعاً ، همّ بأخذ مصر ، وسار في جموعه حتى وصل بلبيس ، ثم رجع عليلاً فمات بسبخة بردويل ، فشقوه وصبروه ورموا حشوته هناك . قال **الذهبي** : فهي ترجم الى اليوم . ودفن بالقمامة . وتملك القدس بعده القمص صاحب الرها][2] وكان قد قدم القدس زائرا ، فوصى له بغدوين بالملك بعده .

وفيها توفي الخليفة المستظهر ، وولي بعده أبو منصور الفضل ولقب بالمسترشد بالله.

ومن الاتفاق الغريب أنه لما مات السلطان ألب أرسلان ، مات [بعده الخليفة القائم][3] ، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات [بعده] الخليفة المقتدي ، ثم لما مات السلطان محمد ، مات الخليفة المستظهر بالله .

هذا وفيها كان حريق كبير ببغداد واحترقت [سوق] الريحانيين ومسجد ابن

---

(١) للمزيد راجع التاريخ الباهر ، ص ٢٠ ، والروضتين ، ص ٧٠ ، ومرآة الزمان ص ٦٩ .

(٢) زيادة من ف و س . راجع الخبر في الكامل لابن الأثير ، ج ٩ ، القاهرة ، ١٣٠٣ هـ) ص ١٩١ .

(٣) زيادة من س ، ف .

عبدون[1]. وفيها قبض علي ابي طاهر بن الخزري صاحب المخزن وأعدم وأخذ من داره أربعمائة ألف دينار .

سنة ٥١٣

فيها خرج علي المسترشد أخوه أبو الحسن بن المستظهر بالله ، فمضى الى واسط، ودعا الى نفسه،واجتمع معه جيش [وتملك واسطَ وأعمالها][2] وجبى الخراج . وشق ذلك على الخليفة ، فبعث ابن الانبارى كاتب الانشاء الى دُبَيس وعرفه ذلك ، وقال : إن أمير المؤمنين معوّلٌ عليك . وجهّز صاحب جيشه عنانا في جمع كبير . فلما سمع أبو الحسن ذلك ترحل من واسط في عسكره ليلا ، [فأضلوا الطريق][3] وساروا ليلهم أجمع حتى وصلوا الى عسكر دُبيس ، فلما لاح لهم العسكر ، انحرف أبو الحسن عن الطريق ، فتاه مع عدد من خواصه وذلك في تموز ولم يكن معهم ماء وأشرفوا على التلف فأدركه نصر بن سعد الكردي فسقاه حتى عادت نفسُه اليه ، ونَهب ما كان معه من ماله وحمله الى دبيس الى النعمانية ، فأقدمه الى بغداد ، وخيّم بالرقة ، وبعث به إلى المسترشد بالله بعد تسليم عشرين ألف دينار قررت عنه . وكانت أيامه أحدَ عشر شهرا . وشهر وزيره ابن رمهويه على جمل ثم قتل في الحبس . ودخل الأمير أبوالحسن على أخيه المسترشد بالله فقبل قدمه فبكيا معا [4] ثم قال له : فضحتَ نفسك وباعوك بيع العبيد، وأسكنه داره التي كان فيها وهو ولي عهد ، وردّ جواريَه وأولادَه وأحسن السيرةَ اليه ، ثم شدد عليه بعد ذلك .

---

(١) راجع المرآة ، ص ٧٠ .

(٢) زيادة من ف ، د .

(٣) زيادة من ف .

(٤) في ص ، ف : جميعاً .

وفيها خطب بولاية العهد للأمير أبي جعفر منصور بن المسترشد بالله وله اثنتا عشرة سنة .

وفيها كانت الوقعة[1] بين السلطان سنجر ومحمود ابن أخيه . وذلك أن سنجر لما بلغه موتُ السلطان محمد قصد العراق عازما على أن يملكه . فلما سمع محمود بحركة عمّه سنجر نحوه ، راسله ولاطفه ، وقدم له تقادم ، فأبى الا القتال أو النزول له عن السلطنة ، فتجهز محمود ،وصمد[2] معه ثلاثون ألفا ، وأقبل سنجر في نحو مائة ألف . وكانت الوقعة بصحراء ساوه ، وكان مع سنجر خمسة ملوك على خمسة أسرة وأربعون فيلا عليها البركصطوانات والبراواب والزينة الباهرة وخلق من الإسماعيلية . فلما التقوا هبت ريح سوداء أظلمت الدنيا ، وظهر في الجو حمرة منكرة ، وآثار مزعجة ، وخاف الناس ، ثم انكشفت الظلمة واقتتلوا ، فانكسرت ميمنة سنجر ثم ميسرته ، وثبت هو في القلب وحده ، وتفرق أكثر جيوشه في النهب . فحمل سنجر بالفيلة فولـّت الخيل منها فتأخر محمود ولم ينهزم ، ولم يتبعه سنجر لأنه رأى جيشه قد انهزم اكثرُه ، وثقله نهب ، وقتل كثير من أمرائه وأُسر وزيره . وأرسل الى ابن أخيه يقول : أنت ابن اخي وولدي وما أؤاخذك لأنك محمود على ما صنعت ، ولا أواخذ أصحابك لانهم لم يطـّلعوا على حُسن نيتي لهم ، فقال محمود : أنا مملوكه . ثم جاء بنفسه وسنجر قد جلس على سريره فقبل الارض ، فقام سنجر فاعتنقه وأجلسه معه ، وخلع عليه خلعة عظيمة ، وكان على سرج فرس الخلعة جوهر بعشرين ألف دينار ، وأكل معه ، وخلع على أمرائه وأفرد له أصبهان يكون حاكما عليها وعلى مملكة فارس وخوزستان ، وجعله

---

(١) راجع خبر الواقعة التالية في المرآة ص ٧٧ – ٧٨ . والنص هنا مختصر بعض الشيء عن نص المرآة .

(٢) في ص : تعمّد .

وليّ عهده من بعده ، وزوجه ابنته ، ثم عاد الى خراسان . ثم جاء رسله بالتقادم الى الخليفة [وهي ثلاثون تخت ثياب وتحف وعشرة مماليك ، واقطاع] [١] الى الخليفة بخمسين ألف دينار وللوزير ببضعة آلاف دينار [٢].

وفيها سارت الفرنج الى مدينة حلب وفتحوها وملكوها ، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا ، فسار اليهم صاحب ماردين إيل غازي بن أرتق في جيش كثيف ، [فهزمهم عنها، ولحقهم الى جبل قد تحصنوا فيه][٣] فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم يفلت منهم الا اليسير . وأسر من مقدمتهم نيفا وسبعين أسيرا، وقتل سيرجال[٤] صاحب أنطاكية ،وحمل رأسه الى بغداد [٥] .

وفيها ظهر قبر سيدنا ابراهيم الخليل وقبر اسحاق ويعقوب صلوات الله عليهم ، ورآهم كثير من الناس لم تبلَ اجسادُهم وعليهم قناديلُ من ذهب وفضة [والله أعلم] [٦] . قاله حمزة بن أسد التميمي[٧] في **تاريخه** على ما حكاه **ابن الاثير** رحمه الله تعالى .

سنة ٥١٤

فيها كانت وقعة عظيمة بين الكرج والمسلمين بالقرب من تفليس ومع الكرج كفار من القفجاق فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرا ، وغنموا اموالا جزيلة ، وأسروا نحوا من أربعة آلاف أسير . ونهب الكرج تلك النواحي ، وفعلوا

---

(١) زيادة من ف ، د .

(٢) زيادة من ف ، د .

(٣) زيادة من ف .

(٤) في ص ، ف : سرحان .

(٥) للاستزادة راجع الكامل لابن الأثير ١٠/١٩٥ - ١٩٦ ، والبداية والنهاية١٢/١٨٤ .

(٦) زيادة من الكامل لابن الأثير ١٠/١٩٨ .

(٧) أي ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق / ٢٠٢ .

أشياء منكرة ، وحـــاصروا تفليس، ثم ملكوها عنوة بعدما أحرقوا القاضي والخطيب حين خرجوا اليهم يطلبون الأمــان ، وقتلوا عـــامة أهلها ، وسبوا الذرية ، واستحوذوا على الأموال فلا حول ولا قوة الا بالله [١] .

وفيها خطب للسلطان سنجر ولابن اخيه محمود معا في موضع واحد ، وسمي كل واحد شاهنشاه ، ولقب سنجر عضد الدولة ، ولقب محمود جلال الدولة[٢] .

سنة [٥١٥]

وفيها انقض كوكب صارت من ضوئه أعمدة عند انقضاضه ، وسمع له عند ذلك صوت هزة كالزلزلة [٣] .

وفيها هبت بمصر ريـح سوداء ثلاثة أيام فاهلكت خلقا كثـــيرا من الناس والدواب [٤] .

وفيها كانـــت زلزلة عظيمة بالحجاز تضعضع بسببها الركـــن اليماني زاده الله شرفاً ، وتهدم شيء من حرم رسول ﷺ بالمدينة الشريفة[٥] .

وفيها احترقت دارُ المملكة التي استجدّها [مجـاهدُ الدين] بهروز الخادم بـأصبهان ، وكان بها السلطان نائما على سطح ، فنزل وهرب في سفينة . وذهب من الفرش والآلات والجواهر ما يزيد قيمته على ألف ألف دينار ، ولم يبق فيها شيء من الأثاث سوى الياقوت الأحمر . غسل الغسالون التراب وظفروا بالحـلي والذهب الذي قـد سبك ، ولم يبق من الدار ولا خشبة . وأمر السلطان ببناء

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير ٢٠٠/١٠ - ٢٠١ .

(٢) راجع المرآة / ٨٩ .

(٣) راجع الكامل ٢١١/١٠ .

(٤) راجع الكامل ٢١٢/١٠ .

(٥) راجع الكامل ٢١١/١٠ .

دار له غيرها ، وأعرض عن الدار التي احترقت ، وقال : إن أبي لم يمتع بها ولا امتد بقاؤه بعد انتقاله اليها . وذهبت أموالنا فيها[1] .

وفيها احترق بأصبهان جامع كبير أُنفقت عليه أموال كثيرة ، يقال إنه غرم على أخشابه ألف ألف دينار . وفي جملة ما احترق خمسمائة مصحف ثمينة منها مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه[2] .

وفيها كانت ببغداد أمطار عظيمة متوالية ، ثم وقع ثلج عظيم ، وكثر حتى كان علوّ ذراع . قال ابن **الجوزي** : وقد ذكرنا في كتابنا هذا ، يعني **المنتظم** ، أن الثلج وقع في سنين كثيرة في أيام الرشيد وأيام المقتدر وأيام المطيع وأيام الطائع والقادر والقائم وما سمع بمثل هذا الواقع في هذه السنة ، فإنه بقي خمسة عشر يوما ما ذاب ، وهلك شجر الأترج والليمون ، ولم يعهد سقوط ثلج بالبصرة الا في هذه السنة [3] .

وفيها جلس الخليفة المسترشد في دار الخلافة في أبهة عظيمة ، والبردةُ على كتفه والقضيبُ بين يديه . وجاء الأخوان الملكان محمود ومسعود ابنا محمد بن ملكشاه فوقفا بين يديه ، وقبلا الارض ، فخلع على محمود سبعَ خلع بطوق وسوارين وتاجا ، وأُجلس على كرسيّ ، ووعظه الخليفة وتلا عليه قوله تعالى: (فمن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيراً يره ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يَره) (الزلزلة : ٧ ــ ٨) وأمره بالإحسان إلى الرعية ، وعقد له الخليفةُ اللواءَ بيده ، وقلده الملك . وخرجا من بين يديه ونزلا الى دارهما والجيش بين أيديهما في أبهة عظيمة [4] .

---

(١) راجع المرآة / ٩٦ .

(٢) راجع المرآة / ٩٧ .

(٣) راجع أيضاً الكامل : ١٠ / ٢١٢ .

(٤) راجع مرآة الزمان /٩٧ والكامل ١٠/٢١١ - ٢١٢ .

وفيها مرض وزير السلطان فعاده ، وعافاه الله تعالى ، وهنّأه السلطـــان بالعافية ، فاحتمل واحتفل ، وعمل ـ أعني الوزير ـ وليمةً عظيمة الى الغاية فيها الملاهي والأغاني نابه عليها خمسون ألف دينار .

وفيها حكى **ابن الجوزي** عن خط من خبره بالصدق [1] أنه كان في سوق نهر المعلى ، ومرّ بين يديه رجل على رأسه قفص زجاج وهـو مضطرب المشي ، يظهر منه عدم المعرفة بالحمل ، فما زلتُ اترقب سقوطَه ، قال: فسقط فانكسر الزجاج ، وبهت الرجل ثم بكى ، وقال : هذا والله جميع بضـاعتي ، والله لقد أصابني بمكة مصيبة عظيمة توفي على هذه . واجتمع حوله جمـــاعةٌ يرثون له ويبكون حوله ، وقالوا : ما الذي أصابك بمكة ؟ قال : دخلتُ قبةَ زمزم وتجرّدتُ للاغتسال ، وكان في يدي دملج فيه ثمانون مثقـــالا ، فخلعته واغتسلت ، وأنسيت وخرجت ، فقال رجل من الجماعة : هذا دملجك خذه ، له معي سنين ، فدهش الناس من إسراع جبر مصيبته .

وفيهـا قُتـل الملك الأفضـل أحمد بن أمير الجيوش بدر الجمـالي مدبر دولة الفاطميين ، وخلّفَ من الأموال ما لم يُسمع بمثله . قال **ابن خلكان** [2]: خلف ستمائة ألف ألف دينار عيناً ، ومائتين وخمسين إردبا دراهم [نقد مصر] [3]،

---

(١) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل أبو الوفاء الحنبلي ، ولد عـــام ٤٣١ هـ . وكان على ما يقول صاحب المنتظم إمام دهره وفريد عصره . أفتى ودرس وناظر وجمـع الكتب في الأصول والفروع ووعظ . فجرت فتنة بين الحنـــابلة والأشاعرة فترك الوعظ وصنف كتاب « كفاية المفتي على مذهب أحمد » وكتاب الفنون وهو مائتا مجلد جمعه طول عمره . واختصر منه صاحب المنتظم عشرة مجلدات فرقها في تصانيفه .

راجع المرآة/٨٣ - ٨٥ .

(٢) وفيات الأعيان ٢/١٦٠ - ٦٢ ، ترجمة رقم ٢٧٠ .

(٣) زيادة من ابن خلكان .

وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلس [١] ، وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي ، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ، ومائة مسمار [من] [٢] ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس ، في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب، بلون من الألوان أيما أحب منها لبسه ، وخمسمائة صندوق [كسوة لخاصته من دق تنيس ودمياط] [٣] . وخلّف من الخيل والرقيق والبغال والمراكب والطيب والحلي [والتجمل] [٤] ما لا يعلم قدره إلا الله تعالى . وخلف [خارجاً عن ذلك] [٥] من البقر والجواميس والغنم ما يستحيي الإنسان من ذكر عدده، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته [٦] ثلاثين ألف دينار . ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم الجواري والنساء .

سنة ٥١٦

فيها قتل وزير السلطان محمود ابو طالب السميرمي [٧] قتله باطني ، وكان قد برز للمسير الى همذان وكانت قد خرجت زوجته في مائة جارية بمراكب الذهب، فلما بلغهن قتله رجعنَ حاسراتِ الوجوه وقد هن بعد العز .

وفيها ظهر معدن النحاس بديار بكر قريبا من قلعة ذي القرنين .

---

(١) هكذا في ابن خلكان وفي ص : سبعمائة ثوب أطلس .

(٢) زيادة من ابن خلكان .

(٣) زيادة من ابن خلكان .

(٤) زيادة من ابن خلكان .

(٥) زيادة من ابن خلكان .

(٦) هكذا عند ابن خلكان وفي ص : في السنة .

(٧) في ص : السمرقندي . واسم السميرمي علي بن حرب . وسميرم قرية بأصبهان . راجع المرآة /١٠٧ ، والكامل ١٠/٢١٤ .

سنة ٥١٧

فيها ختن الخليفةُ المسترشدُ أولادَه ووأولادَ أخيه ، فزُينت بغداد وعمل الناسُ القباب ، وعملت خاتون قبةً بباب النوى علقت عليها من الديباج والجواهر ما أدهش الأبصار ، وعملت قبةً على باب السيد العلويّ عليها غرائب الحلي والحلل ، من ذلك ستران من الديباج الرومي طول الستر عشرون ذراعا على الواحد اسم المقتفي بالله وعلى الآخر اسم المعتز بالله وبقوا[1] أسبوعاً .

سنة ٥١٨

فيها ظهرت الباطنية بـآمد ، فقاتلهم أهلها فقتَلوا منهم سبعمائة نفس[2] ولله الحمد .

وفيها أخذت الفرنج صور من طغتكين ، واستنجد طغتكين بالمصريين فما نجدوه ؛ ولما أشرف طغتكين على الهلاك راسل ملك الفرنج على أن يسلّمها اليه ويمكن أهلَها من حمل ما يقدرون عليه من الامتعة فأجابه الى ذلك ، ووفى بالعهد وتفرّق أهلها في البلاد ، ودخلتها الفرنجُ في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى . وكانت من أمنع حصون المسلمين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ودامت في يدهم الى سنة تسعين وستمائة[3] .

---

(١) هكذا في ص ، ف .

(٢) راجع المرآة/١١٣ .

(٣) أورد ابن قاضي شهبة خبر صور باختصار شديد. للمزيد راجع الكامل ١٠/ ٢٢٠ — ٢٢١ والمرآة/١١٣ وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (ط. بيروت ١٩٠٨) ص ٢١٠ — ٢١١ .

سنة ٥١٩

فيها قتلت الباطنةُ القاضي أبا سعيد محمد بن نصر بن منصور الهروي بهمذان، وكان قد أرسله الخليفةُ الى السلطان سنجر يخطُبُ له ابنتَه [١] .

وفيها قصد دُبيس والسلطانُ طغرل بغدادَ ليأخذاها من الخليفة ، فلما قربا منها برز إليهما الخليفة في جحفلٍ عظيم والناسُ مشاة بين يديه ، وعليه السواد والبردة ، والقضيب بيده ، ثم ركب الناس بعد ذلك . فلما أمست الليلةُ التي يتقاتلون في صبيحتها ، أرسل الله عليهم مطراً عظيماً ، ومرض السلطانُ طغرل في تلك الليلة ، فتفرقت تلك الجموع ورجعوا على أعقابهم خاسئين خائبين [٢] .

سنة ٥٢٠

فيها استفحل أمرُ بهرام داعي الباطنية بحلب والشام وعظُم الخَطب . ثم التمس من طغتكين حصناً يحتمي به ، فأعطاه بانياس، فسار اليها ، وتجمع اليه أوباش، فعظُمت البلية به وبهم، وتألم العلماء وأهل الدين،وأحجموا عن الكلام فيهم والتعرض لهم خوفاً من شرهم ، لأنهم قتلوا جماعةً من الأعيان ، وصاروا بحيثُ لا ينكر عليهم ملك ولا وزير [ولا يفلّ حدَّ شرِّهم متقدِّم ولا أمير] [٣] فلا حول ولا قوة الا بالله !

---

(١) راجع عن مقتل القاضي الهروي ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي/ ٢١٠ والمرآة/ ١١٠ .

(٢) راجع الخبر مفصلاً في الكامل ١٠/٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٣) زيادة من ذيل تاريخ دمشق/٢١٥ . وقد أورد ابن القلانسي خبر بهرام بشيءٍ من التفصيل .

فيها جاء الخبرُ بأن السلطانَ سنجر قتلَ من الباطنية أثني عشر الفاً ، وقتلوا وزيرَه المعين لأنه كان يحرض عليهم وعلى استئصالهم . فتحيّل رجلٌ منهم وخدم سائساً لبغال المعين ، فلما وجد الفرصةَ وثب عليه وقتله ، وقُتلَ بعده . وكان هذا الوزيرُ ذا دين ومروءة وحُسن سيرة .

وفيها فَوّض السلطان شحنكيّةَ بغداد الى عماد الدين زنكي والدنور الدين ثم وَلِيَ بعدَ موت عزّ الدين مسعود بن آق سنقر[1] في هذه السنة الموصل ، فرتب الأمورَ على أحسن نظام وأحكمِ قاعدة .

وكان الفرنجُ[2] قد اتّسعت[3] بلادُهم ، وكثرتْ أجنادهم ، [وزادت صولتهم] وامتدّت إلى بلادِ المسلمين أيديهم ، وضَعُفَ أهلُها عن كفّ أعاديهم ،وتتابعت غزواتهم ،وامتدّتْ مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان[4] الى العريش . ولم يتخللها من ولاية المسلمين غيرُ حلب وحماة وحمص ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ [من][5] ديار بكر الى آمد ، ومن الجزيرة الى نصيبين ورأس العين . وأما أهلُ الرقة وحران فكانوا معهم في ذُل وهوان ، وانقطعت الطريق الى دمشق إلّا على الرحبة والبرية. ثم زاد الأمرُ وعظم الشرّ حتى جعلوا على أهل كلّ بلد جاورهم خراجاً [وإتاوة] . ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيّروهم

(١) بعد وفاة عز الدين مسعود بن آق سنقر خلفه أخوه وكان صغيراً ، فقام بتدبير الأمر الأمير جاولي ، وهو مملوك تركي من مماليك آق سنقر . راجع الروضتين ق١ ج١ /ص ٧٤-٧٥ .

(٢) تجد الوصف التالي لقوة الفرنج والحالة المسلمين مع بعض الزيادات في الروضتين .

(٣) هكذا في ف وفي ص : امتنعت .

(٤) هكذا في ف والروضتين والتاريخ الباهر ، وفي ص : سجستان .

(٥) زيادة من الروضتين .

بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود [إلى أهله][1] أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين . وأما أهل حلب فإن الفرنجَ أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى في الرحـــا التي كانت على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة . وأما باقي بلاد الشام فكان حالُها أشدّ حال من هذين البلدين. فلما نظر الله سبحانه وتعالى إلى بلاد المسلمين وولاها عمادَ الدين زنكي ، غزا الفرنجَ في عُقر دارهم ، وأخذ للموحدين منهم بثارهم ، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل . وسيأتي تفصيل ذلك ومـــا فتحه من البلاد الإسلامية إن شاءَ الله تعالى .

وفيها ملك عماد الدين زنكي والد نورالدين مدينة حلب وما حولها من البلاد.

وفيها تحارب الخليفةُ والسلطان محمود ببغداد ، فثارت العوام مـــع جيش الخليفة، فكسروا جيش السلطان، وقتلوا خلقاً من الأمراء، وأسروا ونهبوا دار السلطان ودار وزيره ، وجرت خبطة عظيمة جداً، ونالت العوام من السلطان، وجعلوا يقولون له : يا باطني ، تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة ! ثم حصل الصلح بينهم وتحالفوا ، ودخل جيشُ السلطان إلى بغداد وهم في غاية الجهد من قلة الطعام عندهم في المعسكر ، وقالوا : لو لمْ نصالحْ لِمتنا جوعاً . وظهر من السلطان حلم كبير على العوام[2] .

سنة ٥٢٢

فيها فتح عماد الدين زنكي جزيرةَ ابن عمر ثم مدينة اربل ، وعظم شأنه ، واتسعت دولته .

---

(١) زيادة من الروضتين .

(٢) راجع أخبار القتال بين الخليفة والسلطان محمود في الكامل ١٠ / ٢٢٦ – ٢٢٧ وفي التاريخ الباهر /٢٨ – ٢٩ .

فيها ملك عماد الدين زنكي سنجار والخابور والرحبة ، وافتتح نصيبين[١] .

وفيها أظهر عماد الدين زنكي أنه يريد جهادَ الفرنج ، وأرسل إلى تاج الملوك بوري يستنجده ، فبعث إليه عسكراً بعد أن أخذ عليه العهدَ والميثاق ، وأمر ولده سونج أن يسيرَ إليه من حماة ففعل . فأكرمهم عمادُ الدين زنكي وطمأنهم أياماً [ثم[٢]] غدر بهم ، وقبض على سونج وعلى أمراء أبيه ، ونهبَ خيامَهم وحبسهم بحلب وهرب جندهم. وسار من يومه إلى حماة واستولى عليها، وحاصر حمصَ مدةً فلم يقدر عليها، فرجع إلى الموصل، ولم يطلق سونج [ابن تاج الملوك] ومن معه حتى اشتراهم أبوه بخمسين ألف دينار . قال **الذهبي** : ثم لم يتم ذلك ومقت الناسُ زنكي على قبيح فعله (انتهى) . وحكى صاحب **الروضتين** عن الرئيس أبي يعلي[٣] أن زنكي طلب في إطلاق سونج وأصحابه خمسين ألف دينار ، فاتفق حضور دُبيس بن صدقة من العراق منهزمـــاً ، فطلبه زنكي ، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه .

وفيها[٤] اتفق أن بهرام الإسماعيلي داعي الباطنية وكان مقيماً ببانياس كما

---

(١) راجع خبر فتح جزيرة ابن عمر في التاريخ الباهر ٣٦ . ويقول ابن الأثير بأن عماد الدين زنكي لما (فرغ من أمر جزيرة ابن عمر سار منها الى نصيبين فافتتحها ... ثم سار عنها الى سنجار فامتنعت عليه وقاتله من بها ، ثم إنهم سلموها اليه واتصلوا بخدمته ، وسير منها الشحن الى الخابور فملكه جميعه . ثم سار الى حران ... فراسلوه بالطـــاعة ، واستحثوه على الوصول اليهم ، فسار نحوهم مُجداً حتى نزل بساحتهم ، فاستبشروا بقدومه ، وخرجوا الى لقائه ، فوعدهم ومناهم) .

(٢) زيادة من الكامل ١٠/٢٣٥ .

(٣) راجـع ذيل تاريخ دمشق ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) يورد صاحب ذيل تاريخ دمشق خبر قتل مقدم وادي التيم وقتـــل بهرام في حوادث سنة ٢٢ ٥ هـ .

تقدم، فاستدعى برقاً بنَ جندل مقدم وادي التيم وقتله صبراً بين يديه لا لسبب، فتألم الناس لذلك لشهامته وحسنه وحداثة سنه، وهاج أهلُ وادي التيم طالبين بثأره مع أخيه الضحّاك بن جندل، فحشدوا وقصدوا بانياس، وجمع بهرام أيضاً وخرج إليهم، فبغتوه صباحاً وأعجلوه قبل أن يركب من مخيّمه هو وأصحابه، فقتلوه وأصحابه، أشدّ قتلة، وأخذوا رأسَه وطافوا به في بلادهم، ثم بعثوه إلى خليفة مصر الآمر لأنهم كانوا ينتمون إليه ويقولون بانتظار الحاكم ليعود من غيبته ويقسمون في أيمانهم بحقه. فبعث إلى أعيان أهل الوادي الخلع والافتقاد، ثم قام بعد بهرام صاحبه اسماعيل العجمي، فحذا في الإضلال والإستغواء حذوه، وعامله الوزير المزدقاني[1] بما كان يعامل به بهراماً. فإنه كان يصادقُ الباطنيةَ ويراعي أصحابهم. وغرضه في ذلك أن يساعدوه على أعدائه، وينجدوه إن دهمه أمرٌ لا يطيقه فلم يُغن عنه ذلك من أمر الله شيئاً، وضرب عنقه الملك بوري صاحب دمشق، وأحرقَ بدنَه، وعلّق رأسه، وانقلبتِ البلدُ بالسرور، وحمدوا الله. وثارت الأحداث والشطار في الحال بالسيوف والخناجر يقتلون من رأوا من الباطنية وأعوانهم ومن يتهم بمدحهم ويتبعونهم حتى أفنوهم، وامتلأت الطرق والأسواق بجيفهم، وكان يوماً مشهوداً أعز الله فيه الإسلام وأهله. وأخذ جماعة أعيان، منهم شاذي الخادم تربية أبي طاهر الصائغ الباطني الحلبي، وكان هذا الخادم رأس البلاء، فعوقب عقوبة شديدة شفت القلوب. ثم صلب هو وجماعته قبلي السور. وقتل بدمشق ممن كان يرمى بمذهب الباطنية ستة آلاف نفس. ولما سمع اسماعيل الداعي وأعوانه ببانياس بما جرى انخذلوا وذلوا، وسلّمَ اسماعيلُ اللعين بانياس إلى الفرنج، وذهب هو وأعوانه إلى البلاد الافرنجية في الذله والقلة، ثم مرض إسماعيل بالإسهال وهلك، فلا رحمه الرحمن[2].

---

(١) وهو أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني.

(٢) راجع أخبار الباطنية بشيء من التفصيل في ذيل تاريخ دمشق ٢٢١ - ٢٢٤. ويذكر ابن القلانسي أن الإيقاع بالمزدقاني تم سنة ٥٢٣.

ولما عرف الفرنج بواقعة الباطنية وانتقلت اليهم بانياس قويت نفوسهم [وطمعوا في دمشق][(١)] وحشدوا وتألبوا ، وتجمعوا من الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس والسواحل، فكانوا نحواً من ستين ألف ما بين فارس وراجل، فتأهب تاج الملوك بوري ، وطلب التركمان وأنفق الخزائن . وأقبل الملاعينُ قاصدين دمشق ، فنزلوا على جسر الخشب والميدان [المعروف المجاور له][(٢)] ، وبرز عسكرُ دمشق ، وجاء التركمان والعرب وعليهم الأمير مُرّة بن[(٣)] ربيعة ، وتفرقوا[(٤)] كراديسَ في عدة جهات ، فلم يبرز أحد من الفرنج ، بل لزموا خيامهم . فأقام الناس أياماً هكذا . ثم وقع المصاف ، فحمل المسلمون وثبت الفرنج ، فلم يزل عسكرُ الإسلام يكر عليهم ويقتل منهم إلى أن فشلوا وخذلوا ثم ولّوا مدبرين ، ووضع المسلمون فيهم السيفَ ، وغنم المسلمون غنيمةً لا تُحد ولا توصف ، وهرب جيش الفرنج بالليل ، وابتهج الخلق بهذا الفتح المبين ، فلله الحمد والشكر[(٥)] .

سنة ٥٢٤

فيها كانت زلزلة عظيمة بالعراق هدمت بيوتاً كثيرة ببغداد ، ووقع بأرض الموصل مطر عظيم ، وأمطرت عليهم ناراً فأحرقت دوراً كثيرة وخلقاً ، وتهاربَ الناس[(٦)] .

---

(١) زيادة من ف .

(٢) زيادة من ذيل تاريخ دمشق ٢٢٥ .

(٣) هكذا في المرجع السابق ، وفي ص ، ف : مري .

(٤) هكذا في المرجع السابق ، وفي ص : ف : وبعثوا .

(٥) للاستزادة بشأن هذه الوقعة بين المسلمين والافرنج راجع ذيل تاريخ دمشق ٢٢٤ - ٢٢٦ والكامل لابن الأثير ١٠ / ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٦) الخبر وارد في المرآة ١٣٢ - ١٣٣ .

وفيهـا وجد ببغداد عقارب طيارة لها شوكتان ، وخاف الناسُ خوفـاً شديـداً .

وفيها ملك عماد الدين زنكي بلاداً كثيرة من الجزيرة وبلاد الفرنج ، وفتح حصن الأثارب عنوةً ، وجعله دكا ، وكان على أهل حلب من هذا الحصن ضرر عظيم لقربه منهم ، فإن الأثارب على ثلاثـــة فراسخ من غربي حلب . وجرت له حروب طويلة وخطوب جليلة ونصر عليهم في تلك المواقف كلهـــا ، وقتلَ خلْقاً . ومنها ذلت الفرنج وعلموا عجزهم عن زنكي[1] .

وفيها قتل الباطنيةُ الخليفةَ الآمر [بأحكام الله] ابن المستعلي صاحب مصر وله من العمر أربع وثلاثون سنة ، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وخمسة أشهر ونصف ، وهو العاشر من الفاطميين من ولد عبيد الله المهدي . ولما قتل تغلّب على الديار المصرية غلام من غلمانه أرمني استحوذ على الأمور ثلاثة أيام حتى حضر أبو عليّ أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ، فأقام الخليفةَ الحـافظَ عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم [ابن الإمام] المستنصر وله من العمر ثمان وخمسون سنة . ولما أقامه استحوذ على الأمور دونه ، وحصره في مجلسه لا يدع أحداً [يدخل عليه إلا إذا أراد ، ونقل الأموالَ من القصر إلى داره ، ولم يبق للحافظ][2] سوى الاسم فقط[3] .

سنة ٥٢٥

فيها وثب اثنان من الباطنية على تاج الملوك صاحب دمشق فجرحاه فأدركهما جماعته فهبروهما بالسيوف . وسبب ذلك أن الباطنيةَ لما جرى عليهم ما ذكرناه

---

(١) تفصيل الخبر عن حصن الأثارب في التاريخ البـاهر ٣٩ وما بعدها .

(٢) زيادة من د ، ف .

(٣) تجد نص الخبر السـابق عن مقتل الخليفة الفاطمي في البداية والنهاية ١٢/٢٠٠ - ٢٠١ مع اختلاف يسير في اللفظ .

في سنة ٥٢٣ تجرأوا على تاج الملوك ، وندبوا لقتله هذين الرجلين ، فتوصلا حتى خدما في ركابه ، ثم وثبا عليه فجرحاه ، فتعلـّل مدةً ثم مات رحمه الله[١] .

وفيها قتل أبو علي [أحمد بن][٢] الأفضل بن بدر الجمالي وزير الحـــافظ ، فنقلَ الحافظُ الأموالَ التي كان أخذها إلى داره ، واستوزر بعده أبا الفتح يانس الحافظي ، ولقبه أمير الجيوش ، ثم احتـــال له فقتله ، واستوزر ولده الحسنَ بعده[٣] .

سنة ٥٢٦

فيها تملك دمشقَ شمسُ الملوك إسماعيل بعد أبيه تاج الملوك بوري بن طغتكين ، فقام بأعباء الأمر ، وخافته الفرنج ، وأبطل بعضَ المظالم ، وفرح النـــاسُ بشهامته وفـَرط شجاعته ، واحتملوا ظلمَه . وأخذ شمسُ الملوك مدينة حماة من زنكي[٤] .

سنة ٥٢٧

فيها قتل شمسُ الملوك أخاه سونج الذي كان أسره زنكي ، فحزن الناسُ عليــه .

---

(١) تفصيل هذا الخبر الكامل ١٠/٢٣٩ – ٢٤٠ ، راجع أيضاً المرآة ١٤٣ .

(٢) أورد سبط ابن الجوزي خبر مقتله في حوادث سنة ٥٢٧ . راجع المرآة ١٤٦/١٤٧ . وكذلك ذيل تاريخ دمشق ٢٢٩ ، والكامل ١٠/٢٤٠ الذي أورد مقتله سنة ٥٢٦ .

(٣) لما مات الوزير يانس تولـّى الخليفة الحافظ الأمور بنفسه ولم يستوزر أحداً ، ثم عهد الى ولده سليمان فمات بعد شهرين فجعل مكانه أخاه حيدرة في ولايته فثار الحسن وتولى الأمر ، ولكن الجند ثاروا عليه وانتهى الأمر بقتله . راجع اتعاظ الحنفا للمقريزي ، الملحق الخامس ٣١٩ – ٣٢٣ .

(٤) راجع عن شمس الملوك ذيل تاريخ دمشق ٢٣٣ وما بعدها .

وفيها أخذ شمسُ الملوك بانياسَ من الفرنج بالسيف وقلعتَها بالأمان ، فلما نزلوا أُسروا كلهم . ثم قدم دمشقَ مؤيداً منصوراً ، والأسرى بين يديه ورؤوسُ القتلى . ورأى الناسُ ما أقرَّ أعينَهم ، فلله الحمدُ والمِنة . وكان يوماً مشهوداً[١] .

سنة ٥٢٨

فيها فتح شمسُ الملوك الشقيف[٢] وبيروت ، ونهب بلادَ الفرنج .

وفيها افتتح الأتابك زنكي بن اقسنقر قلاعاً كثيرة ، وقتلَ خلقاً من الفرنج ، وفتح المعرة – وكانت بيد الفرنج سبعاً وثلاثين سنة – وردَّ على أهلها أملاكهم ، فكثر له الدعاء .

[سنة ٥٢٩]

فيها[٣] كانت وفاةُ الخليفة المسترشد بالله وولاية الراشد ، وسببُ ذلك أنه كان بين السلطان مسعود وبين الخليفة المسترشد واقع كبير ، اقتضى الحال أن الخليفة أراد قطعَ الخطبة له ببغداد ، فاتفق موتُ أخيه طغرل بن محمد بن ملكشاه ، فسار مسعودٌ إلى البلاد فملكها ، وقوي جأْشه ، ثم شرع يجمع العساكر ليأخذ بغداد من يد الخليفة . فلما علم الخليفة بذلك انزعج واستعدَّ لذلك ثم خرج من بغداد في جحافل كثيرة فيهم القضاة ورؤوس الدولة من جميع الأصناف ، ومشوا بين يديه أولَ منزلة حتى وصل إلى السرادق ، ثم سار إلى أن التقى الجيشان في

---

(١) راجع الخبر مفصلاً في ذيل تاريخ دمشق ٢٣٦ – ٢٣٧ ، والمرآة ١٤٥ .

(٢) راجع ذيل تاريخ دمشق ٢٤١ والمرآة ١٤٥ ، ولكنهما لا يذكران أن شمس الملوك فتح بيروت .

(٣) تجد الخبر التالي في البداية والنهاية ١٢/٢٠٧ – ٢٠٩ والتاريخ الباهر ٤٨ وما بعدها مطابقاً أحياناً ، وموجزاً أحياناً أخرى .

يوم الاثنين عاشر رمضان واقتتلوا قتالاً كثيراً ، ولم يقتل من الصفين سوى خمسة أنفس . ثم حمل الخليفة على جيش الملك مسعود فهزمهم ، ثم تراجعوا فحملوا على جيش الخليفة فهزموهم ، وقتلوا منهم [خلقاً كثيراً] [1] وأسروا الخليفة ، وأخذوا ما معه ، وكان معه خزائن عظيمة ، وكانت صناديق الذهب على سبعين بغلاً [أربعة آلاف ألف دينار] [2] ، وكان الثقل على خمسة آلاف جمل وخزانة السبق أربعمائة بغل .

ووصل الخبر إلى بغداد فنفر أهل بغداد في يوم عيد الفطر ، ووثبوا على الخطيب ، وكسروا المنبر والشباك ، ومنعوه من الخطبة ، ومشوا في الأسواق على رؤوسهم التراب يبكون ويصيحون ، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة في الطرق وتحت التاج .

قال ابن الجوزي: وزلزت بغداد مراراً كثيرة [وكان مبدأ الزلازل يوم الخميس حادي عشر شوال ست مرات] [3] ودامت كل يوم خمس او ست مرات إلى ليلة الثلاثاء فلم تزل الارض تميد من نصف الليل إلى الفجر والناس يستغيثون ، وتفاقم الأمر ، واستسلم الناس . ثم أرسل سنجر إلى ابن أخيه مسعود يقول له : ساعة وقوف غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ، ويقبّل الأرض بين يديه ، ويسأله العفو والصفح ويتنصل غاية التنصل ، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها ، فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل ، ودوام ذلك عشرين يوماً ،

---

(١) زيادة من البداية والنهاية ٢٠٨/١٢ .

(٢) زيادة من ف .

(٣) الزيادة من المرآة ١٥٢ - ١٥٣ .

وتشويش العساكر ، وانفلات البلدان . ولقد خِفتُ على نفسي من جانب الله وظهور آياته ، وامتناع الناس من الصلوات في الجوامع ، ومنع الخطباء ما لا طاقة لي بحمله ، فبالله تتلافى أمرك معه ، وتعيده إلى مقر عزه ، وتسلم إليه دُبيساً ليحكم فيه ، وتحمل الغاشيةَ بين يديه أنتَ وجميع الأمراء كما جرت عادتنا وعادة آبائنا . فلما أن قرأ مسعود هذه المكاتبة امتثل ما أمره به عمه ، وضرب للخليفة سرادقاً عظيماً ، ونصب فيه قبةً عظيمة تحتها سرير هائل ، وألبس الخليفةَ السوادَ على عادته . ثم جاء مسعود فدخل عليه ، وقبل الأرض بين يديه ، ووقف يسأل العفو ، فقال : قد عفا الله عن ذنبك فاشكر وطب نفسا . ثم عامله مسعود بما أمره به عمُّه ثم أحضر دُبيساً مكتوفاً بين أربعةِ أمراء ومع كل واحد سيف مسلول وكفن منشور ، وألقي بين يدي السرير ، وقال مسعود : يا أميرَ المؤمنين ، هذا السبب الموجب لما تم ، فإذا زال السبب زال الخلاف ، ومهما تأمر يُفعل به ، وهو يبكي ويتضرع ويقول : العفو عند القدرة ، وأنا أقل وأذل ، فعفا عنه وقال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، فجعل يقبل يدَ أمير المؤمنين ويمرّها على وجهه وقال : بقرابتك من رسول الله ﷺ إلا ما عفوتَ عني وتتركني أعيش في الدنيا ، فإن الخوف منك قد برح بي .

وطار هذا الخبر في الآفاق ، وفرح الناس بذلك واطمأنت قلوبهم . فلما كان مستهل ذي العقدة ، جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه يحثه على الإحسان إلى الخليفة ، وأن يبادر بسرعة ردّه إلى وطنه . وأرسل مع الرسل جيشاً ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد . فصحب الجيش سبعة عشر من الباطنية . ويقال ان مسعوداً لم يعلم بهم والله أعلم[1] . فركب السلطان

(١) يقول صاحب المرآة ١٥٧ إن مسعوداً وسنجر اتفقا على الفتك بالخليفة ، وإن مسعوداً أفرد للباطنية الذين كانوا في زيّ الغلمان خيمة قريبة من الخليفة وأنه أكرمهم ، ولم يُخفِ على الناس فعله . ويقول صاحب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (دار المعارف ، القاهرة) ص ٢٧٠ : « واختلف الناس عند قتل المسترشد في سبب قتله فقال قوم : إن مسعوداً لم يعلم بذلك ولا رضي به ، وقال قوم : بل مسعود هو الذي واطأ الباطنية على قتله وأمرهم بذلك ... »

والعسكر لتلقي الرسل ، فهجمت الباطنية على الخليفة في خيمته وقتلوه بها ، وقطعوه قطعاً ولم يلحق الناس منه إلا الرسوم . وقتلوا معه جماعةً من أصحابه في يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة . فلما علم العسكرُ أحاطوا بالسرادق، فخرج الباطنية وقد فرغوا من شغلهم فقتلوا . ووقع النحيب والبكاء وذلك على باب مراغة ، ودفن بها كذا قاله الذهبي . وقال ابن كثير[١] : حُمِل إلى بغداد وصُلّي عليه بها .

ولما وصل خبر إلى قتله بغداد وقع النحيب والبكاء وخرج الناس حفاة مخرقين الثياب ، والنساء منشرات الشعور يلطمن ويقلن فيه المراثي على عادتهن لأن المسترشد كان محبباً فيهم ببرّه لما فيه من الشجاعة والعدل والرفق بهم — وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام ، وكانت خلافته سبعة عشر سنة وسبعة أشهر . وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المستنصر بالله إلى خلافته إلا أن يكون المعتضد والمكتفي . ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة . واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب . قال ابن كثير[٢] : وهو آخر خليفة رؤى خطيباً . وعمل العزاء في الديوان ثلاثة أيام .

ثم جلس ابنه الراشد في الشباك في الدار المثمنة المقتدرية، وبايعه الأمراء والأعيان ، وخطب له ببغداد ، وظهر للناس . وكان أبيض مشرباً بحمرة ، جسيماً مستحسناً، وكان يومئذ كبيراً له أولاد . ونادى بإقامة العدل وردّ بعض المظالم . وظهر في أيامه الرفض كثيراً . ثم إنّ السلطان مسعوداً جهز إلى دُبيس من قتله ، وأراد بذلك أن ينسب قتله [المسترشد] إلى دُبيس وأنه أخذ

---

(١) البداية والنهاية ٢٠٨/١٢ .

(٢) البداية والنهاية ٢٠٨/١٢ .

بثـأر الخليفة منه . وعلى كل حال أراح الله الارض ومن عليها من ذلك المـــارد الرافضي .

وفيها اختلت[1] أحوال الشام لسوء سيرة شمس الملوك ، فـانه حنق على الناس، وصادر الاعيان وكاتب أهل دمشق الاتابك عماد الدين زنكي وسألوه ادراكهم، وأطمعوه في دمشق . ثم اجتمع جماعة من عسكره وغيرهم وتشاوروا فيا دهمهم من ظلم صاحبهم وعسفه وهتكه لحرمهم ، وأخذه أموالهم وأزواجهم، وقال بعضهم : هذا نوع من الجنون والسّوْداء لا دواء له إلا بالموت ، وأنهوا الحال إلى والدته صفوة الملوك زمرد خاتون فاستدعت ولدها شمس الملوك ولامته وخوّفته ، فلم يلتفت اليها وسبّها وكاد يبادر اليها . فلما خرج من عندها أشار عليها الخواص بالتمكين من قتله، وقيل لها: إنّـه قد عزم على قتلك. فمكنت من ذلك . فاجتمع عليه طائفة من الغلمان فقتلوه في بعض الدهاليز ، وابتهج الناس بصرعه، وشكروا الله تعالى على الراحة منه. وأجلس في الملك أخوه شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك بوري، واستقامت الاحوال. ثم وصل الاتابك زنكي، وخيّم بين عدرا والقصير ، فخرج اليه خلق من العساكر والاحداث وصدّوه ، ولم يمكنوه من مقاربة البلد ، ثم حصل الصلح معه ورجع .

سنة ٥٣٠

فيها وقع بين الخليفه الراشد وبين السلطـــان مسعود بسبب انه أرسل الى الخليفة يطلب منه ما كان كتب له والده خطه به حين أسره وهو أربعمائة ألف

---

(١) راجع الخبر مفصلا في ذيل تاريخ دمشق ٢٤٥ وما بعدها .

دينار[١]، فامتنع الراشد من ذلك،وأرسل اليه يقول: أما الأموال[المضمونة][٢] فانها كانت لاعادة الخليفة الى داره ولم تحصل وأنا مطالب بالثأر ، وأما [مال][٣] البيعة فحتى تعاد الى أملاكي واقطاعي ، وأما الرعية فلا سبيل لك عليهم ، وما عندي الا السيف . ثم استنهض الخليفة الأمراء ، وأرسل الى عماد الدين زنكي فجاء اليه والتفت عليه خلائق. وجاء في غضون ذلك السلطان داود ابن محمود [بن محمد] بن ملك شاه، فخطب له الخليفة ببغداد وخلع عليه ، وبايعه [على الملك] . فتأكدت الوحشة بين الخليفة والسلطان جدا ، وبرز الخليفة الى ظاهر بغداد ، ومشى الناس بين يديه كما كانوا يعاملون به أباه ، وخرج السلطان داود من جانب آخر . فلما بلغهم كثرة الجيوش مع السلطان مسعود حسَّن عماد الدين زنكي للخليفة أن يذهب معه الى بلاد الموصل [٤] .

واتفق دخول السلطان مسعود الى بغداد في غيبتهم ، فاستحوذ على دار الخلافة بما فيها حتى استخلص من نساء الخليفة وحظاياه الحليّ والمصاغ والثياب التي للزينة وغير ذلك، وجمع القضاة والفقهاء وأبرز لهم خطّ الراشد أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان مسعود فقد خلع نفسه من الخلافة[٥] ، فأفتى من أفتى من الفقهاء بخلعه فخلع . وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً . واستُدعي محمد

---

(١) تضيف ف الى هذا « ويطلب منه أولاد صاحب المخزن بثلثمائة ألف دينار ، وقسّط على أهل بغداد خمسمائة ألف دينار » .

(٢) زيادة من ف .

(٣) زيادة من ف .

(٤) راجع الكامل ١١/١٦ ، والتاريخ الباهر ٥١ – ٥٣ .

(٥) يقول ابن الأثير في الكامل ١١/١٦ إن اليمين التي حلف بها الراشد بالله للسلطان مسعود هي « أني متى جندت او خرجت او لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر » . راجع أخبار خلع الراشد بالله مفصلة في الكامل ١١/١٦ – ١٧ والتاريخ الباهر ٥٣ – ٥٤ .

ابن المستظهر [1] بالله وبويع له بالخلافة عوضاً عن ابن اخيه الراشد وله من العمر أربعون سنة ، ولقب بالمقتفي . ويقال انه رأى النبي ﷺ في المنام وهو يقول له : سيصل هذا الامر اليك فاقتف بي ، فصار [الأمر] [2] اليه بعد ستة ايام ، فلقب بذلك لذلك . ويقال إنهم بايعوا المقتفي على ألّا يكون عنده خيل ولا آلة سفر ، وأخذ مسعود جميع ما في دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور ، ولم يترك بدار الخلافة سوى أربعة أفراس وثمانية بغال برسم الماء. وسار الراشد صحبة زنكي ودخل الموصل .

فائدة : ولي المقتفي والمسترشد الخلافة وكانا أخوين ، كذلك السفاح والمنصور وكانا أخوين، وكذلك الهادي والرشيد [ابنا المهدي] [3] وكانا أخوين، [وكذلك الواثق] [4] والمتوكل ابنا المعتصم وكانا أخوين . وأما ثلاثة إخوة : فالأمين والمأمون والمعتصم بنو الرشيد ، والمنتصر والمعتز والمعتمد بنو المتوكل ، والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد، والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر. وأما أربعة اخوة فلم يكن إلا في بني امية ، وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان .

وفيها تحركت الأسعار بدمشق والشام ، فبيعت الغرارة بأربعمائة درهم ، وجاء جراد عظيم فزاد الناس خوفاً .

وفيها طلع على دمشق وأعمالها والبقاع وبعلبك سحاب مظلم أسود سدّ الأفق ، ثم احمر حتى كأنه نار ، وجاءت من بعده ريح شديدة ، ووقع برد

---

(١) في ص : المستودع .

(٢) زيادة من ف .

(٣) زيادة من ف .

(٤) زيادة من ف .

كبير ومطر مفرط في الكثرة ، وفـاضت السيول وامتدت المدود واختلطت أنهار دمشق بعضها ببعض ، وأخرب بردى ما يجاوره .

وفيهـا اجتمعت عساكر حلب مـع الأمير سوار نائب حلب ، وكبسوا اللاذقية بغتة [وقتلوا وأسروا وغنموا . قـال ابن الأثير : كانت الاسرى سبعة آلاف نفس بالصغار والكبار ، ومائة ألف من الدواب والمواشي ، وخربوا اللاذقية][1] وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً .

سنة ٥٣١

فيها خرج الراشد من الموصل متوجهاً نحو مراغة ، وسببه مـــا بلغه من انتظام الحال بين الأتابك زنكي وبين الخليفة المقتفي والسلطان مسعود على ضياع قررت له ببغداد ، على أن يخطب له في البلاد التي تحت يده من الموصل والشام ، على ان لا يكلّف الحضور عند السلطان [ولا يزور ولا يزار][2] . وشرط هو أن يسلم الراشد اليهم ولا يخطب له ويخلعه . فلمـــا تم ذلك خرج الراشد من الموصل ليلاً ، وتبعه أصحابه من الغد . وعلم بهم زنكي فلم يتعرض لهم . فلما تعدّى الموصلَ تبعه داود السلجوقي ، وساروا إلى همذان . فلما علم بهم السلطان مسعود خرج من بغداد إلى همذان لدفع الراشد وابن أخيه داود ، وتقاربت العساكر واصطفت الجيوش ، فحمل مسعود على القلب وفيـه داود فكسره ، ثم حملت ميسرته وكسرت الميمنة ، فاستنهض الراشد الاتراك ووعدهم ونخاهم ، فردّوا إلى عسكر مسعود ، وكانوا قد نزلوا عن خيولهم واستراحوا ، وبعضهم قد نزع عن نفسه ، وبعضهم قد شرب وسكر ، فحملوا عليهم فانهزموا

---

(١) زيادة من ف . النص هنا موجز لنص ابن الاثير في الكامل ١٥/١١ .

(٢) زيادة من ف .

جميعهم . فلما رأى مسعود انهزام أصحابه وتحكم السيوف فيمن بقي منهم ، ولى منهزماً ودخل إلى أصفهان مكسوراً . ولما وصلت الأخبار إلى بغداد بكسرة الملك مسعود ، اضطرب أمر الخليفة المقتفي . وسار الراشد إلى أصفهان ومعه داود والعساكر ، فعاثوا في البلاد [وأخربوا القرى وظلموا الناس] (١) واخربوا كثيراً من قرى الملاحدة ، فدست اليه الملاحدة من قتله على باب أصفهان في ليلة السابع والعشرين من رمضان ، وخلص الأمر للمقتفي وتقررت السلطنة لسنجر ثم لمسعود .

وفيها كثر موت الفجأة بأصبهان ، فمات كثير من الناس ، وأغلقت دور كثيرة .

وفيها تزوج الخليفة المقتفي بالخاتون فاطمة بنت السلطان محمد بن ملكشاه أخت السلطان مسعود على صداق مائة ألف دينار ، وحضر السلطان مسعود العقد ، ونثر على الناس أنواع النثار .

وفيها صام أهل بغداد رمضان ثلاثين يوماً ، ولم يروا الهلال ليلة احدى وثلاثين مع كون السماء مصحية . قال ابن الجوزي : وهذا شيء لا يقع مثله .

سنة ٥٣٢

فيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بقلعة تكريت .

وفيها كانت زلزلة عظيمة في بلاد الشام والجزيرة والعراق ، فانهدم بشيء كثير ، ومات خلق كثير تحت الردم .

وفيها كان بخراسان غلاء كبير حتى أكلت الكلاب .

---

(١) زيادة من ف .

وفيها أخـــذ عمادُ الدين زنكي مدينةَ حمص[1] ، وتزوج بالست زمرّد خاتون أم شمس الملوك إسماعيل وهي أخت الملك دقاق لأمه ، وهي التي تنسب اليها المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق بأعلى الشرف القبلي .

وفيها كسى الكعبةَ رجلٌ من التجار يقال له راسب الفارسي بثمانية عشر ألف دينار . وذلك لانه لم يأتها كسوة في هذا العام لاجل اختلاف الملوك .

وفيها خرج ملكُ[2] الروم من القسطنطينية ومعه خلق كثير لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى ، وقصد الشام فخافه الناس خوفاً عظيماً ، وقصد مدينة بزاعة وحصرها – وهي على مرحلة من حلب – وفتحها عنوة . ثم سار عنها إلى شيرز ، وهي حصن منيع على مرحلة من حماة فحصرها ، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً . وأرسل صاحبهـــا إلى زنكي يستنجده ، فحضر ونزل على حماة ، وكان كل يوم يركب في عساكره ويسير إلى شيرز بحيث يراه ملـــك الروم ، ويرسل سرايا يتخطف من [يخرج][3] من عساكرهم للميرة والنهب . ثم يعود آخر النهار . وكان الروم قد نزلوا على شرقي شيزر ، فأرسل اليهم زنكي يقول لهم : إنكم تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فإن ظفرتم بنا أخذتم شيرز وغيرها ، وإن ظفرنا بكم أرحنا المسلمين من شركم . ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وإنما قـــال هذا ترهيبـــاً لهم . وكان زنكي يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم . وكان يراسل ملكَ الروم ويوهمه أن الفرنج معـــه ، فاستنفر كل واحد من الفرنج والروم من

---

(١) راجع خبر حمص في الكامل ١١/١٩ - ٢٠ .

(٢) تجد النص التالي مع اختلاف يسير في اللفظ في التاريخ الباهر ٥٥ – ٥٦ .

(٣) زيادة من ف .

صاحبه ، فرحل ملك الروم عنها ، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً ، وترك المناجيق وآلات الحصار بحالها . فسار زنكي خلفهم ، فظفر بطائفة منهم من ساقة العسكر ، فغنم منهم ، وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ، ورفعه إلى قلعة حلب ، وكفى الله المؤمنين القتال .

سنة ٥٣٣

فيها كانت زلزلة عظيمة بمدينة جنزة مات بسببها مئتا ألف وثلاثون ألفاً وخسف بها ، وصار مكان البلد ماء أسود عشرة فراسخ في عشرة فراسخ[١] ؛ وزلزلت حلب في ليلة واحدة ثمانين مرة ، وخرج أهلها إلى الصحراء[٢] . قال **ابن الأثير** : ولم تزل الزلازل تتعاهدهم بالشام من رابع صفر إلى تاسع عشرة ، وكان معها صوت وهدة شديدة[٣] .

وفيها قتل صاحب[٤] دمشق شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري ، قتله ثلاثة من خواصه ليلاً وهربوا من القلعة ، فأدرك اثنان وصلبا ، وأفلت الثالث . وتملك بعده أخوه جمال الدين[٥] محمد بن تاج الملوك ، وكان ببعلبك قبل ذلك ، فجاء الأتابك زنكي وأخذ بعلبك بعد أن نصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ترمي ليلاً ونهاراً ، فأشرف أهلها على الهلاك [فسلموا البلد][٦] ، وعصى بالقلعة جماعة من الأتراك ونزلوا بالأمان ، فغدر بهم وصلبهم ، فمقته الناس ، ونفر منه أهل دمشق ، وقالوا : لو ملك دمشقَ فعل بنا مثلَ ما فعل بهؤلاء . ولما ملك بعلبك ولّاها

---

(١) تجد خبر هذه الزلزلة في المرآة ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٦٨ .

(٣) الكامل ١١/٢٧ - ٢٨ .

(٤) هكذا في ف ، وفي ص : صاحب الموصل دمشق . راجع الكامل ١١/٢٦ .

(٥) هكذا في الكامل و التاريخ الباهر وفي ص : كال .

(٦) زيادة من ف .

لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين وكتب له ثلثها ، فاستقر فيها إلى أيام نور الدين محمود .

سنة ٥٣٤

فيها دخل المقتفي على الخاتون فاطمة أخت السلطان مسعود ، وأغلقت بغداد ، وكان وقتاً مشهوداً . وتزوج السلطان بنت أمير المؤمنين المقتفي .

وفيها نقصت المياه من سائر الدنيا . وفيها توفي رجل صالح من أهل باب الأزج ، فنودي للصلاة عليه بمدرسة الشيخ عبد القادر ، فلما أُريد غسلُه عطس وعاش .

وفيها ولد تقيُّ الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي .

وفيها قدم الأتابك زنكي من بعلبك ، فنزل البقاعَ طالباً دمشق ، فوردت اليه هديةُ صاحب دمشق ، وطلب منه العود ويعطيه خمسين الف دينار [ويعطيه حمص](١) ، فأشار نجمُ الدين على زنكي بقبول ذلك ، وقال : هذا مال كثير قد حصل بلا تعب ، وبلد كبير بلا عناء ، ودمشق بلد عظيم ، وأهل دمشق قد ألفَ أهلها هذا البيت ، وتمرَّنوا على سياستهم ، وقد بَلغَتْهم الأحوالُ التي جرت ببعلبك . فامتنع عمادُ الدين زنكي من قبول ما أشار به ، ففاته ذلك ، ولم يظفر بعوضة ، فإنه جاء ونزل على داريا ، وأرسل [إلى] جمال الدين محمد بن نوري يطلب منه دمشق ويعوِّضه عنها أيَّ بلد شاء ، فلم يجبه . فالتقى العسكران ، وانهزم الدمشقيون ، وقتل كثير منهم . ثم تقدم زنكي الى المصلّى ، فالتقاه جمع كثير من جند دمشق وأحداثها ورجال الغوطة ، فقاتلوه فانهزموا ،

---

(١) زيادة من ف . راجع خبر دمشق في الكامل ١١/٢٨ . والنص هنا موجز لنص ابن الأثير .

وأشرف البلدُ على الأخذ . لكن عاد زنكي فأمسك عدة [١] أيام عن القتـال ، وتابع الرسل الى صاحب دمشق بتسليمها ،فلم يجبه ، فعاد الى القتال والزحف. فمرض صاحب دمشق ومات في ثامن شعبـان وهو مثل الوقت الذي مات فيه أخوه ، وكانت مدة ولايته سنة واحدة. وكان حسن السيرة قليل الظلم، فحزن الناس عليه وولي بعده أبنه مجير الدين أبق، ودبر دولته معين الدين أنر. فلما ألحّ عليهم زنكي بالقتال راسل أنر الفرنجَ يستنجدهم، وخوفهم من زنكي إن تملّك دمشق، فتجمعت الفرنج ، وعلم زنكي ، فسار الى حوران لملاقاتهم، فهابوه ولم يجيئوا، فعاد الى حصار دمشق، ونزل بعدرا، وأحرق قرى المرج وترحل، فجاءت الفرنج واجتمعوا بأنر،وكان قد شارطهم ان رحّلوا زنكي يعطيهم بانيـــاس، وكانت لزنكي . فسار أنر في عسكر دمشق الى بانيـاس وأخذهـا وسلمها الى الفرنج . فغضب زنكي ، وعاد الى دمشق [فعاث بحوران وأفسد ، وجاء الى دمشق] [٢] فاقتتلوا معـــه ، وقتل جماعة ، ثم رحل عنها ومع أصحابه شيء كثير من النهب .

وسار الى حصن بارين [٣] – وكان بيد الفرنج – فحاصره حصاراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان، فأجـابهم وتسلم الحصن: قال **ابن الأثير** [٤]: وكان هذا الحصن من أضرّ بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماة وحلب من

---

(١) في الكامل : عشرة .

(٢) زيادة من ف .

(٣) واسمه بعرين عندئذ . يقول ابن الأثير في التاريخ الباهر ٥٩ « واجتمع ملوك الفرنج وقمامصتهم وكنودهم وفرسانهم ورجالتهم وساروا إليه . فلقيهم بالقرب من حصن بارين – وهو المسمى حينئذ بعرين » .

(٤) راجع التاريخ الباهر ٦١ .

البلدان وانقطعت السبل ، فأزال الله بزنكي هذا الضرر العظيم .

وفي مدة مقامه في بارين سيّر جنده إلى المعرّة وكفرطاب وتلك الولاية جميعها واستولى عليها . وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة .

سنة ٥٣٥

فيها وصلت البردة والقضيب إلى بغداد ، وكانا قد أخذا مع المسترشد سنة تسع وعشرين ، فحفظهما السلطان سنجر عنده حتى ردّهما في هذه السنة . وفيها أصاب الحجّاجَ عطش شديد ، فهلك منهم خلق كثير ، ومنهم من تأخر وصوله حتى فاتته الوقفة .

وفيها ظهر ببغداد رجل قدم اليها وأظهر الزهد والنسك ، وقصده[١] الناس من كل جانب . فمات ولد لإنسان فدفنه قريباً من قبر السبتي ، فذهب ذلك المتزهد فنبشه ودفنه في موضع آخر ، ثم قال للناس : أعلموا أنني رأيت عمر بن الخطاب في المنام ومعه علي رضي الله تعالى عنهما وقالا : في هذا الموضع صبيّ من أولاد عليّ بن أبي طالب ، ودلّهم على المكان ، فحفروه ، وإذا صبيّ أمرد ، فمن الذي وصل إلى قطعة من كفنه ! وانقلبت بغداد ، وخرج أرباب الدولة وأخذوا ذلك التراب للبركة ، فازدحم الخلق ، وبقوا يقبلون يد المتزهد وهو يبكي ويتخشّع ، وبقي الناس على هذا أياماً والميّت مكشوف يراه الناس ويتمسّحون به ثم أنتن . وجاء الأذكياء وتفقدوا الكفن فإذا هو جديد ، فقالوا : كيف يمكن أن يكون هذا من أربعمائة سنة ! ونقبوا عن ذلك حتى جاء أبو الصبيّ فعرفه ، وقال: هذا والله ولدي دفنته عند قبر السبتي ، فمضوا معه

---

(١) في ص : وأخذه . التصحيح من المرآة .

فرأوا القبر قد نبش ، فكشفوه فإذا ليس فيه ميت ، وسمع المتزهد فهرب ، ثم وقعوا به وقرّروه فأقرّ ، فأركب حماراً وصفع . قلت : كذا حكاه **الذهبي** والله أعلم بصحته. ويلزم من صحته نسبة التغفل إلى أهل بغداد في ذلك الوقت، إذ على تقدير صحة قول ذلك المتزهد عندهم كيف اقتضى عقلهم أن يحفروا قبر ولد من آل عليّ رضي الله تعالى عنه ، ويقطّعون كفنه ويكشفونه وينتهكون حرمته ! بل لو قيل لهم إنه قبر أبي لهب ما كان يليق أن يفعل به ذلك ، بل كان اللائق إذ صدّقوا قوله أن يُعظّم ذلك الضريح ويزار . وعلى تقدير وقوع ذلك من جهلة الناس ، كيف لم[1] ينكر عليهم العلماء والحكّام مع مقامه تلك الأيام ! هذا من الأمور المستبعدة .

وفيها ملكت الإسماعيلية حصن مصياف . كان واليه نائباً لصاحب شيرز ، فاحتالوا عليه ، ومكروا به حتى صعدوا اليه، فقتلوه وملكوا الحصن، وبقي في أيديهم إلى دولة الملك الظاهر بيبرس .

سنة ٥٣٦

فيها كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر وبين ملك الخطا . وسبب ذلك – كما حكاه **الكتبي**[2] عن **تاريخ تاج الدين ابن حمويه** – أن طائفة من الترك تعرف بقزلق كانوا بما وراء النهر بنواحي سمرقند ترعى بمروجها وتتنقل في مراعيها ، ولهم أموال ودواب ، لا يعرفون عدد أغنامهم ، وأهل تلك الناحية ينتفعون بمعاملتهم وجلبهم ، ولا يتضررون بسببهم ، وهم يعفّون عن أموال غيرهم ، ويكفّون دوابهم عن الزروع . فاتفق أن الامراء السنجرية أغروا سنجر وألحّوا عليه بأن يبعث الجيوش اليهم يغزوهم ويكسب أموالهم . فسيّر

(١) هكذا في ف ، وفي ص : لا .

(٢) هكذا في ف ، وفي ص : في .

اليهم جيشاً فغزاهم وأوقع بهم، وغنم أموالـهم، وسبى ذراريهم، وقتل رجالهم، فانحازوا إلى جهـة، وبعثوا جماعة من مشايخهم إلى السلطان سنجر يسألونه الكف عن أذيتهم وتركهم على مـا هم عليه، وقالوا : نحن قوم في الصحارى والخراب وليس لنا مضرة على أحد هنا ولا نخيف السبيل، ولا نطرق القرى، ولا نؤذي الزروع، ومع هذا فنحن نبذل على خراج دوابنا في كل سنة للسلطان خمسةَ آلاف فرس وثلاثين ألف رأس غنم. فلم يلتفت اليهم ولا قبل منهم ما بذلوه، فلما عادت شيوخهم [اليهم][1] بذلك، قصدوا ملك الخطـا الملقب بكوخـان مستصرخين ومستعدين، وأطمعوه في البلاد، وهوّنوا عليه بلوغ المراد. فجمع فأوعى، وسار في سبعمائة ألف مقـاتل. واجتهد سنجر كل الاجتهاد، فجمع سبعين ألفاً، وكان اللقاء بصحارى سمرقند على ست مراحل منها، فانكسر سنجر، وقتـل جمع كثير من عسكره، وأسرت زوجته وأولاده وخواصه. ونجا سنجر بنفسه. وتقدم الخطا إلى سمرقند وبخـارى واستولوا عليها، وأمنوا من فيها[2]. واستحوذ ملكهم على دار الإمارة، ورتب نائباً في كل بلد، وأقر الناس على معايشهم، وعاد بالغنائم إلى بلاده.

سنة ٥٣٧

فيهـا [3] سار عماد الدين زنكي الى بلد الهكارية وكانت بيد الأكراد وقد أكثروا في البـلاد الفساد، فملـك تلك البلادَ وبنى هناك قلعةً عظيمة وسماها القلعةَ العمادية. وفيها خُطب للأتابك زنكي بآمد. وفيها أخذ مدينة عانة والحديثة.

---

(١) زيادة من ف.
(٢) في ص : فيها، وفي ف : بها.
(٣) الخبر التالي موجز لنص التاريخ الباهر ٦٤.

سنة ٥٣٨

فيها عزم السلطان مسعود على قصد الموصل والشام لوحشة وقعت بينه وبين عماد الدين زنكي (١) . فترددت الرسل بينهما حتى استقر الحال على مائة ألف دينار يحملها زنكي للسلطان ، دفع اليه منها عشرين ألف دينار . ثم إن الأمور تقلبت ، وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان ، فاحتاج الى مداراة زنكي فأطلق له [الباقي من] (٢) المال استمالةً له .

وفيها ملك عمادُ الدين زنكي عدةَ بلاد من ديار بكر ، وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية ، ومدينة حران ، وأخذ من أعمال ماردين عدةَ مواضع (٣) .

سنة ٥٣٩

فيها (٤) فتح الأتابك زنكي الرها ، وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً . وكانت الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً ، وهي إحدى الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية ، ثم القسطنطينية ، ثم الرها . وكان على المسلمين من الفرنج بالرها شرٌ عظيم . ملكوا من نواحي ماردين الى العراق عدةَ حصون كسروج والبيرة ، وكانت غارتهم

---

(١) أورد ابن الاثير سبب الوحشة مفصلاً في التاريخ الباهر ٦٥ . قال : « كان السلطان مسعود لما أفضت السلطنة اليه لا يزال الامراء والاكابر وأصحاب الاطراف يخرجون عن طاعته ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين ... وكان كلما انفتق عليه فتق نسبه الى الشهيد ، وظن أنه هو أشار به ... وكان ظن السلطان فيه صادقاً ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من مشاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك » .

(٢) زيادة من ف .

(٣) راجع التاريخ الباهر ٦٦ .

(٤) خبر فتح الرها هنا مختصر عما أورده ابن الاثير في التاريخ الباهر ٦٦ وما بعدها .

تبلغ مدينة آمد من ديار بكر وماردين ونصيبين ورأس عين والرقة. ولما ملكها زنكي استباحها، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وملاء الناسُ أيديهم من النهب والسّبي. ثم إنه دخل البلدَ فراعه وأنف لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أُخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر، فعاد البلدُ عامراً بعد أن كان داثراً. ورتب البلدَ وأصلح شأنه، وسار عنه، فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرى. وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره، وطاب بها نشره، وشهده خلق كثير من الاولياء والصالحين.

قال ابن **الأثير**: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرّها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين الزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها وله الكرامات[1] الظاهرة. ذكروا عنه أنه غاب [عنهم][2] في زاويته يوم[3] ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور [عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا، فلما قعد معهم][4] قال [لهم][5]: حدثنا بعض إخواننا أن الاتابك زنكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا[6] هذا، ثم قال: ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم [وبقي يردّد هذا القول مرارا، فضبطوا ذلك اليوم فكان][7] يوم الفتح. ثم إن نفرا من الاجناد حضروا

---

(١) هكذا في التاريخ الباهر، وفي ص، ف: الكرامة.

(٢) زيادة من التاريخ الباهر.

(٣) هكذا في التاريخ الباهر، وفي ص، ف: يومه.

(٤) زيادة من التاريخ الباهر.

(٥) زيادة من التاريخ الباهر.

(٦) هكذا في التاريخ الباهر، وفي ص: يومه.

(٧) زيادة من التاريخ الباهر.

عندالشيخ وقالوا: منذ رأيناك على السور تكبّر أيقنا بالفتح وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا .

[قال ابن الأثير]:وحكى لي بعض العلماء بالاخبار والأنساب[1]ـ وهو أعلم من رأيت بها ـ قال : كان ملـــكُ جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين [ذكر اسمه وأنسيته][2] وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع الى قولـه ، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقت الذي [فتحت فيه الرها] سيّر الملك في البحر جيشاً الى افريقيـة ، فنهبوا وأغاروا وأسروا،وجاءت الأخبار الى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس وهو شبيه النائم،فايقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيْتَ و كيْتَ،أين كان محمد عن نصرهم؟ قال له: كان قد حضر فتح الرها . قال : فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك : لا تضحكوا فوالله ما قـال عن غير علم . واشتد هذا على الملك ، فلم يمض[3] الا قليل حتى أتاهم الخبرُ بفتحها [على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رجاء ذلك الخبر لعلو منزلة الرهـا عند النصرانية][4] . قـال : وحكى لي أيضاً غير واحد ممن أثق بهم[5] ان رجلاً من الصالحين قال[6]: رأيتُ زنكي بعد قتله في المنام في أحسن حال ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي فقلت : بمـــاذا ؟ قال : بفتح الرها .

---

(١) هكذا في التاريخ البـاهر ، وفي ص ، ف : الأسباب .

(٢) زيادة من التاريخ البـاهر .

(٣) هكذا في التاريخ البـاهر وفي ف ، أما في ص : يأت .

(٤) زيادة من التاريخ البـاهر ٧٠ .

(٥) في ص ، ف : اليهم .

(٦) النص من هنا الى آخر الفقرة هو نص ابن الأثير في التاريخ البـاهر ، وهو يختلف عن نص ص ، ف من حيث اللفظ فقط .

سنة ٥٤٠

فيها استولت الفرنج بالأندلس على ساحل البحر الغربي الذي كان بيد المسلمين ، وهو مدينة شلب وأشبونه وشنترين وما والاها .

سنة ٥٤١

فيها احترق القصر الذي بناه الخليفة المسترشد [بباب المعونة] (١) وكان في نهاية الحسن . وكان المقتفي قد انتقل اليه بجواريه وحظاياه ليقيم به ثلاثة ايام، فما هو الا أن ناموا [حتى] (٢) احترق بسبب أن جارية أخذت في يدها شمعة فعلق لهبها ببعض الاخشاب ، فاحترق القصر ، وسلم الله الخليفة وأهله ، فأصبح وتصدق باشياء كثيرة ، وأطلق المحابيس (٣) .

وفيها جلس ابن العبّادي الواعظ فتكلم والسلطان مسعود حاضر ، وكان قد وضع على الناس مكساً في البيع فاحشاً ، فقال : يا سلطان العالم ، أنت تطلق في بعض الأحيان للمغني إذا طربتَ قريباً [مما ووضعت على المسلمين] (٤) من هذا المكس ، فهبني مغنياً وقد طربت ، فهبني هذا المكس شكراً لنعمة الله تعالى عليك ، وأسقِطْه عن الناس . فأشار السلطانُ بيده أني قد فعلت ، فضج الناس بالدعاء له ونودي في البلد بإسقاطه ، ففرح الناس (٥) .

---

(١) زيادة من المرآة ١٨٦ .

(٢) في ص ، ف : فما هو إلا أن ناموا احترق .

(٣) راجع هذا الخبر في المرآة ١٨٦ – ١٨٧ .

(٤) زيادة من ف .

(٥) أورد صاحب المرآة ١٨٨ هذا الخبر عن ابن العبادي الواعظ مع اختلاف يسير في اللفظ .

وفيها قتل الأتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر رحمه الله تعالى .
قال **ابن الأثير**(١) : كان يحاصر قلعةَ جعبر ، فبينا هو نائم دخلَ عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة [ولم يجهزوا عليه](٢) ، وهربوا [من ليلتهم] إلى القلعة ، ولم يشعر أصحابهُ بقتله . فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة ، صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر أصحابه اليه [فأدركه أوائلهم وبه رمق . حدّثني والدي عن بعض خواصه ، قال : أدركته وهو في السياق ، فحين رآني ظنّ أني أريد قتله ، فأشار إليّ بأصبعه السبابة ، فوقفت من هيبته ، وقلت له : يا مولانا ، من فعل بك هذا حتى أقتله ؟ فلم يقدر على الكلام] ، وختم الله بالشهادة أعماله .

ومن أعجب ما حُكي أنه لما اشتدّ حصارُ قلعة جعبر ، جاءَ في الليل ابن حسان المنبجي ، ووقف تحت القلعة [ونادى صاحبَها](٣) فأجابه ، فقال له : هذا المولى أتابك صاحبُ البلاد ، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا [وأنت بلا وزر](٤) ولا معين لك ، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذَ لك منه مكاناً عوض(٥) هذا المكان ، وان لم تفعل فأي شيء تنتظر ؟ فقال له صاحب القلعة : انتظر الذي انتظره أبوك . وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدّ حصار ، ونصب عليه عدة مناجيق ، وقال يوماً لحسان وقد أحرقه بحجارة المناجيق : أيّ شيء تنتظر ؟ ما تسلم

---

(١) راجع التاريخ الباهر ٧٤ - ٧٥ .

(٢) زيادة من التاريخ الباهر .

(٣) زيادة من ف ومن الروضتين ق١ ج١ / ١٠٩ .

(٤) زيادة من الروضتين .

(٥) هكذا في الروضتين ، وفي ص ، ف : عوضاً عن .

الحصن، فقال له حسان : أنتظر سهماً من سهام الله تعالى. فلما كان من الغد، جاء بلك يرتّب المنجنيق إذ أصابه سهم [غرب][١] فوقع في لبّته وخرّ ميتاً ، ولم يكن بجسده شيء ظاهر سوى ذلك المكان لأنه [كان قد][٢] لبس الدرع ولم يزرره على صدره ، فلما سمع ابن حسان ذلك [من مقالة صاحب جعبر][٣] رجع عنه . وفي تلك الليلة قتل أتابك [فكان][٤] هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة ذكر ذلك يحيى بن أبي طي[٥] في **كتاب السيرة الصلاحية** .

وكان زنكي حسن الصورة [أسمر][٦] مليح العينين طويل القامة ، ليس بالطويل البائن . وكانت سيرته من أحسن سير الملوك ، وكان من أكثرها حزماً وضبطاً للأمور ، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف .

قال **ابن الأثير**[٧] : حدّثني والدي قال : قدم الشّهيدُ أتابك زنكي الينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين ، وكان زمن الشتاء، فنزل بالقلعة ، وترك العسكر بالخيام ، وكان من جملة أمرائه عز الدين أبو بكر الدبيسي – وهو من أكبر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده – فدخل الدبيسي البلدَ ونزل بدار انسان

---

(١) زيادة من الروضتين .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) زيادة من الروضتين .

(٤) زيادة من الروضتين .

(٥) هكذا في الروضتين ، وفي ص ، ف : طلحة . أوردنا العبارة كما هي في الروضتين .

(٦) زيادة من ف .

(٧) راجع التاريخ الباهر ٧٦ – ٧٧ .

يهودي وأخرجه منها ، فاستغاث اليهودي إلى زنكي وهو راكب ، فسألَ عن حاله فأخبر به [وكان الشهيد واقفاً والدبيسي إلى جانبه][1] وليس فوقه أحد ، فلما سمع الاتابك ذلك الخبر ، نظر إلى الدبيسي نظر مُغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ،فتأخرالقهقرى ودخل البلد،وأخرج خيامه وأمر بنصبها[خارج البلد][2] ولم تكن الأرضُ تحتمل وضع الخيام عليهــا لكثرة الوحل [والطين] ، قال[3] : فلقد رأيتُ الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلمــا رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها وينصبوا الخيام، وخرج اليها من ساعته، وناهيك بهذا سياسة وأنصافاً .

قـــال[4] : وكان ينهى أصحابَه عن اقتناءِ الأملاك ويقول : مهما كانت البلاد لنــا فأي حاجةٍ لكم في الأملاك ، فإنّ الاقطاعاتِ تغني عنها . وإن خرجتِ البلادُ من أيدينا فالأملاكُ تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعيّة وتعدّوا عليهم وغصبوا أملاكهم .

وفيها[5] لما قتل زنكي سار أسدُ الدين شيركوه من ساعته وقصد خيمــةَ نور الدين ، وقال له : أنا أعلمُ أن الوزيرَ جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل

---

(١) العبارة من التاريخ البـاهر وتختلف عن عبارة ص في ترتيب الكلمات .

(٢) زيادة من الروضتـين ق١ ج١ / ١١٠ .

(٣) والد ابن الأثير، والعبارة من هنا الى آخر هذا الخبر هي عبارة التاريخ الباهر ، وهي أوسع من عبارة ص .

(٤) أي والد ابن الأثير ، والخبر منقول عن التاريخ الباهر ٧٧ مع اختــلاف يسير في اللفظ .

(٥) راجع الخبر التالي في الروضتـين ق١ ج١ / ١١٩ . وهو هنا مختصر .

وعزم على تقديم أخيك سيف الدين غازي وقصده [إلى][1] الموصل . وقد رأيت أن أصيّرك إلى حلب وتجعلها كرسيَّ مملكتك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام . ثم أخذه وسار في خدمتِه وسلّمه قلعتَها كما قدمنا .

وفيها سار مجيرُ الدين صاحب دمشق في عسكره الى بعلبك وحاصرها وبها نائب زنكي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، فسلّمها صلحاً له ، وأخذ منه مالاً ، وملكه قرايا من أعمال دمشق . وانتقل نجم الدين أيوب الى دمشق وأقام بها[2] . ولما بلغ ذلك نورَ الدين ، خاف أن يفسد عليه أسد الدين ويميل إلى صاحب دمشق لحصول أخيه نجم الدين عنده . ومال نورُ الدين محمود إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية حتى ولّاه جميعَ أموره وجميعَ مملكته ، فشق ذلك على أسد الدين .

وفيها حاصر عبد المؤمن مراكش[3] ، وكان بها إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فاستمر أحدَ عشر شهراً ثم أخذها عنوة ، فذكر أنه مات من أهلها أيام الحصار بالجوع نيّف على عشرين ومائة ألف . ولما دخلها عبد المؤمن ضرب عنق إسحاق المذكور في عدة من القواد ، وقتل في ذلك اليوم نيف على سبعين ألف رجل . كذا نقله الذهبي في **تاريخ الاسلام** عن **اليسع بن حزم** في هذه السنة .

وذكر **الكتبي** في تاريخه في السنة التي بعدها أن عبدالمؤمن استولى علىمراكش بالسيف،وقتل من بها من المقاتلة، ولم يتعرض للرعية،واحضر اليهود والنصارى،

---

(١) زيادة من الروضتين .

(٢) راجع الخبر الى هنا في الروضتين ١٢٤ حيث نقله أبو شامة من ابن الأثير .

(٣) راجع خبر فتح مراكش في كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين تحقيق بروفنسال (باريس ، ١٩٢٨) ص ١٠٢ - ١٠٩ .

وقال : أنتم تزعمون أن بعد الخمسمائة عام يظهر من يعضد شريعتكم. وقد انقضت المدة ، وأنا أخيّركم بين ثلاث : اما أن تسلموا ، أو تلحقوا بدار الحرب وإما أضرب رقابكم . فأسلم منهم طائفة ولحق بدار الحرب أخرى . وأخرب الكنائس والبيع وردّها مساجد، وأبطلت الجزية، وفعل ذلك في جميع ولايته. ثم فرق بيتَ المال وكنسه ورشّه ، وصلى فيه ، وأمر الناس بالدخول اليه والصلاة فيه كما فعل أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقصد حسن السيرة ليعلمَ الناس أنه لا يؤثر جمع المال ولا يدخر شيئا . ثم أقام معالم الاسلام والحدود على الوجه الشرعي مع السياسة الكاملة، وقال : من ترك الصلاة ثلاثة أيام فاقتلوه . وشدّد في الامور ، ولم يدع منكراً الا أزاله ، وكان يصلّي بالناس الصلوات الخمس ، ويقرأ في كل يوم سُبعا من القرآن بعد صلاة الصبح ، ويلبس الصوف ، ويصوم الاثنين والخميس .

وفيها [1] وردت الأخبار بأن ابن جوسلين جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين بها ، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين . فنهض نورُ الدين محمود في عسكره ومن انضاف اليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدوابُ في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم،وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل،وانهزم ابن جوسلين بنفسه، ومحق السيف كل من ظفر به من نصارى الرها ، واستخلص من كان أسر فيه من المسلمين، ونهب من الرها شيءٌ كثير من المال والأثاث والسبي. وفي هذه المرة نهبت وخربت وخلت من أهلها ، ولم يبق بها الا القليل .

---

(١) راجع الخبر التالي عن الرها في ذيل تاريخ دمشق ٢٨٨ . والنص هنا منقول عن نص ابن القلانسي مع اختلاف يسير في اللفظ ، ومع بعض الاختصار .

قال ابن الأثير [١] : ومن عجيب ما جرى أن نورَ الدين أرسـل من غنائمها الى الأمراء وأرسل الى زين الدين علي جملة من الجواري ، فحملن الى داره ، ودخل لينظر اليهن فخرج وقد اغتسل وهو يضحك، فسئل عن ذلك ، فقال: لما فتحنا الرها مع زنكي ، كان من جملة ما غنمت جارية فمالت نفسي اليها ، فعزمت أن أبيتَ معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر باعادة السبي والغنائم، وكان مهيبا مخوفا فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها ، فلما كان الآن أرسل إلي نورُ الدين سهمي من الغنيمة وفيه الجارية ، فوطئتها خوفا من العود .

[وفي شوال من هذه السنة][٢] ترددت [الرسل] والمراسلات بين نور الدين محمود وبين معين الدين [أنر] إلى أن استقرت الأحوال بينهما على أجمل صفة ، وتزوج نورُ الدين بابنة معين الدين ، وجهزت اليه الى حلب .

وفيها قلّ المطر جداً ، وقلت مياهُ الأنهار، وانتشر جرادٌ عظيم ، وأصابَ الناسَ داء في حلوقهم فمات بذلك خلق كثير .

سنة ٥٤٢

فيها سار نور الدين محمود ففتح [أرياح] وهي غربي حلب ، وأخذ ثلاث حصون صغار للفرنج فهابته الفرنج وعرفوا أنه كبش نطاح مثل أبيه .

وفيها[٣] أظلم الجو ونزلَ غيثٌ ساكب، ثم أظلمت الأرضُ في وقت العصر

---

(١) راجع التاريخ الباهر ٨٧ . وقد ورد الخبر في ص مختصراً بعض الشيء .

(٢) زيادة من ذيل تاريخ دمشق ٢٨٨ – ٢٨٩ . النص هنا مختصر من نص ابن القلانسي .

(٣) مصدر الخبر التالي هو ذيل تاريخ دمشق ٢٩٦ – ٢٩٨ . وهو هنا مختصر .

ظلاماً شديداً، [بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين][1] وبقيت السماء في عين الناظر [اليها][2] كصفرة الوَرْس ، وكذلك الجبـــال وأشجار الغوطة وكلما ينظر اليه من حيوان وجماد ونبات . ثم جـــاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهدات المزعجة والرجفات المفزعة ما ارتاع لها الناس . وبقي الأمر على هذا الحال إلى وقت العشاء، وظهرت رائحة مثل رائحة الحريق، ثم سكن بقدرة الله وأصبـــح على الأرض والاشجار وسائر النبات غبار [في رقـــة الهواء][3] بين البياض والغبرة .

قلت[4] : وقد شاهدت بالقاهرة في سنة ست وعشرين وثمانمائة مثل هذا ، غير أنه لم ينزل مطر ، ولم يحصل رعد ولا برق ، وإنما حصلت ظلمة ، واحمرت السماء ، وتغيّر الجوُّ تغيّراً كثيراً، وظهرت رائحة مثل رائحة الحريق، وحصل للناس من ذلك خوف ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، واستمر من بعد العصر إلى الليل ، ثم أصبح على رخام المدارس والبلاط تراب أصفر ذكر بعض الناس أنه من تراب برقة من بلاد المغرب .

وفيها ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي للرها .

وفيها اشتد الغلاء بافريقية ، فهلك أكثر الناس حتى خلت المنازل وأقفرت المعاقل .

---

(١) زيادة من ذيل تاريخ دمشق ٢٩٦ .

(٢) زيادة من المرجع السابق .

(٣) زيادة من ذيل تاريخ دمشق .

(٤) أي صاحب ص .

وفيها رأى رجل في المنام قائلاً يقول : من رأى أحمد بن حنبل غفر له ؟ قال ابن الجوزي : فلم يبق من خاص ولا عام إلا وزاره . قال : وعقدتُ يومئذ مجلساً فاجتمع فيه ألوف من الناس .

سنة ٥٤٣

فيها [١] نزل الفرنج على دمشق . خرج ملكُ الالمان في جيوش لا تحصى ، فاجتمع اليه ملوك الفرنج التي بالساحل ، واجتمعوا في بيت المقدس وصلوا صلاة الموت وعادوا الى عكا وفرقوا في العساكر سبعمائة ألف دينار ، ولم يظهروا أنهم يريدون دمشق ، بل [٢] .. بثغرها ، وهرب المسلمون بين أيديهم ، وجمعوا الغلال والاتبان فأحرقوها . وكان صاحب دمشق مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، ومدبر الامور معين الدين أنر ، والامر كله له ليس لمجير الدين منه شيء . ولم يشعر أهل دمشق إلا وملك الالمان قد خيّم على المزّة وزحف الى البلد ، وكان معه نحو ستين ألف راجل وعشرة آلاف فارس . وخرج اليهم معين الدين ومجيرُ الدين في مائة ألف راجل سوى الفرسان في يوم السبت سادس شهر ربيع الاول وتقاتلوا قتالاً شديداً . واستشهد من المسلمين في هذا اليوم نحو مئتين منهم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي شيخ المالكية عند النيرب قريب الربوة ، وكذلك الزاهد عبد الرحمن الحلحولي قتلا في مكان واحد . وكان معينُ الدين قد رأى الشيخ يوسف وقال له : يا شيخ ، أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال ، فقال : قد بعت واشترى [مني] [٣] فلا نقيله ولا نستقيله ، يشير الى قوله تعالى : (إنّ الله

---

(١) راجع الخبر التالي في التاريخ الباهر ٨٨ وما بعدها ، وذيل تاريخ دمشق ٢٩٨ وما بعدهـا .

(٢) مكان النقط كلمة غير واضحة .

(٣) زيادة من الكامل ٤٩/١١ .

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بــأنّ لهم الجنـّة) (التوبة : ١١١)
واستظهر الكفار على المسلمين ، وشرع الكفار في قطع الاشجار والتحصن بها ،
وهدّوا القناطر وباتوا تلك الليلة على هذا الحال ، وقد لحق الناسَ من الارتياع
لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وجرحت معه الصدور ،
وباكروا الظهور اليهم في غد ذلــك اليوم وهو الاحد ، وزحفوا اليهم ووقع
الطراد بينهم ، واستظهر المسلمون عليهم ، وأظهروا القتل والجراح فيهم .
وأبلى الامير معينُ الدين في حربهم بلاء حسناً ، فظهر من شجاعته وصبره ما لم يظهر
في غيره ، وقتل من الفرنج خلائق ، واستشهد [من المسلمين] جماعة . ولم تزل
رحى الحرب دائرة بينهم الى أن أقبل الليل وعاد كل واحد منهم إلى مكانه .
وبات الجند بازائهم وأهل البلد على أسوارهم .

ثم إن الفرنج تقدموا وخيّموا بالميدان الاخضر ، وضايقوا البلدَ حتى نزلوا
على أبوابــه . وكان أنر قد كاتب سيف الدين غـــازي ونورَ الدين ابني
زنكي . فلما كان في اليوم الخامس وصل سيف الدين غازي في عشرين ألف
ونزل بحمص ، ووصل نور الدين محمود الى حماة ، وفرح المسلمون بذلك ،
فأرسل غازي يقول لمعين الدين : قد حضرت بجيش عظيم ، ولم أترك ببلادي من
يحمل السلاح ، فإن أنا جئت ولقيت الفرنج وكانت علينا هزيمة وليست دمشق
لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا أحد ، وأخذت الفرنج وغيرها ، فإن أحببتَ
أني أقاتلهم فسلـّم البلدَ إلى من أثق به ، وأنا أحلف لك إن كان النصر لنا لا
أدخل الى دمشق ، وأرجع الى بلادي . فمطله معين الدين ، وبعَث الى [الفرنج]
الغرباء يقول لهم : إنّ ملكَ الشرق قد حضر ، فإن رحلتم وإلا سلـّمت دمشق
اليه ، وحينئذ تندمون . وأرسل الى فرنج الشام يقول لهم : بأيّ عقلٍ
تساعدون هؤلاء الغرباء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا أخذوا ما بأيديكم
من البلاد الساحليـة ، وأنا اذا رأيت الضعفَ عن حفظ البلد سلـّمته الى ابن
زنكي ، وأنتم تعلمون أنه إن ملك لا يبقى لكم معه مقام بالشام . فأجابوه الى

التخلّي عن ملك الالمان ، وبذل لهم حصن بانياس . فاجتمعوا بملك الالمان ، وخوّفوه من عساكر الشرق ، وحسّنوا له الرحيل . وكان زمان الفاكهة ، فأكل الفرنج منها فانحلت أجوافهم ، ومات منهم خلق كثير ، ومرض الباقون .

ولما ضاق بأهل دمشق الحال ، أخرجوا الصدقات والأموال على قدر أحوالهم ، واجتمع الناس في الجامع الرجال والنساء والصبيان ، ونشروا مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه ، وحثوا الرماد على رؤوسهم وبكوا وتضرعوا ، فاستجاب الله تعالى . وكان[1] مع ملك الالمان قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به يسمى الياس ، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق ، فركب حماره ، وعلق في عنقه صليباً وفي يديه صليبين ، وجمع القساوسة بين يديه بالصلبان ، وركب الملوك والرجالة بين يديه ، ولم يتخلف من الفرنج أحد الا من يحفظ الخيام وقال لهم القسّيس: قد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق ، ولا[2] يردني أحد ، [وقصدو البلد][3] ففتح المسلمون الابواب واستسلموا للموت ، وغاروا للاسلام ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكان يوماً لم ير في الجاهلية ولا في الاسلام مثله . وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس لعنه الله وهو في أول القوم فضربه . فأبان رأسه عن بدنه ، وقتل حماره ، فانهزم الفرنج لعنهم الله وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف ، وأحرقوا الصلبان وتبعوهم الى الخيام . وحال بينهم الليل ، فأصبحوا ولم يبق لهم أثر . وبعثوا يطلبون من معين الدين بانياس فقال : أنا وعدتُكم إن رحلتم ، وهذا فعلُ الله تعالى . فقالوا : نحنُ نعود الى دمشق ، ونقيمُ عليها ، ولا نرحل حتى نأخذَها . وكانوا قد أحرقوا الربوة ، وهدّوا الجواسق ، وقطعوا الاشجار ، ودرسوا ظاهرَ دمشق . فرأى معينُ الدين أن يفديَ دمشقَ ببانياس ، فأعطاهم إياها ،

---

(١) تجد الخبر التالي عن القسيس في المرآة ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) هكذا في ف وفي ص : لم .

(٣) زيادة من ف .

وبقيت في أيديهم حتى فتحها نورُ الدين محمود. وعاد سيف الدين غازي الى بلاده، واستبشر الناسُ بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشكر له تعالى عما أولاهم.

وذكر الحافظ أبو القاسم **ابن عساكر** رحمه الله تعالى في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤى في المنام، فقيل له: أين أنت؟ قال: في جناتِ عدن على سُرر متقابلين. وقبره الآن يُزار بمقابر الباب الصغير من ناحية حائط المصلّى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله. قاله **ابن الأثير** [1]. وفيها وردت الأخبار [2] في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين محمود صاحبها كان قد توجه الى ناحية الأعمال الافرنجية. [وقصد فامية وظفر بعدة من الحصون والمعاقل الافرنجية، وبعدة وافرة من الفرنج، وأن صاحبَ انطاكية جمع الفرنجَ وقصده على حين غفلة منه، فنال من عسكره وأثقاله، وانهزم (نور الدين) بنفسه وعسكره، وعاد الى حلب سالماً لم يفقد منه الا النفر القليل بعد قتل جماعة وافرة من الفرنج] [3].

وذكر **ابن أبي طي** [4] أن أسدَ الدين لما كان في نفسه على نور الدين لتقديم ابن الداية عليه، لم ينصحْ يومئذ [5]. فمرّ به نورُ الدين، فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا، فقال: ياخوند، ايش ننْفع نحن، انما ينفعُ مجدُ الدين أبو بكر، هو صاحب الامر — يعني ابن الداية — فاستدرك نورُ الدين ذلك، وطيّبَ قلبَ أسد الدين، وألزم مجدَ الدين أن يعرف

---

(١) راجع التاريخ الباهر ٨٩.

(٢) ورد هذا الخبر في الروضتين (ط ١٢٨٧، القاهرة) ١/٥٥ منقولا عن ابن الأثير. من الآن فصاعدا سيكون المقصود بالروضتين طبعة القاهرة هذه.

(٣) زيادة من ف، د.

(٤) راجع الروضتين (ط ١٢٨٧) ١/٥٥ والنص هنا منقول عن الروضتين.

(٥) في وقعة اخرى تعرف بوقعة يغرى. وتجد أخبارها في الكامل ١١/٥١.

لأسد الدين حقّه ، وأصلحَ بينهما . قال : وقُتل في هذه الكسرة شاهنشاه ابن أيوب أخو الملك الناصر صلاح الدين ، وهو والد عز الدين فرخشاه وتقي الدين عمر ،والست عذرا المنسوب اليها المدرسة العذراوية [داخل باب النصر بدمشق](١) وقبره [الآن](٢) بالتربة النجمية جوار المدراسة الحشامية (٣) بمقبرة العونية ظاهر دمشق .

وفيها أبطل نورُ الدين بحلب الآذان بحيّ على خير العمل والتظاهر بسبّ الصحابة . وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ، وساعدوه على ذلك جماعةٌ من أهل السنة والجماعة . وعظم ذلك على الطائفة الإسماعيلية وأهل التشيّع ، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ، ثم سكتوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذورة (٤) .

سنة ٥٤٤

فيها تحركت الفرنج (٥) من الساحل ليقصدوا بلادَ حلب ، فسار نورُ الدين بعساكره ، وجمع كثيرا من التركمان ، وكتب الى معين الدين يستنجده ، فبعث اليه الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين نائبَ مدينة صرخد في عساكر دمشق ، وجاءته عساكر أخيه سيف الدين . وسار الى أنطاكية ، فخرج اليه البرنس ، وكان بينهم وقعة عظيمة ، وكسرهم نور الدين ، وقتل منهم ألفاً وخمسمائة وأسر مثلها ، وقتل البرنس . وكان هذا اللّعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وصاحب بأس مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة ، فأراح الله البلاد وكفى العباد منه . وحمل رأسه الى نور الدين ، وعاد الى حلب

---

(١) زيادة من الروضتين .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) هكذا في ف والروضتين وفي ص : الجابية .

(٤) راجع الروضتين ١/٥٧ والخبر منقول عن ذيل تاريخ دمشق/٣٠١ .

(٥) هذا الخبر موجز لما أورده ذيل تاريخ دمشق/٣٠٤ والروضتين ١/٥٧ - ٥٨ .

بالغنائم العظيمة والأسارى، فبعث بعضَها الى أخيه وإلى الخليفة وإلى دمشق وذل دين الصليب ، وظهر من نور الدين في هذه الوقعة من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس .

وفيها فتح نورُ الدين محمود حصنَ فامية [1] . وكان على أهل حماة وحمص منه ضرر عظيم . وكانوا يشنون الغارات منه على البلاد . وكان بينه وبين حماة مرحلة واحدة، وهو حصنٌ منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها .

وفيها جاءت زلزلة عظيمة، وماجت بغداد نحو عشر مرات، وتقطع بحلوان جبل من الزلزلة ، وهلك عالم من التركمان .

وفيها مات خلقٌ كثير بالبرسام لا يتكلم المرضى به حتى يموتوا .

وفيها توفي سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل ، وكان عمره أربعا واربعين سنة [2] ، وكان من أحسن الناس صورة، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، وخلّف ولداً ذكراً أخذه عمه نورالدين محمود، فرباه وأحسن اليه، فلم تَطلْ أيامه ، ومات شاباً لم يعقل . وكان سيف الدين شجاعا كريما ذا عزم وحزم ، وهو أول من حمل على رأسه سنجق من الأتابكية أصحاب الأطراف ، فانه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية . وهو أول من أمر عسكره الا يركب أحدهم الا والسيف في وسطه ، فلما أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف ، ودفن بمدرسة الأتابكية التي بناها ووقفها على الحنفية والشافعية بالموصل ، وبنى بها أيضاً خانقاه .

---

(١) راجع خبر فامية في التاريخ الباهر ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) راجع خبر وفاة سيف الدين غازي في التايخ الباهر ٩٢ . ويقول ابن الأثير أن عمره كان نحو أربعين سنة ؛ راجع أيضاً الروضتين ١/٦٥ .

وتملـك بعد الموصل أخوه قطبُ الدين مودود[1] ، وتزوج أمرأة اخيه التي مات ولم يدخل بها – وهي ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين – فولدت لقطب الدين أولاده الذي ملكوا الموصل [بعده][2]. قال ابن الاثير[3]: وكانت هذه الخاتون يحل لها ان تضع خمـارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها وأجدادها واخوتها وبني ازواجها وأولادها وأولاد أولادها . ثم ذكرهم ابن لاثير في كتابه وسمّاهم ، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمةَ بنتَ عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز ، فإنه كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم من معاوية الى آخر خلفاء بني أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فإنه ابن عم ليس لها بمحرم ، والباقي محارم لها. قال صاحب الروضتين[4] وما تم لها ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية جدّ أمها ويزيد جدها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالُها ، ومروان جدُّها لأبيها ، وعبدُ الملك أبوها ، والوليد وهشام وسليمان ويزيد إخوتها . [وعمر بن عبد العزيز زوُجها ، والوليد بن يزيد ابن اخيها ، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد ابنا أخيها . وهؤلاء كلهم خلفاء ، وعدّتهم ثلاثـة عشر][5] . لكن عاتكةَ ليست أمها، بل أمها امرأة مخزومية، واختلّ ما ذكره. والصواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارَها عند عشرة من الخلفاء وهم : مروان بن الحـــكم ونسله سوى مروان محمد . [وأمـا عاتكةُ فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد][6] وبقي اثنا عشر خليفة : معاوية جدّها ، ويزيد أبوها ومعاوية بن يزيد أخوها ومروان [حموهـــا] ، وعبد الملـــك زوُجها ، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجهـــا ، ويزيد بن عبد الملك ابنهـــا ، والوليد بن يزيد ابن

---

(١) راجع خبر قطب الدين موود في الروضتين ٦٦/١ وهو منقول من ابن الأثير .

(٢) زيادة من ف .

(٣) وذلك في التاريخ الباهر /٩٤ ٩٥ .

(٤) راجع الروضتين ٦٦/١ ٦٧ .

(٥) النص بين المعقوفتين من الروضتين وكان مشوشا في ص .

(٦) زيادة من الروضتين .

ابنها ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها قال : وما ذكره ابن الأثير من أمر بنت حسام الدين ، فستُ الشام بنتُ أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من إخوتها الأربعة ، المعظّم ، وصلاح الدين ، والملك العادل ، وسيف الاسلام ، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقيّ الدين عمر وذريته أصحاب حماة ، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك . انتهى كلام **الروضتين** .

قال **ابن الاثير** : [1] ولما ملك قطبُ الدين الموصلَ والبلادَ الجزريةَ كان أخوه نور الدين بحلب وهو أكبر من قطب الدين . فكاتبوه [بعض][2] الأمراء وطلبوه اليهم ، [منهم المقدم والد شمس الدين بن المقدم وهو حينئذ دزدار سنجار][3] فسار نور الدين من حلب في سبعين فارساً من أكابر دولته ، منهم أسدُ الدين شيركوه ومجدُ الدين ابن الداية ، فسلم اليهم محمد بن المقدم سنجار . فلما سمع قطب الدين الخبر ، جمع عساكره وأرسلوا [4] إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له ، ويهددونه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً ان لم يرجع اختياراً ، فأعاد [الجواب][5] : إنني أنا الاكبر ، وأنا أحق أن أدبّر أمر أخي منكم ، وما جئت حتى كاتبني أمراؤكم يذكرون كرههم لكم ، فخفت أن يحملَهم بغضُهم لكم[6] على إخراج البلاد من أيدينا ، وأما تهددكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم ، ولهذا جئتكم

(١) راجع النص التالي مطولا فى الروضتين ٦٧/١ ، والتاريخ الباهر ٩٦ .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) زيادة من الروضتين .

(٤) كان مع قطب الدين جمال الدين الوزير وزين الدين علي أمير الجيش . راجع التاريخ الباهر ٩٦ والروضتين ٦٧/١ .

(٥) زيادة من التاريخ الباهر ٩٦ .

(٦) هكذا في ف وفي ص : بغضكم .

جريدة. وهرب اليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه يخامر عليهم باقي العسكر، فدخل الامراء في الصلح، وقال جمال الدين الوزير : نحن نظهر للسلطان والخليفة اننا تبع نور الدين محمود، ونور الدين يظهر للفرنج أنه تبع لنا، فمتى كاشفناه وحاربناه، فان ظفر بنا طمع فينا السلطان، وان ظفرنا به طمع فيه الفرنج، ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار [وهذه أنفع لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه. والراي ان نسلم اليه حمص ونأخذ منه سنجار][1]. وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته. فاتفق جماعة على هذا الرأي، وسار جمال الدين الوزير إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص، وسلّم سنجار إلى أخيه. وعاد نورُ الدين [إلى الشام][2] وأخذ ما كان بسنجار من الأموال، واتفقت كلمتهما[3] واتحدت آراؤهما[4] وكل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه.

وفيها[5] اتصل الخبرُ بنور الدين بإفساد الفرنج بالأعمال الحورانية بالنهب والسبي وأن الأرض أجدبت لانحباس المطر وترّحل الفلاحون. فجاء نور الدين بجيشه إلى بعلبك [ليوقع بالفرنج][6]، فاتفق عند وصوله إلى بعلبك نزول الغيث واستمر من يوم الثلاثاء إلى مثله، وجرتِ الأوديةُ وزادتِ الأنهار، وامتلأت برك حوران، فجهد الناس بالدعاء، وقالوا : هذا ببركته وحسن نيته وسيرته. ثم نزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر، وراسل مجير الدين صاحب دمشق والرئيس مؤيد الدين بن الصوفي يقول : إنني ما قصدتُ بنزولي هنا طلباً

---

(١) زيادة من ف ومن التاريخ الباهر.

(٢) زيادة من التاريخ الباهر ٩٧.

(٣) في ص والتاريخ الباهر : كلمتهم.

(٤) في ص والتاريخ الباهر : آراؤهم.

(٥) مصدر الخبر الثاني هو ذيل تاريخ دمشق ٣٠٨. على أن النص هنا مختصر.

(٦) زيادة من ف.

لمحاربتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية أهل حوران [والعربان] [١] بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسُبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله تعالى وله الحمد من الاقتدار[٢] على [٣] نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم[٤] مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعيّة ظلماً لهم وتعدياً عليهم ، وهذا ما لا يرضي الله ولا أحداً من المسلمين ، ولا بد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة . وكان الجواب : ليس بيننا وبينك إلا السيف . [وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا . فلما عاد الرسول بهذا الجواب] كثرَ تعجب نور الدين، وأنكر هذا وعزم على الزحف، فجاءت أمطار عظيمة منعته من ذلك .

وفيها مات صاحب مصر الحافظُ لدين الله بن أبي القاسم وقام بالأمر بعده ولده الظافر .

سنة ٥٤٥

في أولها[٥] تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق ، وسببه أن نورالدين أشفق من سفك دماء المسلمين ، فراسله مجير الدين ، ثم خرج اليه هو والرئيس

---

(١) زيادة من ذيل تاريخ دمشق ٣٠٩ .

(٢) هكذا في ذيل تاريخ دمشق وفي ص ، ف : الامتداد .

(٣) هكذا في ذيل تاريخ دمشق وفي ص ، ف : عن .

(٤) العبارة من « أن أقعد » الى « لهم » مختلفة عن عبارة ذيل تاريخ دمشق التي تقول : ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم .

(٥) وهو يوم الاثنين مستهل محرم . راجع ذيل تاريخ دمشق ٣٠٩ . والخبر التالي منقول من المرآة وهو مختصر للذيل .

ابن الصوفي ، وبذلا له الطاعة وأن يُخطب له بعد الخليفة والسلطان ، وينقش اسمه على الدينار والدّرهم ، فرضي وخلع على مجير الدين والرئيس ابن الصوفي وطيّب قلبيهما[1] . وخرج اليه الأمراء والاعيان فخلع عليهم ، وأفاض إحسانه على فقهاء دمشق وفقرائها ، ورحل الى حلب .

وفيها[2] وردتِ الاخبارُ بأن العرب خرجوا على الركب العراقي بين مكة والمدينة . وظهرت العرب على الحجاج ، وأخذوا منهم ما لا يحصى ، حتى انه أخذ من خاتون أخت السلطان مسعود ما قيمته مائة الف دينار . ومات معظم الناس جوعاً وعطشاً وبرداً ، وطلى بعضُ النساء أجسادَهن بالطّين ستراً للعورة . ووصل إلى دمشق من سلم منهم ، فحكوا ما نزل بهم من المصيبة ، وأنه كان من الحجاج من وجوه خراسان وعلمائهم ودواوين أمراء العساكر السلطانية والحرم والبنات والأموال والأمتعة الفاخرة ما لا يمكن وصفه ، وأن العربَ استولوا على الجميع ، فكسا أهلُ دمشق العراةَ منهم ، وأطلقوا لهم ما يستعينون به على العود إلى أوطانهم .

وفيها أمطرت باليمن مطراً كله دم ، فبقي أثره في الارض وفي ثياب الناس[3] .

قال **ابن الجوزي**[4] : وفيها أُسر جوسلين صاحب تل باشر واعزاز وعين تاب ومرعش وغيرها من الحصون شمالي حلب . وكان على المسلمين منه بلاء عظيم ، فجهز نورُ الدين سلحداره[5] اليه في جيش ، فظهر جوسلين عليهم وأسر

---

(١) في ص : قلوبهم .

(٢) راجع الخبر التالي في المرآة ٢٠٥ وفي الكامل ٥٦/١١ .

(٣) راجع الخبر بالتفصيل في التاريخ الباهر ١٠١ وما بعدها . أما في المرآة فهو سطران .

(٤) ورد خبر أسر جوسلين في الكامل والتاريخ الباهر في أحداث ٥٤٦ .

(٥) وهو السلاح دار او حامل سلاح السلطان او الأمير .

السلحدار . فعز ذلك على نور الدين ، فدس عليه جماعةً من التركمان وقال : من قدر منكم على جوسلين أعطيته من الاموال والبلاد مهما أراد . فجاءَتْ طائفةٌ منهم فنزلوا في أرض عين تاب ، فأغار عليهم جوسلين وأخذ منهم امرأة مليحة ، فخلا بها تحت شجرة ، فكمن له التركمان وأخذوه أسيراً وأحضروه إلى نور الدين محمود ، فأعطى الذي أسره عشرة آلاف دينار ، وأخذ نورُ الدين جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع والحصون وأمن الناس شرّه .

سنة ٥٤٦

في المحرم(١) عاد نور الدين إلى حصار دمشق، فنزل بعيون الفاسريا بين عذرا ودومة ، وأرسل إلى مجير الدين وجماعته يقول: قد كنت اتفقتُ معكم وحلفت لكم ، والآن فقد صح عندي أنكم ظاهرتم الفرنج ، وما قصدي إلا الجهاد ، فإن رجعتم عن الفرنج وأعطيتموني عساكركم لأجاهد في سبيل الله ، رجعتُ عنكم . فلم يردوا عليه جواباً . فرحل ونزل مسجد القدم ، وأحدقتْ عساكرهُ بالبلد وضايقته ، ولم يزحف خوفاً من سفك دماء المسلمين . ووصلت الاخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجير الدين ، فضاقت صدور أهل الصّلاح ، وزاد إنكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة ، ولم تزل المناوشات تعمل في كل يوم من غير مزاحفة ولا محاربة إلى الثالث عشر من صفر ، فرحل إلى داريا مستعداً لقتال الفرنج . فلما قربَ الفرنجُ من داريا أشار على نور الدين خواصه بالرحيل ، وقالوا : نبقى بين الفرنج وعسكر دمشق(٢) . فارتفع إلى الزبداني ، ووصل الفرنجُ داريا في جمع قليل ، وخرج مجيرُ الدين آبق ومؤيد الدين ابن الصوفي واجتمعا بملكهم ،

(١) راجع الخبر التالي مفصلاً في ذيل تاريخ دمشق ٣١٢ وما بعدها ؛ على أن النص التالي منقول عن المرآة ٢٠٩ وما بعدها مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٢) لا يذكر ابن القلانسي إشارة خواص نور الدين عليه بالرحيل . ومصدر الخبر المرآة ٢٠٩ .

فما صادفا عنده من القوة ما كانا يظنانه ، فاتفقوا على نزول الفرنـج على بصرى فإنها عصت على مجير الدين . ورحـــلوا إلى رأس الماء[1] ونزلوا على بصرى وضايقوها ، فلم يظفروا منها بطائل ، فعادوا إلى بلادهم ، وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرره لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق . وبلـغ نورَ الدين ذلك فعاد إلى دمشق ، وعرض عسكره بالبقاع وكانوا ثلاثين ألفاً بالتركمان والعرب وغيرهم ، فنزل أرض كوكبا ثم رحل فنزل جسر الخشب ، ثم رحل إلى مسجد القدم ، فنودي في دمشق في العسكر والاحداث بالخروج إلى قتاله ، فلم يخرج إلا اليسير . وأقام مدةً من غير قتال ولا زحف ، تردّدت ثم بينهم المراسلات على يد الفقيه برهان الدين البلخي وأسد الدين شيركوه وأخيه نجم الدين أيوب ، وتقارب الامر إلى تجديد عهود وأيمان وشروط اشترطها عليهم ، ثم رحل عنهم عاشِرَ شهر ربيع الآخر طالباً ناحيةَ بُصرى لأن واليَها عصى على المسلمين واعتضد بالفرنج ، فالتمس نور الدين من دمشق المناجيق وآلات الحصار ، وبعث ذلك مع قطعة من عسكره[2] .

وفيها قصد أكثر[3] الفرنج ناحيةً من البقـــاع على حين غفلة ، فنهبوا ما فيها من المواشي ، وسبوا النساء وأسروا الرجال ، فنهض اليهم عسكر من بعلبك فلحقهم ، وأرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم عن الوصول إلى بلادهم ، فقتلوا من الفرنج مقتلة عظيمة ، واستخلصوا الاسرى والمواشي .

وفيها ورد إلى مدينة سبتة مركب فيه جماعة من أسرى المسلمين وفيهم صبيان في جسدين أحدهمـــا ملتصق بالآخر ، وهما تامان في الخلقة سوى الفخذين والرجلين، فإنهما برجلين على فخذين يتكلمان العربية وقد تعلما شيئاً من القرآن، ذكرت الفرنج أنهم أصابوهما في بعض الجزائر او في بعض المراكب [ومعهما شيخ

---

(١) في ص : المأتم .

(٢) هكذا في ذيل تاريخ دمشق ٣١٦ ، وفي ص: وبعث ذلك مع قطعة من عسكره.

(٣) هكذا في ذيل تاريخ دمشق ، وفي ص : بعض .

كبير وهو والدهما، وأنه مات بصقلية][1] وكانا جميلي الصورة فصيحي العبارة. وتسامع النصارى بهما فكانوا يأتون اليهما لمشاهدة غرائب صنع الله ، ويحملان الى المواضع والناس يبرونهما . وحصل لهما بذلك نعم طائلة وافرة . قال **الكتبي** في **تاريخه** : كذا نقلته من **كتاب عطف الذيل** لشيخ الشيوخ ابن حموية . قال : ونظير هذا ما حكاه التنوخي في **كتاب نشوار المحاضرة** أن صاحب أرمينية بعث الى ناصر الدولة بن حمدان في سنة نيف وأربعين وثلثمائة رجلين ملتصقين من إحدى الجانبين من فوق الحقْو الى دون الإبط ، وكان أحدهما يمشي الى جنب الآخر ويجعل يده التي تلي جانب أخيه خلف ظهر أخيه ويمشيان وأنهما كانا يركبان دابة ببردعة ، وكان أحدهما إذا أراد البول قام الآخر معه . وكان معهما أبوهما ، فتعجب منهما ناصر الدولة ، وأجزل صلتَهما . وكانا يدخلان على الكبراء والاعيان في الليل حتى لا يراهما الناس نهاراً . وحصلت لهما نعمة وافرة . قال **التنوخي** : وبلغني ان أحدهما مرض ومات وبقي الآخر بعده في عقاب لم يستطع ان يحمله معه . ثم نتن عليه ومرض بسريان العفن اليه فمات . فدفنهما أبوهما ، وكان عمرهما أكثر من ثلاثين سنة .

وفيها ملك الفرنج [2] عسقلانَ لانهم ضايقوها ، وقـُتل من الفريقين خلق كثير ، وعجز من فيها فطلبوا الأمان فأمنوهم . وكان بها من الذخائر والعُدد والغِلال ما لا يحصى . وقيل إن أهلها كانوا في ضائقة يرتقبون النجدة من مصر ، فبينما هم في آخر نفس إذا بمركب صغير قد أقبل من مصر ، وإذا فيه رجلٌ ومعه كتاب من صاحب مصر إلى الوالي يقول له : ساعة وقوفك على هذا الكتاب تنفذ لنا من مقصبة عسقلان باقة قصب غلاظ نجعلها شبابات ، فقال للرسول : نعم إلى غد . ثم خرج في الليل إلى الفرنج ، وأخذ أماناً لأهل البلد .

---

(١) زيادة من ف .

(٢) أورد ابن القلانسي خبر سقوط عسقلان في أحداث سنة ٥٤٧ ، وأورد صاحب الروضتين الخبر في أحداث ٥٤٨ . وعاد صاحب المخطوط فأورد خبر سقوطها في سنة ٥٤٨ . والخبر هنا منقول عن المرآة ٥٤٨ .

فلما طلع الفجر فتح الأبواب ودخل الفرنج البلد. فأحضر القاصد بالكتاب وقال له : هذا هو الجواب .

سنة ٥٤٧

فيها توفي السلطان مسعود[١] بن محمد بن ملكشاه ولم يرَ أحد من الملوك والسلاطين ما رأى . وكانت أيامه نيفاً وثلاثين سنة . وذكر [الوزير يحيى][٢] ابن هبيرة في **كتاب الافصاح** ، قال : لما تطاول على المقتفي أصحابُ السلطان مسعود وأساءوا الأدبَ ولم يمكنه المجاهرة بالمحاربة ، اتفق الرأيُ على الدعاء عليه شهراً [كما دعا النبيُّ ﷺ على رعل وذكوان شهراً][٣] وابتدأ هو والخليفة سراً[٤] كل واحد في موضعه يدعو سحراً من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى ، واستمر الأمر على ذلك كل ليلة ، فلما كمل الشهر مات مسعود على سريره لم يزد علي الشهر يوماً ولا نقص يوماً ، فتبارك الله رب العالمين مجيب دعوة الداعين.

ولما مات أَجمع رأيُ الأمراء على تقرير ملكشاه بن محمود ابن أخي مسعود فأجلسوه ، واستمر ثلاثة أشهر ، وقيل خمسة أشهر . وكان مقدم العساكر خاص بك فعنّ له أن يقبض على ملكشاه وينفرد بالملك ، فقال لملكشاه : إني أريد الملكَ لك من غير منازع ، وأخوك ينازعكَ والمصلحةُ ان أقبض عليك ، وأكتب إلى أخيك ، فإذا وصلَ قبضتُ عليه وسلّمته اليك ، فقال :

---

(١) في ص : محمود . راجع الروضتين ١ / ٨٩ .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) زيادة من ف . يشير بهذا إلى دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين غدروا بالمسلمين في بئر معونة ، قال (اللهم اشدد وطأتك على مضر . اللهم عليك ببني لحيان وزغب ورعل وذكوان وعصية فإنهم عصوا الله ورسوله) راجع إمتاع الأسماع للمقريزي ١٧٢ – ١٧٣ .

(٤) زيادة من الروضتين .

افعل . فقبض عليه وكتب إلى محمد وهو بخوزستان يدعوه إلى السلطنة ، فجاء الى همذان فجلس على التخت ، ودخل الناس يهنئونه ويخاطبونه في أشيـاء ، فقال : ما لي في هذا الأمر شيء ، كلامكم مع خاص بـك ، فهو الوالد والكل تحت يده. وقدم له خاص بك من المال والخيل والمماليك والجواهر شيئاً كثيراً. وأقام بهمذان أياماً . وبلغه ما في نفس الأمير خـاص بك من التدبير عليه[1] ، فدعاه هو وزنكي الجندار وشملة التركماني وهو في أعلى قصر المملكة ، فلمـا صعدوا درجَ القصر أحس شملة بالشر ، فقال لخاص بك : ارجع فما هذا علامة خير ، فلم يرجع . فلما حصلوا في بعض مضائق القصر أخذتهم السيوف . فقتل خاص بـك وزنكي الجندار وهرب شملة ، ورموا برأسيهما وأكلت الكلاب لحومهما ، واستولى محمد على أموالهما ومماليكهما . وكان ممـا أخذ من خاص بك ألف ألف دينار ، وسبعون ألف ثوب من الأطلس ، وثلثمائة مملوك ، وخمسمائة جارية ، ومن النجائب[2] والبغال والأثاث والخيم ما لا يوصف ولا يحد . ومـع هذا جبوا له من العسكر كفناً كفنوا به باقي جثته[3] .

وفيها[4] فتح نور الدين انطرسوس عنوة وطلبوا منه الامان على النفوس فأمنهم. وملك عدة من الحصون منها المرقب ، وكان على الناس منه ضرر عظيم .

وفيهـا باض ديك بيضة واحدة ، وبازي بيضتين ، وباضت نعامة بغير ذكر . [حكاه **ابن الجوزي**][5] .

---

(١) هكذا في ف ، وفي ص ، من المكر .

(٢) في ص : النجابي .

(٣) خبر مقتل خاص بك هنا أكثر تفصيلا من رواية الر"وضتين المنقولة عن ابن الأثير في الكامل ١١ / ٦٠ - ٦١ .

(٤) راجع المرآة ٢١٣ وذيل تاريخ دمشق ٣١٨ .

(٥) راجع المرآة ٢١٢ ، والخبر عن المنتظم . الزيادة من س .

سنة ٥٤٨

فيها خرجت الغز[١] على أهل خراسان ، وهم تركمان ما وراء النهر نحو مائة الف خركاه . فلما ملك الخطا ما وراء النهر ، طردوا عنها هؤلاء الغز فنزلوا بنواحي بلخ على مراعيها ، وهؤلاء يدينون بالإسلام في الجملة ، ويفعلون فعل التتار . فجهز اليهم سنجر العساكر مع الامير قماج ، فكسروه وقتلوا ولده ، وغنموا ما كان معه وأكثروا القتل في العسكر والرعايا ، وأسروا النساءَ والاطفال ، وقتلوا الفقهاء ، وعملوا العظائم ، وخرّبوا المدارس ، وهرب قماج الى مرو . وأرسل السلطان سنجر يتهددهم ، فأرسلوا جماعة من شيوخهم الى سنجر ، وقالوا : قد بغيْتَ علينا ونصرنا الله عليك ، وللبغي مصرعه ، ونسألك إهدار ما جرى ونكون في خدمتك وتحت طاعتك ، ولا نريد منك شيئاً ، بل نجعل لك علينا جعلا في كل سنةٍ خمسينَ ألف رأس من الخيل والنجائب ومثلها من الغنم ومائة ألف دينار . فأشار عليه أعيان أهل مملكته بالصلح ، وأشار عليه قماج بأن لا يصالح ، فمال إلى قول قماج وردّ الشيوخ خائبين ، فعادوا إلى أصحابهم وقالوا لهم : استعدوا فلا بد من قصدكم ، فجاؤا إلى صحراء واسعة كالحلقة الدائرة ، والجبال محدقة بها ، وليس لها طريق إلا من مضيق واحد ، فنصبوا خركا واتهم فيها ، وجعلوا الأموالَ والمواشي حولها كالسور . وجاءهم [سنجر][٢] بعساكره ، فدخل من ذلك المضيق ونشب القتال ، وكانت سهام عسكر سنجر تقع في الخركاوات ، وسهام الغز لا تقع إلا في الفرسان . وكان سنجر قد وقف عند المضيق في جماعة من أصحابه ، ولم يدخل ينتظر الدائرة على من تكون ، فحمل الغزُ حملةً فطرحوا المسلمين مثل الغنم ، وقتل قماج ومعظم عسكر سنجر ، وصار قتلى العسكر كالتلال ، وهرب من بقي إلى ناحية المضيق ، فلحقوهم الغز فأفنوهم من قبل وصولهم إلى المضيق . وخرج الغز إلى المضيق وسنجر واقف في بقايا

---

(١) راجع بشأن خروج الغز الكامل ٦٦/١١ وما بعدها، وتاريخ أبي الفداء ٢٨/٣ .

(٢) زيادة من ف .

عسكره ، فتقدم اليه كبراؤهم وترجلوا وقبلوا الأرض ، وقالوا : سألناك الصلح فأبيت ، وأنت سلطاننا ، وقد قتل بعض عبيدك وبقي البعض يشيرون إلى أنفسهم ، ثم أفردوه عن أصحابه وصاروا كأنهم في خدمته وهو معهم مثـــل الأسير يجلسونه على السرير لا غير ، وتفرق عنه عسكره ، وجـــاؤا به إلى خراسان فنزلوا بلخ ، واستولوا على البلاد ، وأظهروا الفساد ، وقتـلوا الكبار والصغار وأحرقوا ، وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها . وظهر من جورهم ما لم يسمع ، ويتعذر وصف ما جرى منهم على تلك البلاد ، ولم يسلم منهم شيء سوى هراة ودهستان[1] فامتنعت لحصانتها ، كل هـذا وسنجر معهم لا يملك لنفسه نـَفْعاً ولا ضراً . ثم عملوا له قفصاً من حديد وجعلوه فيه . وكانوا إذا جاؤا له بطعام يدّخر منه إلى وقت ينسونه فيه . كذا ذكره الكتبي في **تاريخه** .

وقال الشيخ عماد الدين بن **كثير**[2] : إنهم أسروا سنجر ، فـــأقام عندهم شهرين ، ثم أخـــذوه وساروا بـــه فدخلوا كرسيّ مملكة خراسان ، فسأله بعضهم[3] أن يجعلها له إقطاعاً ، فقال سنجر : هذا لا يمكن ، هذه كرسيّ المملكة . فضحكوا منه وصفوا له ، فنزل عن سرير الملك ودخـل خانقاه ، وصار فقيراً من جملة أهلها ، وتاب عن الملك ، واستحوذ أولئـك الأتراك على البلاد ، وأظهروا فيها الفساد ، وأقاموا سليمان شاه ملكاً ، ثم عزلوه وولوا ابنَ أخت سنجر الخاقان محمود بن محمد بن كوخان ، وتفرقت الأمور ، واستحوذ كل انسان منهم على ناحية من تلك الممالك ، وصارت الدولة دُولاً . فسبحان من يُعز ويُذل .

---

(١) في ص : جرهستا .

(٢) راجع البداية والنهاية ١٢/٢٣٠ - ٢٣١ .

(٣) كان الذي سألهم هو بختيار .

وفيها كان الغلاء بدمشق ، وبلغت الغرارة خمسة وعشرين دينـــاراً ، ومات الفقراء على الطرق .

وفيها أخذت[1] الفرنج خذلهم الله تعالى عسقلان. ولما ان نازلوها خرج المسلمون اليهم وقاتلوهم، فطردوهم فأيسوا من أخذها وعزموا على الرحيل عنها، فأتاهم الخبر ان أهل البلاد قد اختلفوا ، وذلك لأنهم لما قهروا الفرنج داخلهم العجبُ وادعى كل طائفة أن النصرة على يده ، ووقع بينهم خصام على ذلك حتى قتـل بينهم رجل فعظمت الفتنة ، وتحاربوا فقـُتل بينهم جماعة ، ورجعت الفرنج في الحال، فلم يكن على السور من يمنعهم فملكوا البلد . فإنا لله وإنا اليه راجعون وبقيت في أيديهم إلى ان فتحها صلاح الدين يوسف [سنة ثلاث وثمانين][2] .

سنة ٥٤٩

فيها[3] ملك نور الدين دمشق . وسببه ان الفرنج لما ملكوا في السنة الخالية عسقلان ، قوي أمرهم بملكها حتى طمعوا في أخذ دمشق ، واستضعفوا مجيرَ الدين ، وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا من القتل بها والسبي . ثم زاد الأمر إلى ان جعل الفرنج على أهلِ دمشق قطيعةً كل سنة ، وكان رسولُهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد. ثم إن طمع الفرنج تزايد حتى أرسلوا واستعرضوا[4] العبيدَ والإماء الذين نهبوا من سائر البلاد الشاميّة ، وخيّروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطـانهم ، فمن أحبَّ المقام تركوه ، ومن أحبَّ العود

(١) راجع الخبر مطولاً في الروضتـين ١/٨٩ – ٩٠ .

(٢) زيادة من الروضتـين .

(٣) راجع الخبر في التاريخ البـاهر ١٠٦ – ١٠٧ وذيل تاريخ دمشق ٣٢٧-٣٢٩ . ومما دعا نور الدين الى فتح دمشق هو أن هذه المدينة كانت تعترض طريقه الى الفرنج .

(٤) هكذا في التاريخ البـاهر وفي ص ، ف : استعرضوا .

إلى وطنه ردّوه إليه. وكان الأمراءُ وأعيان الدولة يرسلون لنور الدين يقولون: الغياثَ الغياث، ويقولون: إنْ شئتَ حصرناه في القلعة، فرأى نور الدين أخذَه بالملاطفة خوفاً من إعطائه البلاد للفرنج، فعدل إلى ملاطفته ومكاتبته ومهاداته، فأنس به، وصار يكاتبه ويستشيره. وكان يكتب اليه نور الدين أن فلاناً من الأمراء يكاتبني في كذا وكذا، فيقبض عليه مجير الدين، ولم يزل يكاتبه في الأمراء والأعيان حتى لم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ السلمي الخادم. وكان شهماً شجاعاً، وقد ردّ مجيرُ الدين اليه أمر دولته. فكتب نورُ الدين إلى مجير الدين يقول: قد نفّر عنك عطاء قلوبَ الرعية، فاقبض عليه، لعلم نور الدين أنه لا يتم له أمر في دمشق مع وجود عطاء. فقبض عليه مجيرُ الدين وأمر بقتله، فقال له عطاء: لا تقتلني، فان الحيلةَ قد تمّتْ عليك، وذهب مُلكك، وسترى قولي. ولم يلتفتْ اليه. فحينئذ طمع نور الدين في دمشق، وراسل أحداثَها وأعيانها، فأطاعوه، فسار اليهم ونزل إليها.

وكتب مجير الدين الى الفرنج يستنجدهم، وبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة. وبلغ نورَ الدين ذلك، فزحف على دمشق، وظهر له العسكر من دمشق، ووقع الطّراد بينهم أياماً، فلما كان يوم الأحد عاشر صفر، زحف إليهم ودفعهم إلى باب كيسان، ولم يكن على السور أحد [من العسكر] [١] لسوء تدبير مجير الدين. وجاء واحد من رجال نور الدين إلى السور وعليه امرأة يهودية، فدلّتْ له حبلاً فتسلق فيه، وتبعه الرجال، وأصعدوا علماً، وصاحوا: نور الدين يا منصور، فامتنع الأجناد والرعية عن القتال والممانعة لِما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه وعسفه ومحبتهم لنور الدين. وبادر بعضُ الخشّابين بفأس الى الباب الشرقي، فكسر أغلاقه وفتحه، فدخل منه العسكر، فلم يقف بين أيديهم [أحد] [١]. ودخل نورُ الدين البلد، وصعد مجير الدين إلى القلعة ومعه خواصه، وأغلق أبوابها. فأرسل اليه نورُ الدين وطيّب

---

(١) زيادة من ف ومن ذيل تاريخ دمشق ٣٢٧.

قلبـه ، وأمنـه على نفسه ، ونادى بأمان أهل البـلد على نفوسهم وأموالهم . وتقرر الأمر بين مجير الدين ونور الدين على حمص ، وكتب له منشوراً [بها . وأخرج مجيرُ الدين ما كان له في دوره بالقلعـة والخزائن من الأموال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دارِ جده ، وأقام أيامـاً ، ثم سار إلى حمص بعد ان كتب له منشوراً][1]باقطاعه عدة ضياع بأعمال حمص برسمه ورسم جنده . ثم أحضر نور الدين [في] غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضـاة والفقهاء والتجار ، وخوطبوا بمـا زاد في إيناسهم وسرورهم [وحسن النظر اليهم] بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم ، فأكثروا الدعاء له والثناء عليه .

قال **ابن الاثير** : ولما استقرّ نورُ الدين في البلد ، عمل مع أهله مكرمة عظيمة وأظهر فيهم عدلاً عاماً ، وذكر بعضَ ما قدمناه في أول الكتاب . وأقام مجيرُ الدين بحمص . ثم كانت أحداثُ دمشق في إثارة الفتنة[2] ، فبلـغ نور الدين ذلك ، فأعطاه بالسَ بدلَ حمص لبعده عن دمشق ، فلم يرضَ بها ، ومضى الى بغدادَ وبنى له داراً قبالة النظامية ، وأقام بها الى ان مات .

وفيها ظهر بنواحي واسط دم من الأرض لا يعلم له سبب .

وفيها هاجت ريح شديدة بعد العشاء فيها نار ، فخاف الناس ان تكون الساعة ، وزلزلت بغداد ، وتغيّر ماء دجلة الى الُحمرة .

وفيها قتل بمصر[3] خليفتها الظافر بالله العبيدي ، وأقاموا ولده مكانه ولقبوه بالفائز ، وكان صغيراً لم يبلغ الخامسة . فكتب المقتفي[4] لأمر الله عهداً لنور

---

(١) زيادة من ف .

(٢) يذكر ابن الأثير أنّ مجير الدين « راسل أهل دمشق في إثارة الفتنة » .

(٣) راجع قصة مقتل الظافر في الكامل ٧٢/١١ والروضتين ٩٧/١ - ٩٩ واتعاظ الحنفا ، الملحق السادس ٣٢٤ - ٣٢٧ .

(٤) راجع بشأن كتاب المقتفي لنور الدين البداية والنهاية ٢٣١/١٢ .

الدين بولاية مصر [وبلاد الشام] [1] ، ولقبه بالملك العادل ، وأمره بالمسير اليها ، فلم يتيسر له ذلك لاشتغاله بحرب الفرنج ، وقرب عهده بأخذ دمشق .

وفيها[2] ثارت الإسماعيلية ، واجتمعوا في سبعة آلاف مقاتل من بين فارس وراجل وقصدوا خراسان ، ووقع المصاف ، فهزم اللهُ الاسماعيلية ، وقُتل رؤوسُهم وأعيانهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وخلت قِلاعُهم من الحماة ، ولولا ان عسكر خراسان كانوا مشغولين لملكوا حصونهم وقلاَعهم واستأصلوا شأفتهم .

سنة ٥٥٠

فيها تسلم نور الدين بعلبك[3] وكانت بيد نجم الدين أيوب. وكانت قلعتُها بيد رجل يقال له الضحّاك البقاعي ، وأحضر نجم الدين الى دمشق [وأقطعه إقطاعاً حسناً،وجعل ابنَه توران شاه شِحنة دمشق][4] ثم من بعده جعل أخاه صلاح الدين هو الشحنة بها ، وجعله من خوّاصه لا يفارقه حضراً ولا سفراً ، لأنه كان حسن الشكل ، حسن اللعب بالكرة ، وفي شحنكية صلاح الدين يقول عرقلة الشاعر :

رويدكم يا لصوصَ الشام فإني ناصح في مقالي
فإياكم وسمي النبي يوسف رب الحجى والكمالِ[5]
فذاك مقطّع أيدي النساء وهذا مقطّع أيدي الرجالِ

---

(١) زيادة من البداية والنهاية .

(٢) راجع الخبر مطولاً في الكامل ١١/٧٥ .

(٣) راجع ذيل تاريخ دمشق ٣٣١ ، والروضتين ١/٩٩ ويورد ابن الاثير في الكامل هذا الخبر في حوادث سنة ٥٥٢ .

(٤) زيادة من ف .

(٥) في الروضتين : والحجال .

وفيها[1] أرسل أمير المؤمنين المقتفي الى أمير الحرمين [الشريفين قاسم بن هاشم][2] يأمره ان يُركّب على باب الكعبة المشرفة بابَ ساج جديداً قد ألبس جميع خشبه فضة مطلي بذهب ، وان يأخذَ أميرُ الحرمين حِلية الباب القديم لنفسه ، ويسيّر اليه خشبَ الباب القديم مجرداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته . قال **أبو شامة** : ذكر ذلك الفقيهُ عمارة الشاعر [وقال] : سألني أمير الحرمين ان أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم .

وفيها[3] قُتل أحمد بن محمد الحويزي . كان عاملاً للمقتفي على نهر الملك ، وكان أظلم العالم يعلّق الرجال بأرجلهم والنساء بثديهن في السرادقة ، ويعاقبهم بين يديه [ويتنمس بالدين ، والسجادة الزرقاء تحته والسبحة بيده][4] وهو يسبح ويقرأ القرآن ، والناس يُعذّبون بين يديه ، ويومئ الى الجلاد الرأس والوجه[5] . وكان يدعي الكرامات . دخل الحمام يوماً بقرية في نهر الملك . فدخل عليه ثلاثة فضربوه بالسيوف وقطعوه ، فحمل الى بغداد ، فمات ودفن في مقبرة جامع المنصور ، وحفظ قبره لئلا ينبش ، فأصبح وقد خسف بقبره . [فاجتمعت العامة على سبّه ولعنه][6] وأظهر الله فيه عظيم قدرته .

---

(١) الخبر التالي منقول عن الروضتين ١/١٠٠ .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) راجع هذا الخبر في المرآة ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٤) زيادة من ف .

(٥) في المرآة : ويومىء الى الجلادة والوجه والرأس .

(٦) زيادة من ف .

فيها[١] حاصر نورُ الدين قلعةَ حارم ، وهي حصن غربي حلب بالقرب من انطاكية ، وضيّق على أهلها ، وهي من أمنع الحصون وأحصنها ، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد ، وساروا نحوه . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون الى رأيه ، فأرسلَ اليهم يعرفهم قوتَهم وانهم قادرون على حفظ الحصن والذبِّ عنه بما عندهم من العَدد والعُدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللغط ، وقال لهم : ان لقيتموه هزمكم وأخذ حارم ، وان حفظتم أنفسكم [منه] [٢] أطقنا الامتناع عليه ، ففعلوا ما أشار به عليهم ، وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصةً من أعمال حارم ، فأبى ان يُجيبهم إلا على مناصفة الولاية ، فأجابوه الى ذلك ، فصالحهم وعاد .

وفيها[٣] خلص سنجر من أسر الغز بحيل وهرب الى قلعة ترمذ بعد ان أقام عند الغُزّ أربعَ سنين في الذل والهوان ، حتى ضرب به أهل بغداد الأمثال . وكان إذا مرّ على الانسان شدائد قالوا : أما اشتفى الغز من سنجر ! وقيل انه وعد الموكّلين به بالمال العظيم ، فأجابوه ووفى لهم ، ودخل مدينةَ مرو وقد زال عنه البؤس .

---

(١) راجع حصار حارم في التاريخ الباهر ١٠٩ — ١١٠ . والخبر هنا مختصر بعض الشيء .

(٢) زيادة من التاريخ الباهر ١٠٩ .

(٣) راجع المرآة ٢٢٧ والكامل ١١/٧٩ .

وورد[1] على نور الدين كتابُ سنجر بالتشويق اليه [والإحماد لخلاله] [2] وما ينتهي اليه من جميل أفعاله ، وإعلامه بما منّ الله عليه من خلاصه من الشدة التي كانت عليه بيد الغز بحيلة دبّرها ، بحيثُ عاد الى منصبه من السلطنة ، ووعده بنصره على الفرنج . فأمر[3] نورُ الدين بزينة دمشق ، وفعل في ذلك ما لم تجر به عادة فيما تقدم في أيام ملوكها ، وأمر بزينة القلعة ، فَتحلّيت أسوارُها بالجواشن والدروع والتروس والسيوف والأعلام وأنواع الملاهي ،وهرع الخلائق والغرباء لمشاهدة ذلك فأعجبهم ، وبقي أسبوعاً .

وفيها جاءت الأخبار بإغارة الفرنج على أعمال حمص وحماة . ثم [4] سارت الفرنج في سبعمائة فارس سوى الرجالة الى ناحية بانياس ، فوقع عليهم عسكر الإسلام ونزل النصر ، فلم ينج من الملاعين إلا القليل . وصاروا بين أسير وجريح وقتيل . وجاءت الرؤوس والأسارى ، فكان يوماً مشهوداً . ثم تهيأ نور الدين للجهاد ، وجاءته الأمداد ، ونودي في البلد بالتأهب والحثّ على الجهاد ، فتبعه خلقٌ كثير من الفقهاء والصلحاء . ونازل بانياسَ ، وجدّ في حصارها ، فافتتحها بالسيف . وجاء الفرنج لنصرة صاحب بانياس فلم يدركوه إلا وقد أخذت . وبلغ نور الدين أن الفرنج على الملّاحة بقرب طبرية ، فنهضَ بجيوشه وجدّ في السير حتى أدركهم وواقعهم وكسرهم ، ووقع القتلُ والأسر في الكفر . قال أبو يعلى[5] : ولم يُفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر قيل ان ملكهم فيهم ، وقيل قُتل ، ولم يُفقد من المسلمين من الأجناد سوى رجلين أحدهما من الأبطال قتل أربعة ثم قتل رحمه الله . وجيء

---

(١) راجع الروضتين ١١٤ وذيل تاريخ دمشق ٣٣٨ . والنص هنا مختصر .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) للاستزادة عن باقي الخبر راجع ذيل تاريخ دمشق ٣٣٨ .

(٤) راجع الخبر مطولاً في ذيل تاريخ دمشق / ٣٣٨ - ٣٣٩ في أحداث عام ٥٥٢ .

(٥) في المرجع السابق .

بالرؤوس والأسرى الى دمشق فالخيالة على الجمال ، والمقدمون على الخيل [بالزرديات والخوذ ، في أيديهم أعلامهم وفرح المؤمنون] [1] وضجّ الخلق بالدعاء لنور الدين .

سنة ٥٥٢

كان فيها وفي السنة التي قبلها زلازل [2] عظيمة متوالية بالشام وحلب وحماة وشيزر وفامية وكفر طاب والمعرة وانطاكية ودمشق وحصن الأكراد وطرابلس ، فهلك بحلب تحت الردم خمسائة ألف نفس ، وأما حماة فهلكت جميعُها إلا اليسير ، وأما كفرطاب فما سلم منها أحد ، وأما فامية فهلكت وساخت قلعتها ، وأما تل عزاز فإنه انقسم نصفين وظهر في وسطه نواويس وبيوتٌ كثيرة ، وأما حصنُ الأكراد وعرقا فهلكا جميعاً ، وسلم من اللاذقية نفر يسير ، وهلك أكثرُ أهل طرابلس ونصفُ أهل انطاكية [3] ، كذا ذكره **ابن الجوزي** . قال **الذهبي** : والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك وتحقيق تفاصيله . وقال غيره [4] : إنه وقع أبراج قلعة حلب وغيرها ، وانشق تل حران [5] نصفين ، وظهر فيه صنم قائم في الماء . وخربت صيدا وبيروت [وطرابلس] [6] وعكا وصور وجميعُ قلاع الفرنج .

---

(١) زيادة من ف .

(٢) راجع أخبار الزلازل في المرآة ٢٢٨ - ٢٢٩ وفي ذيل تاريخ دمشق ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٣) يقول ابن القلانسي : (لكن وردت الأخبارُ من ناحية حلب بكثرة ذلك « الزلازل » فيها وانهدام بعض مساكنها إلا شيزر فان الكثير من مساكنها انهدم على سكانها بحيث قتل منهم العددُ الكثير . وأما كفر طاب فهرب أهلُها منها خوفاً على أرواحهم ، وأما حماة فكانت كذلك ، وأما باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة) .

(٤) صاحب المرآة ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٥) في المرآة : تل جيرون .

(٦) زيادة من المرآة .

قال **ابن الاثير**[١]: بلغني من كثـرة الهلكى أن بعضَ المعلمين بحماة فارق مكتبه لمهم له ، فجاءت الزلزلة ُ فأخربت الدور ، وسقط المكتب على الصّبيان جميعهم . قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب . قـال : وأما أَهل دمشق[٢]، فإنها توالت عليهم الزلازلُ في أيام وعدّدها ، فارتاع الناسُ من هولهـا ، وأخلوا منازلَهم والمسقف ، وخرجوا الى الجـامع والبساتين والصحاري ، وأقاموا عـدة أيام وليالي على الخوف والجزع يسبّحون ويهللون ويرغبون الى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم. قال صاحب **المرآة**[٣]: ومات هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف انسان . نسأل الله العافيةَ في العاقبة ، وقد قيل في ذلك أشعار كثيرة منها[٤] :

روعتنا زلازل حادثات ... بقضاء قضاه ربُّ السماءِ

هدمت[٥] حصنَ شيرز وحماة ... أهلكت أهلـه بسؤ القضاءِ

وبلاداً كثيرة وحصونا ... وثغورا موثقات البنـاءِ

فاذا مـا رنَتْ عيونٌ اليها ... أجرت الدمعَ عندها بالدماءِ

واذا ما قضى الله بأمر ... سابق في عباده بالمضاءِ

حار قلب اللبيب فيه ومن كان له فطنةٌ وحسن ذكاءِ

وتراه مسجى باكيَ العين ... مروعا من سخطة وبلاءِ

جل ربي في ملكه وتعالى ... عن مقال الجُهّال والسفهاءِ

---

(١) راجع التاريخ الباهر ١١٠ .

(٢) ورد الخبر التـالي عن دمشق في ذيل تاريخ دمشق ٣٤٥ .

(٣) لم أجد هذا الخبر في المرآة .

(٤) راجع الابيات التـالية في ذيل تاريخ دمشق ٣٤٤ .

(٥) هكذا في ف وفي ص : هلكت .

وفيها[1] أخذ نورُ الدين شيزر من بني منقذ، وبعدما ملكوها مائة وعشرين سنة ، وسلمها الى مجد الدين بن الداية . وشيزر حصن قريب من مدينة حماة على [نحو][2] نصف نهار منها ، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال ، له طريق منقور في طرف الجبـل ، وقد قطع الطريق في وسطه، وجعل عليه جسر من خشب ، فاذا قطـع ذلك الجسر تعذر الصعود اليه [وكان لآل منقذ الكنانيين][3] . فلما حصلت الزلزلةُ وخَربت القلعةُ ولم يسلم بهـا أحـد ، بادر نورُ الدين وملَـكها وعمّرها وأصلحَ أسوارَها وأعادها كأن لم تخرب . وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت .

وفيها[4] حصل لنور الدين مرض حاد وكان بالقرب من انطاكية ، فتوّجه في محفّة الى حلب وحصل في قلعتها ، وأوصى ان يكون أخوه نصرةُ الدين هو القائم في منصبه بعده ، ويكون مقيماً في حلب ، ويكون أسدُ الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين . ثم اشتد بـه المرض ، وتواصلت الأراجيفُ بموتـه ، فتقلقلت النفوس ، وانزعجت القلوب ، وتفرقت جموعُ المسلمين ، واضطربت الأعمال ، وطمع الفرنج [فقصدوا مدينة شيزر][5] وهاجموها ، فقتلوا وأسروا ونهبوا . ثم شاعتِ الأخبار ، وانتشرت البشائر في الأقطار بعافية نور الدين ، فأنِستِ القلوب بعد الاستيحاش ، وابتهجت النفوسُ بعد القلق والانزعاج ، وتباشر المسلمون بذلك وشكروا الله تعالى .

---

(١) راجـع التاريخ البـاهر ١١٠ وما بعدها .
(٢) زيادة من المرجع السـابق .
(٣) زيادة من المرجع السـابق .
(٤) راجـع ذيـل تاريخ دمشق ٣٤٩ والروضتين ١ / ١٠٩ .
(٥) زيادة من ذيـل تاريخ دمشق .

وفيها [1] خرجت الإسماعيلية على حجاج خراسان ، فقتلوا وسبوا ، واستباحوا الركب ، وهلكوا عن آخرهم رحمهم الله .

وفيها كان بخراسان غلاء شديد حتى أكلوا الحشرات . وذبح انسان منهم [بنيسابور] [2] رجلاً علوياً وطبخه وباعه في السوق ، فحين ظهر عليه [أنه فعل ذلك] [3] قتل نفسه .

وفيها أخذ المسلمون من الفرنج غزة وبانياس .

وفيها توفي السلطان [4] سنجر ابن ملك شاه ، واسمه أحمد [وإنما لقب سنجر] [5] لأنه ولد بسنجار . وكان عادلاً ، جلس على سرير الملك إحدى وأربعين سنة مستقلاً [6] ، وناب عن أخيه محمد اثنتين وعشرين سنة . قيل انه خلّف من الجوهر ألف رطل وثلاثين رطلاً . قال الذهبي : وهذا لم يملكه خليفة ولاملك. قال: وكان وقوراً مهاباًذا حياء وكرم وشفقةعلىالرعية ، وخطب له على عامة منابر الإسلام ، وأسره الغُزُّ أربع سنين ، ثم خلص فتجمع اليه أطرافُه بمرو ، وكاد ملكه يرجع اليه ، فأدركته المنية .

قال أبو سعد [بن] [7] السمعاني : دخلتُ عليه في مرض موته مع جماعة من العلماء والمحدثين ، فصافحنا بكلتا يديه وسأل الدعاء ، وكان كلامه بالفارسية ما يفي هـذا بذاك ، وبكى وبكينا لبكائه . وانقطع بموت سنجر المملكة

---

(١) للاستزادة راجع الكامل ١١ / ٨٤ – ٨٥ .
(٢) زيادة من الكامل ١١ / ٨٦ .
(٣) زيادة من المرجع السابق .
(٤) راجع الكامل ١١ / ٨٣ – ٨٤ والبداية والنهاية ١٢/ ٢٣٧ .
(٥) زيادة من ف والعبارة فيها (وإنما سُمّى) فجملناها (وإنما لقب) .
(٦) أي مستقلا بالملك .
(٧) زيادة من ف .

السلجوقية من خراسان ، واستولى على أكثر ممالكه السلطان خوارزم شاه . ودفن سنجر في قُبّة عظيمة كان قد سماها دار الآخرة .

[سنة ٥٥٣ [1]]

فيها [2] نزل ألف وخمسمائة من الإسماعيلية على زوق تركان بخراسان فسبوا الحريم ، وقتلوا الرجال ، ورجعوا بالغنائم . **فأسرع** عسكرُ التركان **فأحاطوا** بهم وقتلوهم ، ولم ينج منهم إلا تسعة رجال [3] فلله الحمد . **قاله ابن الاثير :**

وفيها نزلت الفِرنج على داريا فأحرقوها ونهبوها ، وكانوا قد جاؤوا بغتة فقاتلوهم وأقاموا الى الليل ، ورحلوا بعد ان أحرقوا جـامِعَها وعادوا على الأقاليم .

وفيها وقع بَرَد أكبر من البيض .

وفيها وصل نور الدين الى دمشق من حلب سالماً في نفسه ، واستبشر العالم بمقدمه المسعود ، وبالغوا في شكر الله على سلامته وعافيته والدعاء بدوام أيامه .

وفيها وقع في تموز بالبقاع مطرٌ هطال بحيثُ حدث منه سيل أحمر كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء ووصل الى بردى ، ووصل الى دمشق ، وكثر التعجب من آثار قدرة الله بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت .

---

(١) ساقطة من ص .

(٢) راجع الكامل ١١ / ٨٩ – ٩٠ .

(٣) هكذا في الكامل وفي ص : سبعة أنفس .

[سنة ٥٥٤] [١]

فيها هادن[٢] نورُ الدين ملكَ الروم القادمَ من القسطنطينية بقصد المعاقل الإسلامية بعد تكرار المراسلات ، والاقتراحات في التقديرات . وأُجيب ملك [الروم] الى ما التمسه من إطـــلاق مقدمي الفرنج المقيمين في حبس نور الدين وأطلقهم ، فقابل الرومُ هذا الفعلَ بما يُضاهيه من الإتحاف بأثواب الديبـــاج الفاخرة المختلفة الأجناس الوافرة العدد ، وبجوهر نفيس وخيمة من الديبـــاج [وخيول حسنة] ، ورده الى بلاده ، ولم يؤذ أحد من المسلمين ، فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها .

[وفيها وقعت الفتنة بين العلوية والشافعية بخراسان. اتفق أن بعض أصحاب الفقيه المؤيد بن الحُسين الموفّقى رئيس الشافعية بمرو][٣] قتـــلَ انسانا من الشافعية اسمه ابو الفتوح الفستقاني خطأ ، وهذا أبو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابور وهو ذخر الدين أبوالقاسم زيد بن الحسن الحسيني . وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور. فغضب من ذلك وأرسل الى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتـــل ليقتصّ منه ويتهدده إن لم يفعل . فامتنع المؤيّد من تسليمه وقال : لا مدخل لك مع أصحابنا ، إنمـــا حكمك على الطائفة العلويين . فجمع النقيبُ أصحابَه ومن يتبعه وقصد الشافعية ، فاجتمعوا له وقاتلوه ، فقتل منهم جماعة . ثم ان النقيب أحرق سوق العطارين وحرقوا سكة معاذ أيضا .

واقتتـلوا ثامن عشر شوال من سنة أربـــع وخمسين ، وقامت الحرب على ساق ، وأحرقت المدارس والأسواق والمساجد ، وكثر القتـــلُ في الشافعية

---

(١) ساقطة من ص .

(٢) هكذا في الروضتين وذيل تاريخ دمشق وفي ص : صالح .

(٣) خبر الفتنة مضطرب في الاصل ولهذا فضلنا نص ابن الاثير في الكامل . فما يـلي هو قول ابن الاثير فيما عدا ما بين المعقوفتين .

فالتجأ المؤيد الشافعي في شرذمة الى قلعة فرخك ، وقَصُرَ باعُ الشافِعيّة عن القتال . ثم انتقل المؤيد الى قرية من قرى طوس وبطَلَتْ دروسُ الشافعية بنيسابور وخرب البلد ، وكثر القتل فيه[1] .

وفيها[2] وقع بالعراق برد كبار . قال **الذهبي**: انه كان فيه ما وزنه خمسةُ أرطال ونحو ذلك ، وقيل إنهم رأوا بردةً منها وزنها تسعة أرطال بالبغدادى ، فأتلفت الغلال . وزادت دجلة زيادة عظيمة ، فغرق بسبب ذلك محال كثيرة من بغداد ، وصارت تلالا ، ولم يعرِفْ أحدٌ موضع داره الا بالحزر والتخمين ، وغرقت تربه أحمد ، وخسفت هنالك القبور ، وطاف الموتى على وجه الماء . قال **ابن الجوزي**[3] : وفيها كثر المرض والموت .

سنة ٥٥٥

وتُعرف هذه السنة بسنة الخلفاء والملوك لأن فيها مات المقتفي والفائز صاحب مصر والسلطان ملكشاه[4] ، وخسرو شاه[5] صاحب غزنة . وهي سنة قران المريخ لزحل في برج السرطان . قاله الكتبي في **تاريخه** . ومن الاتفاقات الغريبة أن المقتفي وافق أباه في أشياء : من ذلك مرضهما بالتراقي ، وموتهما في ربيع الاول ، وموت السلطان محمد شاه قبل المقتفي بثلاثة أشهر وموت السلطان محمود قبل موت أبيه بثلاثة أشهر ، وموت كل منهما بعد غرق

---

(١) انتهى هنا نص ابن الاثير .

(٢) راجع الكامل ١١ / ٩٣ والمرآة ٢٣٢ .

(٣) راجع البداية والنهاية ١٢/٢٤٠ .

(٤) وهو السلطان ملك شاه بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان . توفي بأصفهان مسموماً . راجع الكامل ١١/٩٨ - ٩٩ .

(٥) وهو خسرو شاه بن بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة . راجع الكامل ١١/٩٨ .

بغداد بنحو سنة . ومن الغريب أيضا ما ذكره عفيف الناسخ[1] ، قال : رأيت في المنام قائلا يقول : إذا اجتمعت ثلاث خاءات مات المقتفي ، فمات في سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

قال **ابن خلكان** : أخبرني بعض مشايخ العراق الفضلاء ان المستنجد بن المقتفي رأى في منامه في حياة أبيه كان ملكاً بالسماء يكتب في كفه أربع خاءات ، فعبر الرؤيا له بأنه يلي الخلافة في سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وفيها[2] بويع المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي ، ودخل الى الحجرة التي كان يقعد فيها فهجمت عليه أم أبي علي الحسن ومعها جواريها بأيديهن السكاكين ليقتلنه ، فذعر منها ، وقال : أماه ، ما الذي صنعت حتى تستحلي دمي ؟ راقبي الله تعالى فيّ ! فتوقفت عن قتله ، فخرج من الحجرة ، وجاء أصحابه فأحدقوا به ، فقبض على أخيه أبي علي الحسن وهو صبي ، ولم يضيق عليه ، بل كان في ترفه وسعة ، وانتقم من الجواري اللاتي أردن قتله .

[وفيها مات صاحب مصر الفائز بالله وهو ابن احدى عشرة سنة وكان يصرع ، واسمه عيسى بن الظافر ، بايعوه وهو طفل بعد مقتل والده ، وكانت الأمور راجعة الى الملك الصالح طلائع بن رزيك وهو عبارة عن صاحب مصر][3] .

وفيها بويع العاضد بن يوسف بن الحافظ ، وهو ابن عم الفائز بن الظافر بن الحافظ ، وهو آخر خلفاء العبيدية .

---

(١) وهو عفيف بن المبارك بن الحسين أبو محمد توفي سنة ٥٧٥ .راجع المرآة ٣٣٥ .

(٢) راجع الكامل ١١/٩٦ – ٩٧ . والمستنجد بالله أمه أم ولد تدعى طاوس . وكان للمقتفي حظية وهي أم ولده أبو علي . ويوجد اختلاف بين الرواية هنا وبين رواية ابن الأثير للتآمر على قتل المستنجد .

(٣) زيادة من ف .

وفيها استعفى القاضي زكي الدين أبو الحسن عليّ [بن محمد][1] بن يحيى بن علي القرشي من القضاء بدمشق ، فأعفاه نور الدين ، وولى مكانه القاضي كمالَ الدين الشهرزوري ، وكان من خيار القضاة ، واليه ينسب الشباك الكمالي الذي يجلس فيه الحكام بالجامع بعد صلاة الجمعة من المشهد الغربي بالجامع الأموي .

سنة ٥٥٦

فيها[2] قبض المؤيد على نقيب العلويين أبي الحسن زيد الحسيني، ونفى جماعة وقتل جماعة ، وخربت نيسابور . ومما أحرق سبع عشرة مدرسة للشافعية[3] وأحرقت خمس خزائن كتب [ونهبت سبع خزائن][4] وبيعت بأبخس الأثمان.

وفيها كان الرخص كثيراً ببغداد ، وبيع اللحم أربعة أرطال بقيراط ، والبيض كل مائة بقيراط .

وفيها مرض نقيبُ الأشراف بدمشق المعروف بابن أبي الحسن مرضاً شديداً أيس منه، ففوض السلطان نورالدين النقابةَ وما كان بيده من الولايات الى ولده، واشتغل بتجهيز والده وترتيب أكفانه ، وعقد له قبراً ، فاتفق أنه عافاه الله ، وانطرح ولده مريضاً ، فمات في اليوم الخامس ، فجهز بذلك الجهاز ، ودفن في ذلك القبر الذي بناه لوالده .

وفيها قتل الملك الصالح فارس الدين أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني وزير العاضد صاحب مصر ووالد زوجته . وكان قد حجَرَ على العاضد لصغره

---

(١) زيادة من ف . في ذيل تاريخ دمشق ٣٥٩ : ذكي بالذال .

(٢) راجع الكامل ١٠٢/١١ .

(٣) هكذا في الكامل وفي ص ، ف : للحنفية .

(٤) زيادة من ف .

واستحوذ على الأموال ، فقتله الحاشية . وهذا هو الذي بنى الجامع عند باب زويلة ظاهرَ القاهرة . قال **ابن خلكان** : ومن العجائب انـــه ولي الوزارة في التاسع عشر ، وقتل في التاسع عشر ، ونقل تابوتــه في التاسع عشر ، وزالت دولته في التاسع عشر[1] وكان الصالح من علمـــاء الرافضة وأدبائهم . واستقر بمنصبه ولده [العادل محيي الدين رزيك][2] .

سنة ٥٥٧

قال **ابن الاثير**[3] : فيها جمع نور الدين العساكر بحلب ، وسار الى قلعـة حارم وحصرها ، وجدّ في قتالها ، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . واجتمـــع الفرنج من سائر البلاد ، وساروا نحوه ليرحلوه عنها ، فلما قاربوه طلب منهم المصاف ، فلم يجيبوه ، وراسلوه وتلطفوا في الحال معه ، فعاد الى بلاده .

وفيها[4] نهب عبيد مكة الحجاج ، فرحلوا الى المدينة ، ولم يطف أحـد ولم يسع .

سنة ٥٥٨

فيها[5] جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج ، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد وهو للفرنج عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس وضرب

---

(١) هذا نص ابن خلكان ويختلف في اللفظ عن نص ص .
(٢) زيادة من ابن خلكان .
(٣) راجـع التاريخ الباهر ١١٦ . والنص في ص يختلف في اللفظ عن نص ابن الاثير .
(٤) راجـع المرآة ٢٤١ .
(٥) راجـع التاريخ الباهر ١٦٦ وما بعدها . والنص في ص مختصر عن نص ابن الاثير.

الناس خيامهم ولم يكن لهم يزك ظناً من نور الدين أنهم لا يقدمون عليه . فبينما الناس وسط الناس في خيامهم لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن ، فالسعيد الذي ركب فرسه ونجا . فخرج نور الدين من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء ، فركب فرساً هناك للنوبة وفي رجله شبحة[١] فنزل إنسان من الأكراد فقطعها ، فنجا نور الدين وقتل الكردي . فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن اليهم جزاء فعله . وقتل الفرنج وأسروا خلقاً كثيراً ونهبوا جميع الوطاق ، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان .

وسار نور الدين الى مدينة حمص، فأقام بظاهرها . وأحضر ما فيها من الخيام ، ونصبها ببحيرة قدس على فرسخ من حمص ، وبينهما وبين الوقعة أربعة فراسخ ، واجتمع اليه كل من نجا من المعركة . فقال له بعضُ أصحابه : ليس من الرأي أن نقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمعُ على المجيءِ إلينا ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: اذا كان معي ألفُ فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا ، والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر المسلمين وثأري . ثم إنه أرسلَ الى حلب ودمشق وأحضر الأموالَ والدوابّ والأسلحةَ والخيامَ وسائر ما يحتاج اليه الجند فأكثر ، وفرق ذلك جميعه على من سلم . أما من قتل فأقر أولاده على إقطاعه ، ومن لم يكن له ولد اعطاه لبعض أهله ، فعاد العسكرُ كأن لم يفقد منه أحد . وأما الفرنج خذلهم الله فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد[٢] الهزيمة لأنها أقرب البلاد اليهم . فلما بلغهم مقامُ نور الدين عندها ، قالوا إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا ، فتوقفوا . وأكثرَ

(١) وهي سلسلة يربط بها قدم الحصان ، وفي أحد طرفيها عروة تزر القدم ، وفي الآخر وتد يدق في الأرض . راجع التاريخ الباهر حاشية ٦ .

(٢) هكذا في التاريخ الباهر وفي ص : بهذه .

نورُ الدين من الخرج إلى أن فرق في يوم واحد مائتي ألف دينـــار [حمر] [1]
سوى الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك . وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند
ويسألوا كل واحد منهـــم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئاً أعطوه
عوضه . فحضر بعضُ الجنـــد ، وادعى شيئاً كثيراً علم النواب بكذبه فيما
ادعاه لمعرفتهم بحـــاله ، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون [إليه] [2] القضيةَ
ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادعـاه ، فأعاد الجواب : لا تكدروا
عطاءنا ، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه :
ان لك ببلادك ادرارات كثيرة وصلات كثيرة للفقهـــاء والفقراء والصوفية
والقرّاء ، فلو استعنتَ بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا وقال : (إنّ اللهَ
لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفُسِهم) [3] والله إني لا أرجو النصرَ إلا
بأولئك ، فإنمـــا ترزقون وتنصرون بضُعفائكم . كيف أقطع صلاتِ قوم
يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها لمن يقاتل عني
[إذا رآني] [4] بسهام قد تخطىء وقـد تصيب . ثم هؤلاء القـوم لهم نصيبٌ
في بيتِ المال أصرفه اليهم ، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا . ثم كتب اليه
نوابه : إذا لم تـُغيِّر عليهم شيئاً وقد وقعتَ في هذه الورطة العظيمة ، فلو
أمرتنا بالاقتراض من أرباب الأموال ما نستعين به على جهاد العدو ، فقـد
نفدت [5] الخزائن ، ويطمعُ العدو في الإسلام ، فبات مفكراً ، وقال في نفسه :
نقترض ثم ندفع العوض ، ثم قال . ما أفعل ؟ وباتَ قلقا إلى وقت السحر ،
فرأى إنساناً ينشد :

---

(١) زيادة من التاريخ الباهر .
(٢) زيادة من التاريخ الباهر .
(٣) الرّعد : ١١
(٤) زيادة من ف .
(٥) هكذا في ف . في ص : فقدت .

أحسنوا ما دام أمرُكم نافذاً في البدو والحضرِ
واغنموا أيّام دولتكم إنكم منها على خطرِ

فقام مرعوباً مستغفراً مما خطر له ، وعلم أن هذا تنبيهٌ من الله تعالى . فكتب إلى نوابه : لا حاجة لنا بالأموال . ثم إنّ الفرنج أرسلوا الى نور الدين في المهادنة فلم يُجبهم إليها ، وتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا الى بلادهم وتفرقوا .

وفيها[1] ظهر شاورُ بنُ محمد السعدي من بلاد الصعيد ، وجمع أوباشَ الصعيد والعبيد وخرج الى القاهرة ، فخرج اليه رزيك بن الصالح ، فهزمه شاور ودخل القاهرة ، فأخرب دارَ الوزارة ودور بني رزيك ونهبها ، وبعثَ اليه العاضد بخلع الوزارة ، ولقّبه أميرَ الجيوش . وكانت عادةُ خلفاء المصريين أنه اذا غلب شخص على صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقّعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم ، وهو الملقب عندهم بالسلطان . ثم تتبع رزيك بن الصالح الى أن أحضر فقتله ، واستقر في المملكة وتلقب بالناصر . ثم أساء السيرة فخرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن ثعلبه من الصعيد ، وتلقب بالمنصور ، وجمع جموعاً كثيرة . فخرج إليه شاور ، فهزمه ضرغام وقتل ولده[2] . وخذل أهل

---

(١) راجع الكامل ١١ / ١٠٨ بشأن ابتداء أمر شاور . يقول ابن الأثير (كان ابتداء أمره ووزارته أنه كان يخدم الصالح بن رزّيك ولزمه . فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الأعمال بعد الوزارة . فلما ولي الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمُقدّمين من العرب وغيرهم ، فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله ... فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل أنه لا يغير على شاور ... لكنه أرسل إليه بالعزل) .

(٢) هكذا أيضاً في النوادر السلطانية، أما في الروضتين (فغلبه وأخرجه من القاهرة وولده طيا) .

القاهرة شاور ، فانهزم إلى الشام . وكان نور الدين بالشام فتلقاه وأكرمه . وأقام عنده أياماً ، ثم طلب منه العسكر ، وقال : أكون نائبك بالديار المصرية ، واقنع بما تـُعيِّنه لي من الضياع والباقي لك . فأجابه نورُ الدين إلى ذلك ، وسيأتي ذكره في السنة الآتية . وشاور هذا هو الذي قال فيه عمارة الشاعر من جملة قصائده :

ضجر الحديدُ من الحديد وشاور   في نصر دين محمد لم يضجرِ
حلف الزمانُ ليأتين بمثله   حنثت يمينك يا زمان فكفّرِ

سنة ٥٥٩

فيها[١] أمر نور الدين أسدَ الدين شيركوه بالتجهز للمسير مع شاور، لقصده في الاستصراخ والاستنجاد وإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة . فسار وأخذ معه كل فارس منتخب من فرسان الشام ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف . وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الشام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فوصل أسدُ الدين هو ومن معه إلى مصر . فخرج إليهم أبو الأشبال ضرغام ، فحاربهم أياماً . فلما كان في بعض الأيام التقوا على باب القاهرة ، فحمل ضرغام في أوائل الناس فجاءته طعنة فخر صريعاً . وعاد شاور وزيراً . وكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر ، وهي مدة الحمل .

---

(١) راجع الروضتين ج ١ ق ٢ / ٢٣٢ - ٢٣٤ .

قال ابن الأثير[1]: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور وعاد عما قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً، وأرسل إليه يأمره بالعوْد إلى الشام [فأنف أسدُ الدين وأرسل نوابه][2] فتسلّموا بلبيسَ وحكم على البلاد الشرقية. فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين. فلما أرسل إليهم شاور يستنجدهم على إخراج أسد الدين من البلاد، بادروا إلى إجابته، وطمعوا في ملك ديار مصر. وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه. فتجهزوا وساروا.

فلما بلغ نور الدين خبرُ تجهزهم للمسير إليه سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسلمين، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطرَ في مقامهم إن ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم. فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر. وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة بيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج [فأعانوه وساروا معه][3]. ولما قارب الفرنجُ مصرَ فارقها أسدُ الدين، وقصدَ مدينة بلبيس، وأقام بها هو وعسكره[4]، وجعلها ظهراً يتحصن بها. واجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسدَ الدين بمدينة بلبيس، وحاصروه بها ثلاثة أشهر وقد امتنع بها أسد الدين. وسورها من طين قصير جداً وليس له

---

(١) راجع النص التالي مطولاً في التاريخ الباهر ١٢١.

(٢) زيادة من ف.

(٣) زيادة من التاريخ الباهر.

(٤) الصفحات التالية من ص مكتوبة على الهامش بخط غير واضح ومطموس أحياناً ولهذا اعتمدنا في قراءتها على ف.

خندق [ولا فصيل يحميها][1]، وهو يعاديهم القتال ويراوحهم ، فلم يبلغوا منه غرضاً ، ولا نالوا [شيئاً][2] . فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس . فحينئذ سقط في أيديهم ، وراسلوا أسدَ الدين في الصلح والعود إلى الشام وتسليم ما بيده إلى المصريين . فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نورُ الدين بالفرنج في الساحل، فرجعوا عنه. قال **ابن كثير**[3] : وقبض أسدُ الدين من شاور ستين ألف دينار ، وسار إلى الشام ، وعاد سالماً .

وفيها فتح نور الدين حارم . قال **ابن الأثير**[4] : والسبب في هذا الفتح أن نورَ الدين لما أصابه بالبقيعة من الفرنج ما أصابه ، بعث إلى أخيه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا أرسلان[5] بالحصن ، ونجم الدين [ألبي][6] بماردين وغيرهم، فطلب منهم النجدة. فبادروا وجاؤا إليه بأنفسهم إلا صاحبُ ماردين، فانه جهز عساكره ، وتأخر هو لعذر منعه .

فلما اجتمعت العساكرُ على مدينة حلب ، سار بهم نور الدين إلى حارم ونازلها ، وبلغ الفرنجَ [الخبر][7] فحشدوا وجاؤا في ثلاثين ألف فارس[8]

---

(١) زيادة من التاريخ الباهر .
(٢) زيادة من التاريخ الباهر .
(٣) البداية والنهاية ١٢ / ٢٤٨ .
(٤) راجع النص التالي مطولاً في التاريخ الباهر ١٢٤ وما بعدها .
(٥) صاحب حصن كيفا .
(٦) زيادة من التاريخ الباهر .
(٧) زيادة من التاريخ الباهر . وهؤلاء هم الفرنج الذين تخلفوا عن الذهاب إلى مصر .
(٨) الرقم من المرآة ٢٤٧ .

وفيهم البرنس صاحب انطاكية، والقمص صاحب طرابلس، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم، وهو رئيس الروم ومقدّمها. وكان معهم من الرجالة ما لا يحصى. فلما تقاربوا واصطفوا للقتال، بدأت الفرنجُ بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكرُ حلب وفخرُ الدين، فاندفعوا بين أيديهم، وقصدوا بذلك أن يبعدوا الفرسان عن الرجالة، فتبعتهم الفرسان، فعطف حينئذ زينُ الدين[1] في عسكر الموصل على الرجالة فحصدهم بالسيف. وعادت خيّالتهم، ولم يمضوا في الطلب خوفاً على رجالتهم من العطف، فصادفوا رجالتَهم بين قتيل وأسير، ولم يبق منهم قليل ولا كثير، فسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا. فلما رجعوا، عاد عليهم المنهزمون، فبقوا في الوسط وقد أحدق المسلمون بهم من كل جانب، فذلوا وخضعوا، وعمل فيهم السيف، ولم ينج منهم إلا من نجا به فرسُه. وأكثر المسلمون فيهم القتل.

قال **العماد الكاتب**: قتل منهم عشرون ألفاً. وقال **ابن الأثير**[2]: زادت عِدّةُ القتلى على عشرة آلاف، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن جميعَ ملوكهم أسروا، وهم الذين من قبل ذكروا. وسار نورالدين إلى حارم فملكها، وغنم ما كان فيها من الأموال والخيل والسلاح والخيام وغير ذلك. وعاد[3] إلى حلب بالأسارى والغنائم، وامتلأت حلب منهم، وبيع الأسير بدينار، وفرّقهم نور الدين على العساكر، وأعطى أخاه وصاحب الحصن الأموال العظيمة والتحف الكثيرة، وعادوا إلى بلادهم. قال **الكتبي**: وفادى نور الدين الملوك، وكان قد استفتى الفقهاء، فقال قوم بقتل الجميع، وقال قوم: نفاديهم، فمال إلى الفدية، فأخذ منهم[4] ستمائة ألف دينار معجلةً وخيلاً

---

(١) في ص: نور الدين.

(٢) التاريخ الباهر ١٢٥.

(٣) الخبر التالي عن الأسرى من المرآة ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) هكذا في المرآة وفي ف: منه.

وسلاحاً وغير ذلك ، فكان نورُ الدين يحلِفُ بالله تعالى أن جميع ما بناه من المدارس والأوقاف والربط وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع وقفه منها ، وليس فيها من بيت المال الدرهم الفرد ، انتهى .

قال صاحب **الروضتين**[1] : وبلغني أن نورَ الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان أو قُبيلَه ، انفرد تحت تل حارم ، وسجد لربه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرع ، وقال : يا ربّ ! هؤلاء عبيدُك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك ، أيش فضول محمود في الوسط ، يشير إلى أنك يا رب ، إن نصرت المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر .

سنة ٥٦٠

فيها[2] فتح نورُ الدين بانياسَ عنوة ، وكان معه أخوه نصير الدين أمير ميران ، فجاءه سهم في عينه فأذهبها . فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك عن الأجر الذي أُعدّ لك لتمنيتَ أن تذهب الأخرى . وكان مع نور الدين ولد معين الدين أنر الذي سلمَ أبوه بانياسَ للفرنج ، فقال له نور الدين: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان ، قال : يا مولانا ، ولم ؟ قال : لأنّ اليوم بردت جلدة أبيك من نار جهنم .

قال **ابن الجوزي**[3] : وفيها ولدتِ امرأةٌ [من درب هارون][4] ببغداد أربعَ بنات ، وبقي في بطنها ولد ، فمات وماتت به ، وعاشت البنات .

---

(١) راجع الروضتين ج ١ ق ٢ / ٣٤٢ .

(٢) راجع التاريخ الباهر ١٣٠ - ١٣١ والروضتين ج ١ ق٢/ ٣٥٦ - ٣٥٩ ، والمرآة ٢٥٢ .

(٣) راجع الخبر التالي في المرآة ٢٥١ .

(٤) زيادة من المرآة .

سنة ٥٦١

فيها سار نورُ الدين إلى حصن المنيطرة ، ولم يحشد له ولا جمع عساكره ، وإنما سار إليه على غرة من الفرنج إلى أن وصل إليه ، فحاصره وأخذه عنوة ، وقتل من به ، وسبى وغنم . كذا قاله **ابن الأثير**[١] . وذكر ابن شداد[٢] أن ذلك كان في السنة الآتية .

وفيها ثارت فتنةٌ ببغداد بين الشيعة والسنة لأن الشيعةَ أظهرت النياحة والبكاءَ على أهل البيت يوم عاشوراء ، وأعلنوا بسب الصحابة ، وبالغوا حتى إنهم كانوا يضربون من رأوه مكحلاً ، فثارت فتنة شديدة .

سنة ٥٦٢

فيها عاد أسدُ الدين شيركوه إلى مصر ، وهي المرة الثانية ، لما كان في نفسه من الحقد على شاور ، لما فعله مما تقدم . وسيَّر نورُ الدين معه جماعةً من الأمراء وابنَ أخيه صلاح الدين . فسار في ربيع الآخر ، ونزل الجيزة غربي مصر على البحر ، وتصرف في البلاد الغربية ، وأقام بها نيِّفاً وخمسين يوماً . ثم عدا إلى بر مصر والقاهرة ، وسار إلى الصعيد . وكان شاور قد أعطى الفرنجَ الأموال وأقطعهم الإقطاعات ، وأنزلهم دورَ القاهرة ، وبنى لهم أسواقاً تخصُّهم . كان مُقدَّمهم الملك مري وابن بيرزان . فاستغاث شاور بالفرنج ، فأتوه[٣] . وخرج شاور وعسكر مصر والفرنج ، فأدركوا أسدَ الدين بمكان يعرف بالبابين . ولما بلغ

---

(١) الخبر موجز لما أورده ابن الأثير في التاريخ الباهر ١٣١ .

(٢) النوادر السلطانية ٣٠ — ٣١ .

(٣) والملك مري هو Amalric الأول (١١٦٣ — ١١٧٤) وكان قد ترك مصر بعد حصاره بلبيس عام ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) . للاستزادة راجع :
Kenneth M. Setton : A History of the Crsades, vol. 1, p. 551.

أسدَ الدين خبرُهم وكثرةُ عددهم وعددهم استشار اصحــابه ، فكل أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا – وهو الذي لا شك فيه – فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمي ، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ويودون لو شربوا دماءنا ، وحق لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بعدوا عن ديارهم وقلّ ناصرهم أن يرتاع من لقــاء عشرات الألوف مع أن كلّ أهل[1] البلاد أعداؤهم .

فلما قالوا ذلك ، قام إنسانٌ من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش وكان من الشجاعة بالمكان المشهور ، وقــال : من يخاف القتل والجراحَ والأسر فلا يخدم [الملوك][2] ، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعتذرون به ليأخذن اقطاعاتكم ، وليعودن بجميع ما أخذتموه [منه][3] إلى يومنـــا هذا ، ويقول لكم : تأخذون أموال المسلمين وتفِرّون من عدوهم ، وتسلـّمون مثل [هذه][4] الديار المصرية يتصرف فيها الكفار . فقال أسدُ الدين : هذا رأيي وبه أعمل . ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب . ثم كثر الموافقون لهم على القتال ، فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه[5] المصريون [والفرنج وهو على تعبئة][6] . فرتـّب أسدُ الدين عساكره ، فجعل صلاحَ الدين بن أخيه في القلب ، وجعل معه الأثقال في القلب يتكثر بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد . وجعل في الميسرة الأكراد[7] ، وقال لصلاح الدين من معه : إن الفرنج

---

(١) انتهى ما في الهامش في ص ونستأنف اعتماده .

(٢) زيادة من ف .

(٣) زيادة من التاريخ الباهر .

(٤) زيادة من ف .

(٥) هكذا في ف . في ص : أدركهم .

(٦) زيادة من التاريخ الباهر .

(٧) هكذا في ف . في ص : الأتراك .

والمصريـين يظنون أني في القلب [فيجعلون جمرتهم بإزائي وحملتَهم فيه . فإذا حملوا عليكم][1] فلا تصدقوا القتال ، ولا تهلكوا أنفسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، وإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتَهم ، ووقف بهم في الميمنة ، وجعل شاورُ الفرنج في الميمنة مع ابن بيرزان ، وعسكرَ مصر في الميسرة . وأقام هو مع الملك مري في القلب ومعه شوكة الفرنج والخيالة . فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج مـا ذكره أسدُ الدين ، وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتـالا يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم ، فتبعوهم . فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين، فهزمهم ووضعَ السيف فيهم ، فأثخن [فيهم الجراح][2] وأكثر القتلَ والأسرَ ، وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنجُ من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب ، رأوا مكانَ المعركة من أصحابهم بلقعا ليس [به منهم][3] ديار ، فانهزموا أيضاً ، [وكان][4] هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عسكر مصر وفرنج الساحل .

ثم[5] سار أسدُ الدين إلى ثغر الاسكندرية [وجبى ما في طريقها من القرايا والسواد من الأموال ووصل إلى الإسكندرية][6] وتسلـّمها من غير قتال سلمها أهلها إليه . فدخلها ونزل القصر ، وجعل فيه محبسَ الفرنج الذين أسرهم . ثم استناب بها صلاحَ الدين. وعاد إلى الصعيد، وتملكه وجبى أمواله. وخرج شاور والفرنج من القاهرة فحصروا الإسكندريةَ أربعة أشهر وأهلها يقاتلون مع صلاح

---

(١) زيادة من ف .

(٢) زيادة من التاريخ الباهر .

(٣) هكذا في ف : في ص : بينهم .

(٤) الزيادة من ف .

(٥) راجع عن الخبر التالي التاريخ الباهر ١٣٣ - ١٣٤ والروضتين ج ١ ق ٢ / ٣٦٥ وما بعدها .

(٦) زيادة من ف .

الدين ويقوونه بالمال ، فاشتدّ الحصارُ ، وقلّ الطعام بالبلد . فبلغ أسد الدين ، فجمع عرب البلاد وسار إلى الإسكندرية. فعاد شاور إلى القاهرة، وراسل أسد الدين يطلب منه الصلح ، وبذل له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ، فأجابه إلى ذلك ، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا البلاد ، ولا يتسلمون [منها][1] قريةً واحدة ، وأن الاسكندريةَ تعاد إلى المصريين ، فأجابه[2] إلى ذلك واصطلحوا . وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكبَ يحمل فيها الضعفاء [فأنفذها إليه ، فحمل فيها الضعفاءَ إلى دمشق][3].

وعاد أسدُ الدين إلى الشام وصلاحُ الدين معه . فخرجَ من الاسكندرية في النصف من شوال ، ووصل الى دمشق ثامن عشر ذي العقدة . [وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال][4] .

وأما الفرنجُ فإنه استقرّ بينهم وبين المصريين أن يكونَ لهم بالقاهرة شحنة [وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملكُ العادلُ نورُ الدين من إنفاذ عسكر اليهم][5] ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار .

وكل هذا يجري بين الفرنج وشاور . وأما العاضدُ صاحبُ مصر فليس له من الأمر شيء ، ولا يعلم بشيء من ذلك ، قد حكم عليه شاور وحجبه .

وعاد الفرنج الى بلادهم وتركوا جماعةً من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

وفيها[6] احترقَ اللبّادين وباب الساعات بدمشق حريقاً عظيماً[صار

(١) زيادة من ف .
(٢) في ف : فأجيب .
(٣) هكذا في ف وفي ص : ووجههم الى دمشق .
(٤) زيادة من التاريخ الباهر ١٣٤ .
(٥) زيادة من التاريخ الباهر ١٣٤ .
(٦) راجع الخبر التالي في المرآة ٢٧٠ .

تاريخاً][1] . وسببُه أن بعضَ الطباخين أوقد ناراً تحت قِدر هريسة ونام ، فاحترقت دكّانُه ، ولعبتِ النارُ في اللبادين ودور كثيرة من الخضراء ، ونُهبت أموال عظيمة ، وأقامَتِ النارُ في اللبادين ودور كثيرة .

وفيها [2] دخل نور لدين بلاد الفرنج ومعه أخوه قطب الدين وصاحب الموصل ، فاجتازوا على حصن الأكراد وهو للداوية ، فلم يحاصروه لحصانته وصعوبته ، وإنما أخذوا جميعَ ما في قراه ونواحيها ، ثم ساروا الى حُصون لهم ففتحوها : بَعضَها بالسيف وبعضَها بالأمان ، منها حصنُ العزيمة وحصن صافيتا ، وأسروا وغنموا . ثم توجّهوا الى قلعة هونين ، فلما قَربُوا منها أخلاها أهلُها وأحرقوها . فلما وصل اليها نورُ الدين ، لم يجدْ فيها فائدة ، فأمر بخرابها وهدم سورها ، وعزم على منازلة بيروت ، فوقع خُلف في العسكر ، فرجع . وتوجّه قطبُ الدين الى بلاده ، وأعطاه نورُ الدين الرقة ، فاجتاز عليها في طريقه ورتّب نُوابه بها .

سنة ٥٦٣

فيها[3] قطع نور الدين الفرات واستولى على الجزيرة والرها ، وعاد الى منبج . وفيها[4] قبض نور الدين على صاحب قلعة جعبر شهاب الدين بن مالك العُقيلي[5] . وسببُه أن نور الدين كان قد رصد حول جعبر طائفةً من العرب

---

(١) زيادة من ف .

(٢) تجد الخبر التالي في الروضتين ج ١ ق ٢/٣٧٤ – ٣٧٥ مع اختلاف يسير في اللفظ .

(٣) راجع الخبر التالي في المرآة ٢٧٢ .

(٤) تجد الخبر التالي مفصلاً في الروضتين ج ١ ق ٢ / ٣٨٦ .

(٥) هو شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب . راجع المصدر السابق .

الكلابيين وأمرَهم بالقبض عليـــه . فنزل ذات يوم [من القلعة] [1] يتصيَّد في صحاريها ، فأحـــاطت به العربُ وبمن معه ، فقبضوا عليه وأوصلوه الى نور الدين فأعطاهم ألوفاً من الذهب والثياب ، واعتقله وشدّد عليه ، ورام منه أن يسلم القلعة ، فامتنع ، وذكر أنّ أهله لا يطيعونه في ذلك . وبعث نور الدين بالجيش مع رسولِه وكتابِه ، فلم يقدروا عليها بحرب ولا بسلم . ثم استولى عليها في السنة الآتية .

وفيهـا [2] فوضَ نورُ الدين أمر حمص وأعمالَهـا الى أسدِ الدين شيركوه مضافاً الى مـا بيده ، والتقدمة على جميع الجيوش . فبقيتْ حمص بيد أولادِه أكثرَ من مائة سنة إلى أيام الملك الظاهر .

سنة ٥٦٤

فيها [3] أخذ نورُ الدين قلعةَ جعبر . وسببُه إنه لما حصَرها عسكرُ نـــور الدين ومقدم العسكر مجدُ الدين بن الداية في السنة الماضية ولم يَرَ له في فتحهـا مجالا ، ورأى أن أخذَها بالحَصْر مُحال ، سلك مع صاحِبه طريق اللين ، وأشار عليه بـأخذ العوض من نورُ الدين . ولم يزل يتوسّطُ معه حتى أذعن على أن يعطيَ سروجَ وأعمالها ، والمَلاّحة من أعمال حلب ، والباب ، وبزاعة ، وعشرين الف دينار معجلة . فأخذ جميعَ ما شرطه مُكرهـا في صورة مُختار . قـال **ابن الأثير** [4] : وهذا إقطاع عظيم جداً ، ولكنه لا حصنَ فيه . وتسلـّم مجدُ الدين قلعةَ جعبر ، وصعد اليها . وهذه القلعة من أعظم الحُصون وأحسنها ،

---

(١) زيادة من ف .

(٢) راجع أيضاً الروضتين ج ١ ق ٢ / ٣٨٣ .

(٣) راجع التاريخ الباهر ١٣٦ - ١٣٧ .

(٤) في المرجع السابق .

مطلة على الفرات [لا يطمع فيها بحصار] [١]. وقد أعجز جماعة من الملوك أخذُها . وقُتل فيها [٢] عمادُ الدين زنكي والد نورُ الدين ولم تزلْ بيد شهاب الدين العُقيلي وبيد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه الى هذه السنة .

قال ابن الأثير [٣] : بلغني أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب اليك وأحسن مقاماً ، سروج والشام ، أم القلعة ؟ فقال : هذا أكثر مالاً ، والعزُّ بالقلعة فارقناه .

وفيها سار أسد الدين شيركوه الى الديار المصرية ثالث [٤] مرة . وسببه أن الفرنجَ قصدتِ الديارَ المصرية في جمع عظيم [٥] . وكان السلطانُ نور الدين في جهة الشمال ونواحي الفرات ، فطلعوا من عسقلان ، وأتوا بلبيسَ ونازلوها وحصروها ، فملكوها قهراً ، ونهبوها ، وسبوا أهلها [وأقاموا خمسة أيام ، ثم أناخوا على القاهرة] [٦] . فحمل أهلها الخوفُ مما فعلوه ببلبيس على الامتناع ، فحفظوا البلدَ ، وبذلوا جُهدَهم في حفظه .

وكان شاورُ قد أمرَ أهلَ مصر أن ينتقلوا الى القاهرة ، وأمرَ بإحراق [مدينة مصر قبل] [٧] نزول الفرنج عليهم بيوم وأنذرَ أهلها ، فخرج الناسُ [منها على وجوههم] [٨] وهجّوا في بلاد مصر . وبلغت أجرةُ الحمل الى القاهرة ثلاثين ديناراً . وترك الناسُ أكثر أموالهم ، فنُهبت وأحرقت ، وأقامت النار

---

(١) زيادة من ف .
(٢) في ف : عليها .
(٣) راجع التاريخ الباهر ١٣٧ .
(٤) في ص : ثاني .
(٥) في ف : كثير .
(٦) زيادة من ف .
(٧) زيادة من ف . مطموسة في ص .
(٨) زيادة من ف . مطموسة في ص .

تعمل في مصر أربعةً وخمسين يوماً . ثم ضاق الحصارُ ، وخيف البوار ، وعرف شاورُ أنه يضعف عن الحماية ، فشرع في عمل الحيل ، وأرسل الى ملك الفرنج يذكُر له مودّته ومحبّته القديمة ، وأن هواه معه ، ويذكر له تخوُّفه من نور الدين والعاضد ، وأن المسلمينَ لا يوافقونه على التسليم اليه ، ويشيرُ عليه بالصلح وأخذ مال لئلا تسلّم البلادُ الى نور الدين . فأجابه الى الصلح على ألف ألف دينار مصرية ، يعجّل البعضَ ويؤخر البعض . فحمل اليه شاور مائة ألف دينار وماطله بالباقي ، وسأله الرّحيل عن البلد ليجمع له المال ، فرحلوا قريباً .

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل الى نور الدين يستغيث به ، ويعرّفه ضعف المسلمين عن الفرنج . وأرسل في الكتب شعورَ النساء وقال : هذه شعورُ نساءٍ من قصري تستغيث بك لتنقذهن من الفرنج . فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع في تجهيز العساكر الى مصر .

ولما صالح شاورُ الفرنجَ على ذلك المال ، عاود العاضدُ مراسلةَ نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج ، وبذل له ثلثَ بلاد مصر ، وأن يكون أسدُ الدين مقيماً عنده في عسكر ، وإقطاعُهم عليه خارجاً عن الثلث [الذي][1] لنور الدين .

ولما أتى الرسلُ لنور الدين من العاضد ، أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص . فلما خرج القاصدُ من حلب ، لقي أسدَ الدين قد وصله ، لانه لما بلغه ذلك بقي مسلوبَ القرار ، مغلوبَ الاصطبار ، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر ، فخاف خروجَها من يده ، وأن يستوليَ عليها الكفار . [فسار[2] في يوم واحد من حمص الى حلب . فإنه ركب وقتَ طُلوع الشمس من حمص][3] ودخل

---

(١) زيادة من التاريخ الباهر ١٣٩ .

(٢) الكلمة غير واضحة في ف . نقلناها من التاريخ الباهر .

(٣) زيادة من ف .

حلبَ في آخرِ ذلك اليوم . ويقال إنّ هذا لم يتفق لغيره الا للصحابة رضي الله عنهم . واجتمع بنور الدين، فأمره بالتجهُّز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثيـــاب والدواب والآلات والأسلحة . وحكّمه في العساكر ، فاختار ألفي فارس[1]. وأمر صلاحَ الدين بالخروج معه فـــامتنع ، وقال : يا مولانا ، ما يكفي ما لقينا من الشدائد ؟ فقال : لا بد من خروجك . فماأمكنه مخالفة نور الدين . أحبّ نورُ الدين مسيرَ صلاح الدين وفيه ذهابُ بيته ، وكره صلاحُ الدين المسيرَ وفيه سعادُته وملكُه . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرٌ لكم .

وجمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ، وسار الى مصر في جيش عرمرم قيل كانوا سبعين ألف فارس وراجل . فتقهقر الفرنج لمجيئه ، ووصــل الى القاهرة ، واجتمع بالعاضد فخلــــع عليه وأكرمه . وأجريت عليه وعلى عساكره الخيرات الكثيرة . ولم يمكن شاور المنع من ذلك ، ورأى العــاضد معهم من داخل ، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه ، فكتمه وهو يماطلُ أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال ، والإقطـــاع للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، وهو يركبُ كلّ يوم الى أسد الدين ويسير معــــه ويَعِدُه ويمنّيه (وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلا غُروراً) (النساء : ١٢٠) . ثم إنــه كاتب الفرنج واستدعاهم ، وقال : يكون مجيئكم الى دمياط في البحر والبر . وبلغ أعيان دولة المصريين ذلك ، فاجتمعوا عند أسد الدين وقالوا : ان شاور فسادُ البلاد والعباد ، وقد كاتب الفرنج وهو سبب هلاك الإسلام .

ولما تأخر وصول الفرنج ، عزم [على][2] أن يعمل دعوةً لأسد الدين ومن

---

(١) يضيف ابن الأثير في التاريخ الباهر ١٣٩ أنه كذلك جمع من التركمان ستة آلاف فارس .

(٢) زيادة من ف .

معه من الأمراء ويقبض عليهم ، فنهاه ابنُه الكامل ، وقال : والله ان عزمت على هذا الأمر ، لأُعرفنّ أسد الدين ، فقال له أبوه : لئن لم نفعل هذا لنقتلنّ جميعاً ، فقال : صدقت ، ولكن نـُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيـد المسلمين ، خيرٌ من أن نـُقتل وقد ملكها الفرنج . وليس بينك وبين عَوْد الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضدُ الى نور الدين لم يُرسل فارساً واحداً ، ويملكون البلاد . فترك ما كان عزم عليه .

ولما رأى العسكر النوريّ المطل من شاور ، اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك [وغيرهما] على قتل شاور . وأعلموا أسد الدين بذلك ، فنهاهم ، فقالوا : ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله [فأنكر ذلك] [١]. واتـّفق أن أسد الدين سار الى زيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به ، فلقيه صلاح الدين وعزُّ الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر ، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : نمضي اليه . فساروا معه قليلاً ، ثم ألقوه عن فرسه وأخذ أسيراً ، وهرب أصحابه ، وسجنوه في خيمة ، وتوكلوا بحفظه . فعلم أسدُ الدين الحالَ ، فعاد سريعـاً ، ولم يُمكنه إلا إتمام ما عملوه. وأرسل العاضدُ في الوقت يطلب منه رأسَ شاور ويحثـّه على قتله ، فقـُتل وحُمل رأسه الى القصر . فأرسل العاضدُ الى أسد الدين خلعة الوزارة معها منشور مكتوب على طرته بخط العاضد ما صورته :

هذا [٢] عهد لم يعهد الى وزير بمثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهـلاً لحملها ، والحجـّة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبيله ، فخُذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعترف بخدمتـك بنو النبوة ،

---

(١) زيادة من التاريخ الباهر ، والروضتين .

(٢) راجع النص التالي في الروضتـين ج١ ق٢ / ٤٠٢ .

والتزم حقّ الأمانة تجد للفوز سبيلا[1]. (ولا تنقُضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتُمُ الله عليكُم كفيلا) (النحل : ٩١) .

ولقبه بالملك المنصور سلطان الجيوش . ثم لم يلبث أسد الدين أن حضرته المنيّة بعد خمسة وستين يوماً من ولايته ، فقلد العاضد بعده الأمر لصلاح الدين يوسف ، ولقّبه الملك الناصر ، وجهّز اليه خلعة الوزارة ، وهي : عمامةٌ بيضاء تنّيسي بطرف ذهب ، وثوب دبيقي بطراز دقيق ذهب ، وجبة تحتها سقلاطي بطراز ذهب ، وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرةُ آلاف دينار ، وسيفٌ محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجرة صفراء من مراكيب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها بطوق ، وسرفسار ذهب مجوهر ، [وفي رقبة الحجر مشدة بيضاء][2] وفي رأسها مئتا حبة جوهر ، وفي قوائمها أربع عقود جوهر ، وفي رأسها قصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة ، وفي رأسها شدة بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج من المسك، وعدة من الخيل وأشياء أخر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض . كذا ذكره في **الروضتين** . وكتب تقليده القاضي الفاضل ، وكتب العاضد على طرته :

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجّته عند الله عليك ، فأوفِ بعهدِك [ويمينك][3] ، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بيمينك . ولمن مضى بجدِّنا رسول

---

(١) في الروضتين : واتخذه للفوز سبيلا . أما نص المنشور فهو : من عبدالله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله امير المؤمنين الى السيد الأجلّ الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، وليّ الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، أبي الحارث شيركوه العاضدي ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، سلامٌ عليك ، فإنه يحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلّي على محمد خاتم النبيّين ، وسيّد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهديين ، وسلّم تسليماً .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) زيادة من ف .

الله ﷺ أحسنُ أسوة ، ولمن بقي لثقته بنا أعظمُ سلوة ، (تلك الدّارُ الآخرةُ نجعلـُها للذين لا يُريدون عُلـُوّاً في الأرضِ ولا فساداً والعـاقبةُ للمتّقين) (القصص : ٨٣) يعني بمن مضى أسد الدين ، وبمن بقي صلاح الدين . قال العماد : وهذا آخرُ منشورٍ طُويت به تلك الدولة وخُتمت ، وتبدّدت عقودُها وما انتظمت .

فقام صلاح الدين بالسلطنة أتم قيـام ، وتاب عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الدين ، وحفظ ناموس الشرع المتين .

ولما مات أسد الدين ، تطاول جماعةٌ من الأمراء النورية ، وكل منهم يطلب الأمرَ والوزارة لنفسه ، منهم الأمير عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين خسرو ابن تلـَيل [وهو ابن أخي أبي الهيجـاء الهذباني الذي كان صاحب اربل][1] وسيف الدين علي المشطوب ، وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين . فطلب العاضد لصلاح الدين وولاه الأمر ، وحمله على ذلك ضعف صلاح الدين ، وانه لا يجسر على مخالفته .

ولما عاد صلاح الدين إلى دار الوزارة ، لم يلتفت إليـه أولئك الأمراء ولا خدموه ، فقام بأمره الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وأمال اليه المشطوب . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقال له : إنّ صلاح الدين هو ابن أختك ، وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل اليك . ولم يزل به حتى أحضره إلى عنده وحلفه له . ثم عـاد إلى قطب الدين ، وقال له : إنّ صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبـق غيرُك وغيرُ الياروقي . وعلى كل حال يجمعُ بينك وبين صلاح الدين أن أصـله من الأكراد ، فلا تـُخرج الأمرَ منه إلى الاتراك ، ووعده زيادة إقطاعه ، فلان وحلف . ثم ذهب إلى عين الدولة الياروقي — وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً —

---

(١) زيادة من التاريخ البـاهر ١٤٢ .

فلم تنفعه رُقاه ، ولا نفذ فيه سحر ، وقال : أنا لا أخدم صلاح الدين يوسف أبداً ، وعاد الى نور الدين بمن معه . فأنكر عليهم فراقهم له . وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكُه .

قال ابن **أبي طي**[1] : ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ، مال اليه العاضد وأحبه محبةً عظيمة ، وبلغت محبته له أنه كان يدخل الى قصره راكباً ، فإذا حصل عنده أقام عنده اليوم والعشرة في قصره لا يُعلم أين مقره .

قال[2] : ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال اليه العاضد ، وبلغ ذلك نور الدين ، أعظم ذلك وأكبره ، وتأفف منه وأنكره ، وقال : كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري ! وكتب في ذلك عدة كتب ، فلم يلتفت الملك الناصر الى قوله ، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره ، وما فارق قبول رأيه وإشارته . وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج اليه ، وطلب منه حساب مصر وما صار اليه ، وكان يقول كثيراً : ملكَ ابن أيوب . انتهى !

قال صاحب **الروضتين**[3] : هذا كله مما تقتضيه الطبيعة البشرية والجبلّةُ الأدبيّة ، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك ، إلا من عصم الله ، ومن أنصف عذر . والذي أنكره نور الدين إفراطُ صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته ، هذا مع أنّ ابن طي متهم فيما نسبه الى نور الدين بما لا يليق به ، فإن نور الدين كان قد أذلّ الشيعة بحلب ، وأبطل شعارهم ، وقوّى أهل السنة . وكان والدُ ابن أبي طي من رؤوس الشيعة ، فنفاه من حلب . وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه متفرقاً في مواضع ،

---

(١) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٤٤٠ .

(٢) الحديث عن والد ابن أبي طي .

(٣) المرجع السابق ٤٤١ .

فلهذا كان(١) كثير التحمل على نور الدين رحمه الله ، فلا يقبل منه ما ينسبه اليه مما لا يليق به . انتهى .

وكان صلاح الدين في الصورة الظاهرة نائباً عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره . وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار [ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتبَ اسمه ، ولا يفرده في كتاب بل الأمير الاسفهسلار صلاح الدين] (٢) ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا او كذا .

واستمالَ صلاح الدين قلوب الناس ، فبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين جمعه ، ومما أعطاه العاضد . [فمال الناس اليه وأحبوه ، وقوي أمره ، وضعف أمر العاضد] (٣) . وأرسل صلاح الدين يطلبُ من نور الدين إخوته ، فلم يُجبه الى ذلك ، وقال : أخاف ان يخالفه أحد منهم فتفسد البلاد .

ثم ان الفرنج اجتمعوا ليسيروا الى مصر ، فسيّر نور الدين العساكر وفيهم أخو صلاح الدين شمسُ الدولة توران شاه ، وهو أكبر من صلاح الدين . فلما أراد ان يسير قال له : إن كنت تسير الى مصر وتنظر الى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فانك تفسد البلاد ، وأُحضرك حينئذ وأُعاقبك بما تستحقه ، وان كنت تنظر اليه انه صاحب مصر وقائم فيها مقامي ، وتخدمه كما تخدمني فسِرْ اليه ، واشدُد أزره ، وساعده على ما هو بصدده . فقال : افعل معه في الخدمة والطاعة ما يصِلُ اليك ان شاء الله .

قال ابن **أبي طي**(٤) : ولما ملك الملك الناصر مصر ، انتزع [نورالدين] (٥)

---

(١) في ف : هو .
(٢) من ف . ساقطة من ص .
(٣) زيادة من ف .
(٤) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٤٤١ .
(٥) زيادة من ف .

الرحبة وحمص من ناصر الدين ابن أسد الدين . ولقد كان نور الدين يتألم للملك الملك الناصر . ويقال انه لما مرض قال : ما أخطأتُ إلا في انفاذي أسد الدين الى مصر بعد علمي برغبته فيها ، وما يُحزنُني شيءٌ كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب. ثم التفت الى أصحابه فقال: اذا أنا مِتُّ فسيروا بابني إسماعيل الى حلب ، فإنه لا يبقى عليه غيرُها .

قال ابن أبي طي[1] : ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضّه ، غير أنه يلقاها بصدرٍ رحب وخلق عذب . حدّثني أبي عن ابن قاضي الدهليز – وكان من خواص الملك الناصر – قال : جرى يوماً بين يدي السلطان ذكرُ نور الدين ، فأكثر الترحُّمَ عليه ، ثم قال : والله لقد صبرتُ منه على مثل حزّ المُدي ووخز الإبر ، وما قدر واحدٌ من أصحابه أن يجد عليّ ما يعدُّه ذنباً . ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعدّها ذنباً فلم يقدر . ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يُصبر على مثلها لعلي أتضرر او أتغير ، فيكون ذلك وسيلةً الى منابذتي، فما أبلغته أربَه يوماً قط . انتهى .

وقد تقدّم جوابُ صاحب الروضتين قريباً ، وقال هنا[2] : وقد وقفت على كتاب بخطّ نور الدين الى ابن أبي عصرون يشكر فيه من صلاح الدين ، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي . ثم أورد لفظ الكتاب .

وفيها [3] قُتل الطواشي مؤتمن الخلافة ، وحصلت وقعة السودان بين القصرين وسببه أنه لما تملك صلاح الدين نقص إقطاع المصريين . وكان بالقصر

---

(١) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٤٤١ .

(٢) المرجع السابق ٤٤٢ .

(٣) راجع الخبر في الروضتين ج١ ق٢ / ٤٥٠ وما بعدها . والنص هنا مختلف في اللفظ أحياناً عن نص الروضتين .

طواشي يدعى مؤتمن الخلافة متحكم في القصر . فاجتمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ليقدموا الى الديار المصرية ليخرجوا الجيوش الشامية ويعرّفوهم بأنه اذا خرج عليهم صلاح الدين بمن معه ، أخرج المصريون من يبقى معه بالقاهرة . وجهّز الكتاب مع انسان ممن يثق اليه . فاتفق أن رجلاً من التركمان عبر البئر البيضاء ، فرأى مع انسان خلق الثياب نعلين جديدين ليس بهما أثرُ مشي . فأنكرهما وأخذهما منه ، وجاء به الى صلاح الدين ، ففتقهما ، فوجد [فيهما][1] مكاتبة الفرنج من أهل القصر ، يرجون بحركتهم حصول النصر . فأخذ الكتاب وفحص عن كاتبه ، فذُكر له أنه خَطّ شخصٍ من اليهود ، فأحضره ليسأله ويعاقبه عن كتابته . فلما حضر بين يديه نطق بالشهادتين ، ثم ذكر أن الآمر له بذلك مؤتمن الخلافة . فكتم صلاح الدين هذا ، فأسرّها يوسف في نفسه ، ولم يُبدها لهم . فاستشعر الطواشي أن صلاح الدين قد اطّلع على الأمر ، فلازم القصر مدة طويلة خوفاً على نفسه . ثم عنّ له في بعض الأيام أن خرج الى قصرٍ له بقرية يقال له الخرقانية بقرب قليوب وخلا فيه لـلذته ، فأرسل صلاح الدين اليه من قبض عليه وقتله وحمل رأسه اليه . ثم عزل جميع الخدم الذين بالقصر ، واستناب على القصر عوضهم بهاءَ الدين قراقوش ، وأمره أن يُطالعه بجميع الأمور صغيرها وكبيرها .

فلما حصل ذلك عاد السودان وثاروا [وكانوا أكثر من خمسين ألفاً ، فاقتتلوا هم وجيش صلاح الدين بين القصرين واستمرّ القتالُ يومين ، وقُتل كثير من الفريقين .

وكان العاضد يتطلّع من المنظرة ويُعاين الحرب من المنظرة بين القصرين][2] فقيل انه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ، ففعلوا . وقيل كان ذلك عن غير اختياره . فأمر شمس الدولة توران شاه

(١) زيادة من ف .
(٢) زيادة من ف .

[الزراقين] (١) بإحراق منظرة العاضد . فلما هموّا بذلك فتح باب المنظرة ، وخرج منه زعيم الخلافة ، وقال : أمير المؤمنين يسلّم على شمس الدولة ويقول : دونكم العبيد الكلاب [أخرجوهم من بين أظهركم ومن بلادكم] (٢) . وكان السودان قد قويت أنفسُهم بناء على أن العاضد راض بفعالهم. فلما سمعوا ذلك، ضعف جأشهم وقوي عسكر صلاح الدين . ثم ان صلاح الدين أرسل الى محلة السودان المعروفة بالمنصورة التي فيها دورهم وأهلهم بباب زويلة ، فأحرقها ؛ فولوا عند ذلك مدبرين . ووضع فيهم السيف ، فقُتل منهم خلق كثير . ثم طلبوا الأمان ، فأجيبوا الى ذلك ، وأخرجهم الى الجيزة .

وفيها (٣) قتل العاضد بالقصر الكامل وأخاه ابني شاور وعمهما ، وذلك أنهم لاذوا بالقصر . ولو أنهم جاءوا الى أسد الدين سلموا [فانه ساءه قتل شاور] (٤) قلت : رحم الله [الكامل] (٥) ابن شاور ، فان المرجو من الله أن يغفر له بقوله لأبيه لما همّ بمسك أسد الدين ونهاه عن ذلك : نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج كما قدمناه .

وفيها احترق جامع حلب فجدده نور الدين .

سنة ٥٦٥

فيها (٦) نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط . قال **ابن الأثير** : كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك ، فكاتبوا

---

(١) زيادة من الروضتين .

(٢) زيادة من ف .

(٣) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٤٥٥ .

(٤) زيادة من ف .

(٥) زيادة من ف .

(٦) راجع خبر دمياط في التاريخ الباهر ١٤٣ - ١٤٤ ، وفي الروضتين ج١ ق٢ / ٤٥٦ - ٤٦٠ .

الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستنجدونهم ويعرفونهم ما تجدّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين . وأرسلوا جماعة من القسس والرهبان يحرّضون الناس على الحركة ، فأمدّوهم بالمال والرجال والسلاح ، وقصدوا دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتّخذونها ظهيراً يملكون به ديار مصر . فلما نازلوها حصروها وضيّقوا على من بها ، فأرسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشد فيها كل من عنده، وأمدّهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله الى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وانه ان تخلّف عن دمياط ملكها الفرنج، وان سار اليها خلفه المصريون من مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه . فجهّز اليه نور الدين العساكر أرسالاً ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ، فصارت الجيوش يتبع بعضها بعضاً .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الفرنج ، فنهبها وأغار عليها واستباحها ، ووصلت الغاراتُ الى ما لم يكن يبلغه لخلو البلاد من ممانع .

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين بلادهم ونهبها واحرقها ، رجعوا خائبين ، ولم يظفروا بشيء . وهذا موضع المثل السائر : ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين . فوصلوا الى بلادهم ، فوجدوها خاوية على عروشها . وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً ، أخرج فيها صلاح الدين من الأموال ما لا يحصى . حُكي لي عنه انه قال : ما رأيت أكرم من العاضد . أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب [وغيرها] [1] . انتهى .

قال الذهبي : انّ اقامتهم بدمياط واحد وخمسون يوماً . وقال **الكتبي :**

---

(١) زيادة من ف .

ثلاثة وخمسون يوماً ، قال : وجيّش صلاح الدين الجيوش مع ابن أخيه تقيّ الدين عمر بن شاهين ، ومع خاله شهاب الدين محمود . ووقع في الفرنج الوباء والفناء ، فرجعوا بعد أن مات منهم خلقٌ كثير .

قال **العماد الكاتب**[١] : بلغني من شدّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط انه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاءَ من جُملة تلك الأحاديث حديثٌ مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يتبسم[٢] لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث . فغضب من ذلك وقال : اني لأستحيي من الله تعالى ان يراني متبسّماً والمسلمون محاصرون بالفرنج .

وفيها وصل نجم الدين أيوب الى مصر ، فخرج صلاح الدين وجميع الأمراء ، وخرج العاضد لتلقيه الى باب الفتوح عند شجرة الإهليلج إكراماً لوالده ، ولم تجرِ بذلك عادة . وكان من أعجب يوم شهده الناس . وخلع العاضد عليه ، ولقّبه الملك الأفضل ، وحمل اليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا .

وقال[٣] له صلاح الدين : يا أبتاه ، هذا الأمر لك ونحن بين يديك ، فقال له : يا ولدي ، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفوءٌ له ، فلا ينبغي أن يغيّر وضع السعادة ، فحكّمَه في الخزائن كلها . وكان رحمه الله كريماً يُطلق ولا يردّ .

وأقطعه صلاح الدين الاسكندرية ودمياط والبحيرة ، وأقطع شمس الدولة [تورانشاه] أخاه قوص وأسوان وعيذاب . وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف دينار وستين ألف دينار .

---

(١) راجع الخبر التالي في الروضتين ٤٥٩ ، وهو منسوب الى أبي شامة .

(٢) هكذا في الروضتين ، وفي ص : بالتبسّم .

(٣) راجع الخبر التالي في ابن شدّاد: سيرة صلاح الدين ٣٤ - ٣٥ .

وسبب توجه نجم الدين أيوب الى مصر أن صلاح الدين أرسل [في][1] طلبه من نور الدين ليكمل له السرور . وتجمع القصة مشاكلةً لما جرى للنبي يوسف عليه السلام . قاله **ابن شداد** .

قال ابن أبي طي[2] : ان سببه أنّ الخليفة المستنجد بالله أرسل من بغداد الى نور الدين يعاتبُه في تأخير إقامة الدعوة [له][3] بمصر ، فأحضر **الأمير نجم** الدين أيوب ، وألزمه الخروج الى الديار المصرية ، وحمّله رسالةً منها : « وهذا أمرٌ تجب المبادرة اليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة المنيلة قبل هجوم الموت ، وحصول الفوت ، لا سيّما وإمام الوقت متطلع الى ذلك بكليته ، وهو عنده من أعظم القربات » .

وفيها توجه نور الدين الى الكرك فنازلها ونصب عليها المناجيق ، وأقام عليها أربعة أيام ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا اليه ، وأن ابن الهنفري وابن الرفيق ، وهما فارسا الفرنج في وقتهما ، في المقدمة اليه . فرحل نور الدين نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج ، [فكانا في مائتي فارسٍ وألف تركبلي ، ومعهم من الراجل عالم كثير ، فلما قاربهما رجعا القهقرى الى من وراءهم من الفرنج][4] فقصد نور الدين وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه . ثم نزل الى البلقاء .

وفيها [قال] **ابن الأثير**[5] : وكان سبب توجّه نور الدين الى الكرك أنّ نجم الدين لما أراد التوجّه الى مصر ، اجتمع له من التجار ومن كان له مع

---

(١) زيادة من الروضتين ٤٦٥ .

(٢) راجع الروضتين ٤٦٥ - ٤٦٦ .

(٣) زيادة من الروضتين .

(٤) زيادة من الروضتين .

(٥) راجع التاريخ الباهر ١٤٤ . والنص هنا مختلف في اللفظ عن نص ابن الأثير .

صلاح الدين أنس ومودة ما لا يقدر ، فخاف نور الدين عليهم ، فسار الى الكرك ، وسار نجم الدين ومن معه من هناك .

وفيها [1] كانت الزلزلة الكبرى . لم يرَ الناس من أول الإسلام مثلها . عمّت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق والعواصم وانطاكية واللاذقية وجبلة وجميع بلاد الساحل الى الداروم ، وتهدّمت الأسوار والقلاع والدور ، وهلك من الناس ما يخرج عن العدد والإحصاء .

ووقع معظم دمشق ، وشرفات الجامع ، وسقف رؤوس المنابر ، وكانت تهتزّ مثل النخل في يوم ريح عاصف .

وكانت بحلب أعظم بحيث وقع نصف القلعة والبلد ، وهلك من أهلها ثمانون ألفاً تحت الردم . ولم يمت بدمشق إلا رجل واحد أصابه حجر وهو على درج جيرون لأن أهلها خرجوا الى الصحراء . قاله الكتبي في تاريخه : وبقي من نجا من أهل حلب لا يقدرون أن يأووا الى بيوتهم خوفاً من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة ، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فحضر نور الدين وأمر بعمارة ما تهدّم من البلاد والقلاع والأسوار والجوامع ، وأخرج من الأموال ما لا يقدر قدره ، ورتب في كل بلد طائفة صالحة من العسكر خوفاً من الفرنج خذلهم الله .

وأما بلاد الفرنج فإن الزلزلة فعلت بهم أيضاً قريباً من هذا ، وهم أيضاً خائفون على بلادهم من نور الدين . ووقعت قلعة حصن الأكراد . ولولا أنّ نور الدين كان بالبلقاء والفرنج قبالته لسار وأخذ حصن الأكراد . وجاءه ما أشغل قلبه من ناحية الشرق ، دمشق . أما الشرق فوفاة أخيه قطب الدين

---

(١) راجع الخبر التالي في المرآة ٢٧٩ - ٢٨٠ . لكن النص هنا يختلف في اللفظ عن المرآة .

مودود بالموصل ، وأما دمشق فوفاة العمادي ، وكان نائبه في حلب وغيرهـا ، وكانت له بعلبك وتدمر ، وكان عزيزاً عنده ، وصاحبه وحاجبه . وبلغه أيضاً وفاةُ مجد الدين بن الداية بحلب — وكان صاحب أمره .

وفيها [١] أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن . وكان قديمـاً عند [قبة] [٢] أبي سليمان الداراني ، فأحرقه الفرنج لما نزلوا على داريا أيام مجير الدين آبق ، فعمّره نور الدين هذه السنة ، وجعله وسط القرية ، وعمّر بها مشهد أبي سليمان الداراني .

وفيها كانت حروبٌ كثيرة بين ملوك العرب بجزيرة الأندلس وكذلك بين ملوك الشرق .

سنة ٥٦٦

فيها سار نور الدين الى سنجار ففتحها ، وهدم سورها بالمناجيق ، وسلـّمها الى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنـكي .

ثم [٣] سار الى الموصل — وكان بهـا سيف الدين غازي بن مودود — أخي نور الدين — باستخلاف من والده . وكان المتولي لأموره فخر الدين عبد المسيح، وهو المتحكم في المملكة ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا الاسم . وكان عبد المسيح هذا نصرانياً فأظهر الإسلام ، وكان يقال ان له كنيسةً في جوف داره . وكان سيءَ الخلق ، خبيث السريرة في حق المسلمين والعلماء خاصة . فراسل عبد المسيح نور الدين يسأله الرجوع وعدم التعرض للموصل ، فلم يلتفت نور الدين الى رسالته ، وقال له : قل لصاحبك : أنا أرفق ببني أخي منك ، فلا تدخـُل

---

(١) راجـع المـرآة ٢٨٠ .

(٢) زيادة من المـرآة .

(٣) راجع الخبر التالي مفصلاً في التاريخ البـاهر ١٤٤ والروضتـين ج ١ ق ٢ / ٤٧١ - ٤٧٣ ، ٤٧٦ .

بيننا ، وذكر له تهديداً كبيراً . وكان كل من في الموصل مع نور الدين، وكاتبوه بالوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد اليه . فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد اليه وتقريره على سيف الدين ، ويطلب الأمان لنفسه واقطاعاً يكون له ، فأجابه الى ذلك ، وقال : لا سبيل الى ابقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام ، فإني لم آت لآخذَ البلد من أولادي ، وإنما جئت لأخلّص الناس منه ، وأتولى أنا تربية أولادي . فاستقرت القاعدةُ على ذلك ، وسلمت الموصل اليه . وسكن القلعة ، وأقر سيف الدين غازي على الموصل ، وولّى قلعتها خادماً يقال له كمشتكين ، وجعله دزداراً [فيها ، وقسم جميع ما خلّفه أخوه قطب الدين بين أولاده] (١) بمقتضى الفريضة الشرعية .

ولما (٢) كان يحاصر الموصل ، جاءته خلعةٌ من الخليفة فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها علي ابن أخيه سيف الدين غازي ، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد . وأعطى الشيخ عمر الملاء ستين ألف دينار من فتوح الفرنج ، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل ، فبُني . وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً وسار الى الشام ، فقيل له : إنك تُحب الموصل والمقام بها ، ونراك أسرعتَ العود ، فقال : قد تغيّر قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ولمعنى آخر(٣) أنني ههنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد . كذا قاله صاحب **الروضتين** .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير(٤) : إن نور الدين لما كان في آخر ليلة من إقامته بالموصل رأى النبي ﷺ في النوم وهو يقول له : طابت لك بلدُك ، وتركتَ الجهاد وقتالَ أعداء الله ! فنهض من فوره الى السّفر ، وما أصبحَ إلا

---

(١) زيادة من ف .

(٢) راجع النص التالي في الروضتين ٤٧٧ - ٤٧٨ .

(٣) في الروضتين : ويعنى أيضاً .

(٤) راجع البداية والنهاية ، ١٢/٢٦٣ .

سائراً الى الشام، واستقضى الشيخ أبا سعد بن أبي عصرون وكان معه على سنجار ونصيبين والخابور، فاستناب فيها ابنُ أبي عصرون نواباً [وأصحاباً][1] وأخذ معه عبد المسيح الى دمشق، وغير اسمَه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً حسناً.

وفيها[2] كانت وفاةُ أمير المؤمنين المستنجد بالله وخلافةِ ابنه المستضيء، وذلك أن المستنجدَ كان مرض في هذه السنة ثم عوفي، فعمل ضيافةً عظيمةً بسبب ذلك وفرح الناس.

وكان[3] قد تغيّر على قطب الدين قيماز، مقدم جيوشه، وعلى ولده المستضيء، وأمر في مرضه بالقبض عليهما. فبلغ قيماز ذلك، فخلا بابن صفيّة الطبيب، وقال له: لا بد من التدبير في الخلاص منه وإلا فعلتُ بك وصنعت. قال: لا شيءَ أضر عليه من الحمام، قال: فأَشِرْ به عليه، فأشار عليه، فقال: لستُ أريده ولا أطيق الحرارة، وطال الأمر على قيماز، فدخل على المستضيء واستوثق منه باليمين، ثم دخل إلى الدار قهراً، وحمل المستنجدَ في فراشه، وأدخله الحمام وهو يستغيث ويقول: لا أريده، وقيماز يقول له: يا مولانا، هذا هو الذي ينفعُكَ ولا بُدّ منه. ولما حصل في الحمام أغلق الباب حتى مات رحمه الله. وكان حسنَ السيرة، فيه محبةٌ لأهل العلم والخير واكرامٌ لهم وإحسان اليهم، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، فطناً ذكياً فصيحاً. يحكى عنه أنه التقى ابن شبيب [في البريّة فقال له: ابن شبيب؟ فقال: عبدك يا أمير المؤمنين. أراد الخليفة أين شبيب، وأراد ابن شبيب عندك][4].

---

(١) زيادة من البداية والنهاية.

(٢) مرجع الخبر التالي هو البداية والنهاية ١٢ / ٢٦٢.

(٣) راجع بقية الخبر في المرآة ٢٨٤ – ٢٨٥. بلغ المستنجد – كما يقول صاحب المرآة – أن قيماز يجتمع بالأمير أبي محمد الحسن بن المستنجد المستضيء وأن بينهما مراسلات، فتغير على قيماز وعلى المستضيء.

(٤) العبارة غير واضحة في ص وغير كاملة. الزيادة من ف ولكن التنقيط غير واضح فقرأنا العبارة على هذا النحو.

وكان رحمه الله من خيار الخُلفاء وأعدلهم وأرفقهم بالرعايا ، وضع عنهم المكوس والضرائب ، ولم يترك بالعراق مكساً . وكان شديداً على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس . قال **ابن الأثير**[1] : بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات ، فأطال حبسه ؛ فحضر بعضُ أصحابه وشفع فيه ، وبذل له عشرة آلاف دينار ، فقال له : أنا أُعطيك عشرة آلاف دينار وتُحضر لي إنساناً مثله أحبسه وأكفّ شره عن الناس .

قال **الشيخ عماد بن كثير**[2] : إن المستنجد رأى النبي ﷺ غير مرة . وكان آخرهن قبل أن يلي بأربعة أيام وهو يقول له : قل اللهم أهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، دعاء القنوت بتمامه .

وقال **الذهبي**[3] : إنه ما زالت الحمرةُ الكثيرةُ تعرض في السماء عند مرض المستنجد ، وكانت ترمي ضوءها على الحيطان .

وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً[4] ، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس ، وهذا العددُ له بحساب الجمل اللام والباء . وفيه يقول بعض الأدباء :

أصبحت لب بني العباس كلهم
إذا[5] عددتَ حساب[6] الجمل الخلفا

---

(١) راجع التاريخ الباهر ١٥٢ .
(٢) راجع البداية والنهاية ٢٦٢/١٢ .
(٣) فحوى الخبر التالي في المرآة ٢٨٤ .
(٤) في الروضتين و التاريخ الباهر : إحدى عشرة سنة وستة أيام .
(٥) في ص : إن .
(٦) في ص : بحساب .

وولي[1] بعده ابنه المستضيء أبو محمد الحسن ، وخلع يومئذ على الناس أكثر من ألف خلعة ، وأطلق الأموال للأمراء العلويين والهاشميين والقضاة والعلماء ، وردّ المظالم وأسقط المكوس .

قال ابن الجوزي : وأظهر في العدل والكرم ما لم نره في الأعمار . قال : واحتجب فلم يركب إلا مع الخدم . ولم يلِ الخلافة من اسمه الحسن وكنيته أبو محمد غيرُ الحسن بن علي رضي الله عنهما والمستضيء .

وفيها عزل صلاح الدين قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة ، وولي قضاءَ القضاة لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي ، فاستناب في سائر المعاملات قضاةً شافعية [2] . وبنى صلاح الدين بالقاهرة موضع شجر المعونة مدرسة للشافعية . وبنى [بالقرب من] [3] دار العدل مدرسة للمالكية .

وفيها [4] اشترى تقيُّ الدين بن عمر شاه بن شاهنشاه منازل العز بمصر ، وعملها مدرسة للشافعية ، ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرهما .

وفيها بني الملك الناصر دار سعيد السعداء — خادم من خدام القصر — خانقة للصوفية ، وصنع بيمارستانا للمرضى . وبنى على[5] تربة الشافعي رضي الله عنه بالقرافة مدرسة .

وفيها خرج صلاح الدين إلى الغزاة ، وأغار على الرملة وعسقلان ، وهاجم ربض غزة . وكان بأيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل الكفر ، فعمر لها

---

(١) نقل المؤلف هنا بتصرف من المرآة ٢٨٢ .

(٢) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٤٨٦ والمرآة ٢٨٣ .

(٣) زيادة من المرآة .

(٤) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٤٨٧ .

(٥) في ص : عليها .

مراكب ، وحملها الى الساحل على الجمال ، وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالرجال والعدد . [وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر ، واستحلّها ، واستباح بالقتل والأسر أهلها ، وملأها بالعدد والعدد ، وحصنها بأهل الجلاد والجلد] [1] وكان على الحاج منهم خطر عظيم .

وفيها[2] توجه صلاح الدين إلى الاسكندرية، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها ، وسمع بها حينئذ من السلفي .

وفيها [3] شرع صلاح الدين بعمارة سور القاهرة لأنه قد تهدم أكثره ، وصار طريقاً لا يردّ داخلاً ولا خارجاً ، وولاه لقراقوش الخادم .

وفيها أمر بتغيير شعار الإسماعيلية ، وقطع الآذان بحيّ على خير العمل من ديار مصر كلها . وشرع في تمهيد [أسباب] [4] الخطبة لبني العباس .

وفيها ظهر بدمشق مغربي ادعى الربوبية ، وأرى الناس خوارق من السحر ، فضربت عنقه .

سنة ٥٦٧

فيها [5] خطب لبني العباس . وسببه أن صلاح الدين لما استولى على مصر وضعف أمر العاضد ، كتب اليه نور الدين يأمره بقطع خطبة المصريين [6]

---

(١) زيادة من الروضتين ج١ ق٢ / ٤٨٦ .

(٢) راجع الخبر التالي مطولاً بعض الشيء في الروضتين .

(٣) راجع الروضتين ٤٨٨ .

(٤) زيادة من الروضتين .

(٥) راجع الخبر التالي في التاريخ الباهر ١٥٦ — ١٥٧ .

(٦) هكذا في ص : ولعلها في الأصل : بقطع خطبة العلويين .

وإقامتها لبني العباس ، فخاف من أهل مصر أن لا يجيبوه إلى ذلك لميلهم الى العلويين ، وربما وقعت فتنة لا تتدارك . فكتب إلى نور الدين يخبره بذلك ، فلم يصغ إلى قوله . وأرسل اليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه . واتفق أن العاضد مرض، فجمع صلاح الدين الأمراء والأعيان فاستشارهم [كيف الابتداء بالخطبة العباسية][1] فمنهم من أجاب ، ومنهم من خاف ذلك . إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين . وكان قد دخل الى مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم . فلما رأى ما هم عليه من الاحجام ، قال : أنا أبتدىء بها . فلما كان أول جمعة من المحرم[2] صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله ، فلم يُنكر أحدٌ ذلك عليه. فلما كان الجمعة الثانية، أمر صلاح الدين الخطباءَ بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك الى سائر البلاد المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلم بذلك . وقيل بلغه فأرسل الى صلاح الدين يستدعيه ليوصي اليه ، فخاف أن تكون خديعة ، فلم يذهب اليه [فلما توفي علم صِدْقَه ، فندم على تخلّفه عنه][3] ومات العاضد يوم عاشوراء . كذا قاله **ابن الأثير** .

وقال **ابن أبي طي الحلبي**[4] : لما عوّل صلاح الدين على الخطبة لبني العباس ، أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول الى الجامع في جماعة من أصحابه وأمراء دولته ، وذلك في أول جمعة من السنة ، وأمره أن يُحضر الخطيب اليه، ويأمره

---

(١) زيادة من التاريخ الباهر .

(٢) الكلام من هنا زيادة من ف سننبه الى نهايته .

(٣) زيادة من الروضتين ج١ ق٢ / ٤٩٤ .

(٤) راجع الخبر التالي في الروضتين ج١ ق٢ / ٤٩٩ .

بما يختاره . وإنما فعل ذلك الملك الناصر ووكل الأمر الى غيره استظهاراً خوفاً من فادحة ربما طرأت ، أو عدو ربما ثار ، فيكون هو معتذراً من ذلك .

ولما حضر الخطيبُ عند نجم الدين قال له : ان ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك ، قال : فلمن أخطب ؟ قال : للمستضيء العباسي . فلما[1] صعد المنبر ، وخطب ، ووصل الى ذكر الخليفة لم يذكر أحداً ، لكنه ذكر الخلفاء والأئمة المهديين والسلطان الملك الناصر ، ونزل . فقيل له في ذلك ، فقال : ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته ، ولا تقرر معي في ذلك قبل الجمعة ، وفي الجمعة الثانية أفعل ان شاء الله تعالى ما يجب فعله من تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك .

قال[2]: وقيل ان العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال: لمن خطب ؟ قيل له : لم يخطب لأحد مسمّى ، قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى . واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية . قيل إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات . وقيل إنه لما سمع ذلك اهتم وقام ليدخل الى داره فعثر وسقط ، فأقام[3] متعلّلاً خمسة أيام ومات . وقيل انه امتص فصّ خاتمه وكان تحته سم فمات . ولما[4] اتصل موته بالملك الناصر قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة . فحُكي أن القاضي الفاضل قال للسلطان : لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت [إشارةً الى أن العاضد قتل نفسه . وكان موته يوم عاشوراء][5] .

---

(١) انتهت الزيادة من ف .
(٢) أي ابن أبي طي. راجع الروضتين ، ج١ ق٢ / ٤٩٩ .
(٣) هكذا في الروضتين ، وفي ص : فقام .
(٤) تتمة رواية ابن أبي طي .
(٥) زيادة من الروضتين .

قال[1] : وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير قال : من أعجب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسانٌ من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر ، والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول ، فيهب أدنى نسيم فيحركها ، وأنه حركها وظلها في الأرض . وكان الرجل يتعجب من ذلك ، وكأنه[2] سمع أصوات جماعة يقرأون بأصوات وألحان لم يسمع قط مثلها فسأل من حضر ، وقال : ما هذا ؟ فقالوا : استبدل الناس بإمامهم . قال : وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برّاً تقياً . واستيقظ الرجل وبلغ المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد ، فعبّر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به ، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية [السوداء] [3] . وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين الى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر ، وتكون الخطبةُ لبني العباس بها على يده . وقيل في ذلك الزمان أشعار في [هذا] [4] المعنى ، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن بركات ، وكان صاحب ابن هبيرة ، قالها حين سمع تأويل المنام :

لتهنك يا مولى الأنام بشارةٌ ... بها سيفُ دين الله بالحق مرهفُ
ضربتَ بها هامَ الأعادي بهمةٍ ... تقاصرَ عنها السمهريُّ المثقف
بعثتَ إلى شرق البلاد وغربها ... بعوثاً من الآراء تحيي وتتلفُ
فقامت مقامَ السيف والسيفُ قاطر ... ونابت منابَ الرمح والرمحُ يرعفُ
وقدتَ لها جيشاً من الروع هائلا ... الى كل قلب من عِداتك يزحف

---

(١) أي ابن أبي طي .
(٢) هكذا في ف ، وفي ص : وكأن .
(٣) زيادة من الروضتين .
(٤) زيادة من ف .

ملكتَ به أقصى المغارب عَنْوة ... وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يا مولاي فتحاً تتابعت ... اليك به خوص الركائب توجفُ
أخذتَ به مصراً وقد حال دونها ... من الشرك ناسٌ في لهى الحق تقذفُ
وقد دنّست منها المنابرَ عصبةٌ ... يعاف التقى والدينُ منهم ويأنفُ
فطهرها من كل شرك وبدعةٍ ... أغرُّ عزيزٌ بالمكارم يشغفُ
فعادت بحمد الله باسم إمامنا ... تتيه على كل البلاد وتشرُفُ
ولا غرو أن دانت ليوسف مصره ... وكانت الى عليائه تتشوّفُ
تملكها من قبضة الكفر يوسف ... وخلصها من عصبة الرفض يوسفُ

قال يحيى بن أبي طي : يريد بيوسف الأول يوسف الصديق عليه السلام ، وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ . وقاله على سبيل الفأل ، ألا تراه قال بعد هذا البيت :

فشابهته خَلقاً وخُلقاً وعفة ... وكل عن الرحمن في الأرض يخلف

وجرى الفألُ في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس وهذا من عجيب الاتفاق .

قال العماد[1] : ولما توفي العاضد جلس السلطان الملك الناصر للعزاء ، وأغرب في الحزن والبكاء ، وبلغ الغايةَ في إجمال أمره ، والتوديع له إلى قبره ، ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه . وكان مذ قُتل مؤتمن الخلافة قد وكّل السلطان بالقصر بهاءَ الدين قراقوش ، وجعله زمامه ، واستنابه مقام نفسه وأقامه فما دخل القصر شيء وخرج إلا بمرأى منه ومسمع ، ولا حصل

---

(١) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٤٩٤ .

أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع . فلما توفي العاضد ، أمر السلطان بالاحتياط على أولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد ، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والازواد ، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم في إيوان ، واحترز عليهم في ذلك المكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا . وهم الى الآن محصورون محشورون لم يظهروا . [وقد نقص عددهم ، وقلص مددهم] [١] . وأتم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد ، والعدة والعديد ، والطريف والتليد ، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن . وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن . وأخلى دوره وأغلق قصوره ، وسلّط جوده على الموجود . وأبطل الوزن والعدّ عن الموزون والمعدود ، وأخذ ما صلح له ولأهله من أخيار الذخائر ، وزواهي الجواهر ، ونفائس الملابس ، ومحاسن العرائس ، وقلائد الفرائد ، والدرة اليتيمة ، والياقوته العالية الغالية القيمة ، والمصوغات التبرية ، والمصنوعات العنبرية ، والأواني الفضية .

ووصف العمادُ أشياءَ عديدة ثم قال : وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق ، ولبيس وسحيق ، وبال وأسمال ، ورخيص وغال ، وكل منقول ومحمول ، ومصوغ ومعمول ، واستمر البيع منها مدة عشر سنين ، وتنقلت الى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين .

قال ابن أبي طي[٢] : لما تسلم القصر لم يجد من المال كبير أمر ، لأن شاور كان قد ضيّعه في إعطائه الفرنج في المرات التي تقدم ذكرها . ووجد فيه ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر . ومن عجيب ما وجد [فيه] [٣] قضيب زمرد طوله شبر وكسر قطعة واحدة ، وكان سمكُ

---

(١) زيادة من الروضتين .

(٢) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٥٠٦ .

(٣) زيادة من ف .

حجمه مقدار الإبهام . ووجد فيه طبل للقولنج إذا ضرب عليه أحـد في باطنه ريح غليظ او غيره خرج منه ذلك الريح من دبره . ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع . ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر . وأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه ، وأمر صانعاً ليقطعه ، فأبى الصانع قطعه ، فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع ، ففرقه على نسائه .

وأما طبل القولنج ، فأخذه بعض الأكراد ولم يدر ما هو ، فضرب بـه فحبق – أي ضرط – ولم يدر ما شأنه فكسره .

وأما الإبريق فأنفذه السلطان الى بغداد . وفرق على الأمراء أشيـاء كثيرة من قطع البلخش والياقوت والذهب ، ثم باع الباقي .

قال **الكتبي في تاريخه** : كان في القصر من الجواهر النفيسة مـا لم يكن عند خليفة ولا عند ملك مما قد جمع على طول السنين . فمنها الدرة اليتيمة مثل بيضة الحمام ، والياقوتة الحمراء [وتسمى حافر الحمار] (١) وزنها أربعة عشر مثقالاً ، والجبـل الياقوت الأحمر . وأرسل الى نور الدين من ذلك عدةً من الأمتعة المستحسنة ، والآلات المثمنة ، وقطـع البلور واليشم ، والأواني التي لا يتصور وجودها في الوهم ، وثلاث قطع من البلخش أكثرها نيف وثلاثون مثقـالاً ، [والثاني ثمانية عشر مثقالاً] (٢) والأخرى دونهما . وفرق بها من اللالىء مصونها ومكنونها ، ومن الذهب ستين ألف دينار ، ومن الطيب والعطر مـا لم يُسمع بمثله . ومن ذلك عمامة القائم بطيلسانه . فلمـا حضرت بين يدي نور الدين – وكان بحلب – قال : والله ما كان بنا حاجة الى هذا . ما وصل الينـا عشر معشار ما انفقناه في العساكر التي جهزناها الى مصر . ومـا قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل .

---

(١) زيادة من ف .
(٢) زيادة من ف .

ومن[1] جملة ما بيع خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا . يقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريـــخ الطبري : ويقال انها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف مجلد. وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة . وحصل القاضي الفاضل نخبها . وذلك أنه دخل اليهـا واعتبرها ، وكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة هناك ، فلمـــا فرغ الناس من شراء الكتب ، اشترى هو تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرمة . ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما حصل من الكتب قريباً من مـائة وعشرين ألف مجلد .

قال **ابن الأثير**[2]: كان فيه من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

قال ابن أبي طي[3]: واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه ، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة ، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري . ونقل الملك العادل الى مكان آخر منه ، وأخـذ باقي الأمراء [دور] [4] من كان ينتمي اليهم ، وزاد الأمر حتى صار كلٌ من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها . وانقضت تلك الدولة برمتها ، وذهبت تلك الأيام بجملتها ، بعد أن كانوا قد احتووا على البـــلاد ، واستخدموا [العباد] [5] مائتين وثمانين سنة وكسوراً .

---

(١) راجـع الروضتـين ج١ ق٢ / ٥٠٧ .

(٢) راجـع التاريخ البـاهر ١٥٧ .

(٣) راجـع الروضتـين ج١ ق٢ / ٥٠٧ .

(٤) زيادة من ف .

(٥) زيادة من ف .

قال – أي ابن أبي طي[1] : وحُكي أن الشريف الجليس - وكان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدثه – عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب، أخي السلطان، بعد [القبض على القصور وأخذ ما فيها] [2] وانقراض دولتهم ، وحضر معه جماعة من أكابر الأمراء . فلما جلسوا على الطعام ، قال شمس الدولة للشريف : حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم . قال : نعم ، طلبني العاضد يوماً [وجماعة من الندماء] [3] ، فحضرت مع جماعة ، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية من أقبيتكم ، وقلانس كقلانسكم ، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم ، فقلنا له : يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذي ما رأيناه قط ؟ فقال : هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ، ويأخذون ذخائرنا وأموالنا .

قال – أي ابن أبي طي[4] – ولما قطعت خطبة العاضد ، استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم ، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم ، وإذا وجدَ أحدٌ من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه . وعظمت الأذية بذلك ، وجلا أكثر أهل مصر عنها الى البلاد . وفرح الناس بذلك ، وكتبت الكتب به الى الأقطار ، وتحدّث به السمّار .

ولما [5] وصل خبر ذلك الى نور الدين ندب للبشارة به الى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهّر بن أبي عصورن ، وكتب معه نسخة بشارةٍ تُقرأ بكل مدينة يمر فيها . فسار الى أن وصل بغداد ، فخرج الموكب في تلقّيه ، وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده ، معظمين لجليل مورروده ، ونثرت عليه

---

(١) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٥٠٧ – ٥٠٨ . النص هنا مختصر بعض الشيء .

(٢) زيادة من الروضتين .

(٣) زيادة من الروضتين .

(٤) راجع الروضتين ج١ ق٢ / ٥٠١ .

(٥) اختصر ابن قاضي شهبة الخبر ، ولم يورد نص البشارة .

دنانير الإنعام، وحبي بكل إحسان وإكرام . وأرسلت التشريفات الى نورالدين وصلاح الدين .

قال الذهبي في **تاريخ الاسلام**[1] : ووصل الاستاذ عمـــاد الدين صندل الطواشي الى دمشق رسولاً من دار الخلافة في جواب البشارة بالخلع والتشريفات لنور الدين ولصلاح الدين . فلبس نور الدين الخِلعة وهي فرَجية ، وجبـة ، وقباء ، وطوق ذهب ألف دينار ، وحصان بسرج خاص ، وسيفان ، ولواء ، وحصان آخر بحليته ، ونجيب بين يديه . وقلد السيفين إشارة الى الجمـع له بين مصر والشام ، وخرج الى دست السلطنة واللواء منشور ، والذهب منثور الى ظاهر دمشق . وانتهى الى آخر المدينة . ثم عاد وسيّر الى صلاح الدين تشريفاً فائقاً[2] ، لكنه دون تشريف نور الدين [بقليل][3] ، وكان أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية ، وقضى أهلها العجب . وكان معها أعلام وبنود وأهب عباسية للخطباء بمصر .

وسيّر الى العماد الكاتب خلعة ومائة دينار من الديوان .

فائدة[4] : العاضدُ آخر خلفاء العُبيديين ، وكان قاطعاً لدولتهم ، لأن العاضد في اللغة القاطع . لا يعضد شجَرَها أي لا يقطع . يقال إن المعزّ لما أتى الى القاهرة قال لديوان الانشاء : أكتبوا لنا ألقاباً يصلح لنـــا أن نتلقب بها ، فكتبوا له ألقاباً آخر ما كان فيها لقب العاضد ، وهو اتفاق غريب ، وفـــأل عجيب .

---

(١) راجع أيضاً نص « البرق » عن جواب البشارة في الروضتين ج١ ق٢ / ٥٠٥ .

(٢) في ص : تشريف فائق .

(٣) زيادة من ف .

(٤) يورد المؤلف في هذه الفائدة نبذة موجزة عن الخلفاء الفاطميين . وتحامله عليهم فيها واضح . وقد أوردناها هنا لا لأننا نوافقه على كل ما جاء فيها وانما للأمانة العلمية .

واسم العاضد عبد الله . ولد سنة ست وأربعين [وبويع له سنة خمس وخمسين وعمره تسع سنين . وعاش إحدى وعشرين سنة][1] وخلافته[2] إحدى عشرة سنة ، وما نقلناه من كون مولده سنة ست [وأربعين وخمسمائة] قاله ابن كثير . قال الكتبي : ولد سنة أربع وأربعين ، وعاش ثلاثاً وعشرين سنة . وكانت سيرته مذمومة ، وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كل من يقدر عليه من أهل السنة فعل . وكان هؤلاء الطائفة يدعوا شرفاً فاطميين ، فملكوا البلاد وقهروا العباد . وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف انهم بنو عبيد، وكان والد عبيد [هذا][3] من نسل القداح الملحد المجوسي . وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام ، وكان حداداً . وعبيد هذا كان اسمه سعيداً ، فلما دخل المغرب سُمي بعبيد الله وزعم أنه علوي فاطمي ، وادعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية . ثم ترقب الحال الى أن ملك وتسمي بالمهدي ، وبنى المهدية بالمغرب ونسبت اليه . وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للاسلام متظاهراً بالتشيع ، مستتراً به ، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية . قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة . كان يرسل على الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم . وكان ما قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم (ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون) (التوبة : ٣٢)[4]

وكان له شيعة ببغداد وخراسان . وكانوا يرجفون أن المهدي يظهر بالمغرب ويغلب على الأرض كلّها . وكان له دعاةٌ بالمغرب يدعون الناس اليه وإلى

---

(١) زيادة من ف .

(٢) في ص : وعاش .

(٣) زيادة من ف .

(٤) الآية الكريمة غير كاملة في ص .

طاعته ، ويأخذون عليهم العهود ، ويُلقون الى النــاس من أمره بحسب عقولهم واحتمال كل طبقةٍ منهم ، فمنهم من يُلقون اليه أنه المهدي ابن رسول الله وحجة الله على خلقه ، ومنهم من يلقون اليه أنه الله الخالق الرازق . وكان إذا ضـجّ الناس من هذا ، أخذ الدعاة ، فمرة يحبسهم ، ومرة يقتلهم ويقول : ما أمرت بهذا ، ويقول الدعاة : هو أمرنا ، وبأمره فعلنا ، وله أن يمتحننا . وبقي هذا البلاءُ على الإسلام من أول دولتهم الى آخرها ، وذلك من ذي الحجة سنة تسعٍ وتسعين ومائتين الى هذه السنة .

وفي أيامهم كثرت الرافضـــة ، واستحكم أمرهم ، ووُضعت المكوس على الناس ، واقتدى بهم غيرهم . وأُفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدرزية . والحشيشية نوع منهم ، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم .

وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة حتى أخـذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك الشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وانطاكية وجميـع ما والى ذلك الى بلاد سيس [١] ، واستحوذوا على بلاد آمد والرها ورأس العين وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين خلقاً مما لا يحصيهم إلا الله . وسبوا ذراري المسلمين من النساء والولدان مما لا يحد ولا يوصف. وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن الله سلّم لما منّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي ومن يلوذ به مثـــل صلاح الدين ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد . وكانوا أربعة عشر مستخلفاً عدة خلفاء بني أمية ، لكن بني أمية كانت مُدّتهم نيفاً وثمانين سنة . كان ثلاثة من هؤلاء

---

(١) اتخذها روبن مؤسس دولة أرمينية الصغرى قاعدة لملكه حوالى ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م) راجع جي لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمه بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد، ١٩٥٤) ص ١٧٣ .

المستخلفين بافريقية ، وهم[1] الملقبون بالمعزّ والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد. فالمهدي تولى خمساً وعشرين سنة [ثم ولى بعده ابنه القائم بالله اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر] [2] وكان أسوأ حالاً من أبيه ، وزاد شرُّه على شرّه أضعافاً مضاعفة ، جاهر - لعنه الله - بشتم الأنبياء . وكان ينادي في الأسواق بافريقية والمهدية : العنو عائشة وبعلها ، العنو الغار ومن حوى ، وقتل الفقهاءَ والعلماء القتل الذريع .

[ثم تولى بعده ابنه المنصور بالله سبع سنين وستة عشر يوماً] [3] .

ثم تولى بعده المُعز لدين الله ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وله بُنيت مدينة القاهرة ، وهو أول من خطب له بمصر منهم ، وأذّن فيها بحيّ على خير العمل .

ثم تولى بعده ابنه العزيز بالله إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر .

وتولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله ، وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر ، خمساً وعشرين سنة وشهراً ، وكان أسوأهم سيرة ، وأقبحهم سريرة ، وكان يجري منه ما لو جرى من الصبيان حالة لعبهم لاستنكر . ولنذكر شيئاً من أفعاله القبيحة وسيرته الملعونة أخزاه الله تعالى . كان قبحه الله كثير التلوُّن في أقواله وأفعاله . وكانت أخلاقه متضادة بين شجاعةٍ وإقدام ، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلحاء وقتل الصلحاء . والغالب عليه السخاء ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد . ولبس الصوف سبع سنين ، وامتنع من دخول الحمام ، وبقي ثلاث سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ثم

---

(١) هكذا في ص ، ويقصد الباقين .

(٢) زيادة من ف .

(٣) زيادة من ف .

عنَّ له أن لا يجلس إلا في الظلمة . وكان يتوصّل الى القتل بكل حيلة ، وقتل من العلماء والكتّاب ما لا يحصى . وجرى في أيامه أمور كثيرة عجيبة . منها أنه أمر بسبِّ الصحابة رضي الله عنهم ، وأمر ان يكتب ذلك على أبواب المساجد والشوارع . ثم محاه ونهى عنه . ثم أمر بقتل الكلاب ، ثم نهى عنه . ونهى عن صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها، وهدم قمامة وبنى مكانها مسجداً، ثم أعلاها كما كانت أولاً ، وبنى المدارس وجعل فيها العلماء والمشايخ ، ثم هدمها وقتلهم . وكانت أفعاله كلُّها من هذه النسبة . ومنها انه كان يعمل الحسبة بنفسه ، فيدور في الأسواق على حمار له ، فمن غشَّ في معيشته أمر عبداً أسود يقال له مسعود ان يفعل به الفاحشة العظمى ، ولم يسبق الى هذا الأمر المنكر غيره عثره الله . ومنها انه منع النساء من الخروج الى الطرقات ليلاً ونهاراً ، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف المتخذة للنساء ، ولم تزل النساء ممنوعات من الخروج الى الطرقات الى خلافة الظاهر ، قال **ابن خلكان**(١) : وكانت مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر . ومنها انه أمر بغلق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً ، فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً . حتى مرّ يوماً بشيخ يعمل النجارة بعد العصر ، فوقف عليه وقال : ألم أنهكم عن هذا ؟ فقال : يا سيدي ، ما كنا نسهر لما كنا نتعيش في النهار ، فهذا من جملة السهر . فتبسم وتركه ، وأعاد الناس الى أمرهم الأول . ومنها انه نهى عن أكل الملوخية والجرجير وعلّل تحريم الملوخية بميل معاوية اليها ، وعلّل تحريم الجرجير بكونه منسوباً الى عائشة رضي الله عنها ، وعذره قبحه الله أنحس من ذنبه . واطلع على جماعة أكلوا الملوخية ، فضربهم بالسياط ، وطاف بهم القاهرة، ثم ضرب رقابهم على باب زويلة . ومنها انه نهى عن بيع الرطب ، وجمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه . وكان مقدار النفقة على إحراقه خمسمائة دينار . ونهى عن بيع العنب ، وأنفذ شهوداً الى الجيزة ومعاملها حتى قطعوا أشياء كثيرةً من كرومها ورموها الى الأرض، وداسوها

---

(١) راجع سيرة الخليفة الفاطمي الحاكم في وفيات الاعيان ٤ ، ترجمة ٧١٣ .

بالبقر . وجمع ما كان في مخازنها من جرار العسل فحُملت الى شاطىء النيل وكُسرت وقُلبت في البحر . ونهى عن بيع الزبيب على اختلاف أنواعه ، ومنع الناس من حمله الى مصر . ثم جمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه . ونهى عن بيع السمك الذي لا قشر له ، ثم ظفر بمن باعه فقتله .

ومنها أنه أمر النصارى أن تحمل في أعناقهم الصلبان ، وأن يكون طول الصليب ذراعاً ، وزنته خمسة أرطال ، وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامي خشب زنة الصلبان ، وأن يلبسوا العمائم السود ، ولا يكتروا من مسلم حماراً ولا بهيمة . ثم أفرد لهم حمامات ، وأمرهم أن يدخلوا اليها والصُّلبان والقرامي في أعناقهم ، وأمرهم في وقت بالدخول في الإسلام كرهاً ، ثم أمرهم بالعود الى أديانهم ، فارتدّ منهم في سبعة أيام ستةُ آلاف نفر ، وخرّب كنائسهم ثم أعادها . وكان يفعل ذلك اختباراً لطاعة العامة ليترقّى الى ادعاء الربوبية كما ادعاها فرعون في زمن موسى عليه السلام .

وكان أمرُ الرعية إذا ذكره الخطيبُ على المنبر أن يقوم الناسُ صفوفاً احتراماً لاسمه . وكان يفعلُ ذلك في سائر مملكته حتى في الحرمين الشريفين . وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خرّوا سجداً حتى إنه يسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم .

ثم ادعى الربوبية وكتب له : بسم الحاكم الرحمن الرحيم . وصار قوم من الجهّال إذا رأوه يقولون : يا واحد ، يا أحد ، يا محيي ، يا مميت . وادّعى علم الغيب في وقت ، وكان يقول : فلان قال في بيته كذا وكذا . وكان ذلك باتفاق اعتمده مع العجائز اللواتي يدخلن الى بيوت الأمراء وغيرهم ويعرفنه ذلك . فرفعت اليه في أثناء ذلك رقعة مكتوب فيها :

بالجور والحكم قد رضينا   وليس بالكفر والحماقة
إن كنتَ أوتيت غيباً   بيّن لنا كاتب البطاقة

فحين قرأها سكت عن الكلام في المغيبات . وكان هو وأصحابه من الخلفاء بمصر يدّعون السيادة ويقولون : نحن من ولد فـــاطمة بنت رسول الله ﷺ ، يريدون الافتخار بذلك على بني العباس خلفـاء بغداد ، فيقولون : أبونا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمّنا فاطمة رضي الله عنها . وكان الحاكم يقول ذلك في كل جمعة على المنبر ، وكانت تُرفع اليه الرقاع وهو على المنبر في أشغـــال الناس ، فرفعت اليه رقعة مكتوب فيها :

إنا سمعنــا نسبــاً منكراً ... يُتلى على المنــبر في الجامعِ
ان كنتَ مما قلته صادقاً ... فانسب لنا نفسك كالطائعِ
او كان حقاً كما تدعى ... فاعدد لنا بعد الأبِ السابعِ
او فدع الأشياء مستورةً ... وادخُل بنا في النسب الواسع

فرماها من يده ولم ينتسب بعدها .

وحكى **سبط بن الجوزي** في مرآة الزمان أن المحضر الذي برز من ديوان القادر بالله بالقدح في الحاكم وفي أنسابه كان من شهد فيه وأثبت اسمه ونسبه في هذا الكتاب من السادة والأشراف والقضاة والعلماء والعدول والأكابر والأماثل ما يعرفونه من نسب الديصانية الكفار المنسوبين الى ديصان بن سعد الحرمي شهادة يتقربون بها الى الله تعالى ، معتقدين ما أوجب الله تعالى على العلماء أن يبيّنوه للناس ولا يكتمونه . شهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحـــاكم حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال والاستيصال بن معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله ، وأنه لما صار الى المغرب تسمى بعبيد الله ، ولقب نفسه المهدى . ومن تقدمه من سلفه الأنجاس الروافض الكلاب الأرجاس عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين أدعياء الأنسب لهـم في ولد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، ولا يتعلقون منه بسبب من الأسباب [وأنهم][1]

---

(١) زيادة من ف .

كفار فجار ملحدون زنادقة معطلون وللإسلام جـــاحدون ، ولمذهب المجوس معتقدون ، قد عطلوا الحدود ، وأباحوا الفروج ، وسفكوا الدمـــاء ، وسبوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وادعوا الربوبية . وكتب فيه من الأعيان الرضى والمرتضى والشيخ أبو حامد الاسفرائيني والشيخ أبو الحسن القدوري ، وجماعة من العلماء ببغداد وأعيانها . وصنف له بعض الباطنية كتاباً ذكر فيه أن روح آدم انتقلت الى علي ، وروح علي انتقلت الى الحاكم . وقرىء هـــذا الكتاب بجامع القاهرة ، فقصد الناس قتل مصنفه ، فسيره الحاكم الى جبال الشام بناحية وادي التيم وناحية بانياس ، فاستمال الناس وأعطاهم المال ، وأباح لهـم الخمور والفروج ، وأقام عندهم مدة يدعوهم الى معتقد الحاكم ، فأضلّ منهم خلقـاً كثيراً ، وهناك قرى كثيرة الى يومنا هذا يعتقدون خروج الحاكم ، وأنه لا بد أن يعود ويمهد الأرض ، وهذه خيالات فاسدة وظنون كاذبة نعوذ بالله منها .

وكان السبب في هلاك الحاكم أنه أراد قتل أخته سيدة الملوك ، وهم أن يُرسل اليها القوابل ليتحقق بكارتها . وقال لبعض قهارمتها : سمعتُ أنـــكم تجمعون الجموع ، وتدخل اليكم الرجال ، ولا بد من قتلكم أجمعين . وتكرر هذا القول منه مراراً . فعلمت أُخته أنه يقتلها لا محالة لما تعلمه من خبث طويته ، ومؤاخذتـه بالصغائر ، واصراره على الكبائر ، وصاحبُ البيت أدرى بالذي فيه . وكانت من النساء المدبرات . فخرجت يومـاً وأتت الى دار الأمير سيف الدين بن دواش ، وكان الحاكم قد عزم على قتله وقتلها . فاجتمعت بـه وعرفته ذلك ، فقال لها : كيف الحيلة في أمره ؟ قالت : الرأيُ عندي أن تجهّز له رجالاً يقتلونه عند خروجه الى حلوان ، فانه ينفرد لنفسه ، وأنت تكون المدبر لدولة ولده ، والوزير له ، فاتفقا على ذلك . ثم رجعت الى قصرها . فلما كان صبيحة النهار خرج الحاكم على عادته ، وانفرد بنفسه على المقطم . وكان ابن دواش قد أحضر عشرة عبيد وأعطى كلّ واحدٍ منهم خمسمائة دينار ، وعرفهم كيف يقتلونه ، فسبقوه الى الجبـل . فلما انفرد ، خرجوا عليه وقتلوه بالقرب

من حلوان . فخرج الناس على عادتهم يلتمسون رجوعه ومعهم دواب المواكب ، ففعلوا ذلك سبعة أيام ، ثم رأوا حماره الأشهب المدعوّ بالقمر وقد قطعت يداه وعليه سرجه ولجامه ، فتبعوا أثر الحمار الى ان انتهوا الى المقصبة التي في شرقي حلوان ، فنزل رجل اليها ، فوجد ثيابه مزررة لم تحل أزرارها وفيها آثار السكاكين ، فلم يشكوا في قتله .

ثم تولى بعد ابنه الظاهر لإعزاز دين الله خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام .

ثم تولى بعد ابنه المستنصر بالله سبعاً وستين سنة . وكان في أيامه غلاء وشدة .

ثم تولى بعد ابنه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد سبع سنين وشيئاً .

ثم تولى بعده ابنه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور . بويع وله من العمر خمس سنين ، وأقام بدولته الأفضل بن أمير الجيوش تسعاً وعشرين سنة ، وهو العاشر من صلب عبيدالله الملقب بالمهدي .

ثم تولى بعده ابن عمه الحافظ لدين الله ابن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر تسع عشرة سنة وشيئاً . ولم يلِ منهم منذ قام المهدي من أبوه غير خليفة إلا هذا والعاضد .

ثم تولى بعده ابنه الظافر بالله خمس سنين ونصفاً .

ثم تولى بعده ابنه الفائز بنصر الله ستّ سنين وأشهراً .

ثم تولى العاضد لدين الله ، وانقطعت تلك الدولة ، فالحمد لله على ما يسرّ من هلكهم وإبادة ملكهم ، ورضى عن من سعى في ذلك وأزالهم ، ورحم من بيَّن مخرقتهم وكذبهم ومحالهم .

وفيها بدت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين لأن نور الدين كتب الى صلاح الدين بأن يجمع العساكر ويحضر الى الشام ليحصروا الكرك ، ويتجمعا

هناك لتدبير أمور لا يمكن ذكرهـــا في كتاب . فبرز صلاح الدين الى بلبيس وكتب الى نور الدين يخبره بأنه واصل .

وخرج نور الدين من دمشق ، فنزل على البلقاء ، وأقام ينتظره .

وشاور صلاح الدين أصحابه ، فخوّفوه من نور الدين ، وأثنوا عزمــه ، فكتب يعتذر من اختلال البلاد وانه متى أبعد عنها لا يأمن أهلها . فشقّ ذلك على نور الدين ولم يقبل عذره، وعزم على قصد مصر وإخراج صلاح الدين منها، وشرع يتجهّز .

وبلغ صلاح الدين ، فجمع الأمراء وأهله ، وقال : ما ترون ؟ فلم يُجبه أحدٌ منهم بشيء . فقام ابن أخيه تقي الدين ، وقال : إذا جــاءنا قابلناه وصددناه عن البلاد . ووافقه غيره من أهله ، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه . وكان ذا رأيٍ وعقل ، وقال لتقي الدين : اقعد ، وسبّه . وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهـاب الدين خالك ، أنظر في هؤلاء ، كلهم من يُحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا ، فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين ، لا يمكننا إلا ان نترجّل اليه ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بقتلك لفعلنا . فإذا كنا نحن [كذلك] [1] فكيف غيرُنا ! [فكلُّ من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه] [2] وهذه البلاد له ، ونحن مماليكه فيها ! وإذا أراد عزلك ، فأيّ حاجة له الى المجيء . ينفذ كتاباً مع نجاب يأمرك بالمسير اليه حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد . [وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا مـــا

---

(١) زيادة من التاريخ البـاهر .

(٢) زيادة من التاريخ البـاهر .

يريد][1] وتفرقوا على هـذا . فكتب أصحاب الأخبار الى نور الدين بصورة الحال وما قال نجم الدين .

وأما [2] نجم الدين فإنه خلا بابنه وقال : يا قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتـُطلعهم على ما في نفسك ، ومتى بلغ نور الدين انك عازمٌ على منعه من البلاد قصدك بعساكر الشام والشرق وديار بكر والروم وغـيرهم ولم يبق معك أحد وأولهم خالك وغيره ممن ينافسك في الملك ، وفي قلوبهم منك مـا فيها . وقد كتب أصحاب الأخبار الى نور الدين بما قلت ، فاكتب اليه كتاباً تذعن فيه بالطاعة له ، وقل له : ما حاجة الى قصدي بنفسك ، ابعث أحـد غلمانك يحملني الى بين يديك . فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله كل وقت في شأن .

ففعـــل صلاح الدين ذلك . فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، واستحيى منه، واشتغل عنه بالفرنج . وكان الأمرُ كما قال نجم الدين. وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله . وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها .

وفيها اتخذ نور الدين الحمام الهوادي ، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى أوكارهـــا . وكتب بذلك الى جميع البلاد ، فاتخذت في الأبراج . وكتب منشوراً لأربابها واعزاز أصحابها ، ونودي بالتهديد لمن اصطاد منهـا شيئاً . وكان سبب ذلك ان مملكته قد اتسعت ، وكانت من حـدّ بلاد النوبة الى همذان لا تتخللها سوى بلاد الفرنج . فكان الفرنج – لعنهم الله – ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى ان يصله الخبر ويسير اليهم قد بلغوا بعض الفرض . فحينئذ أمر بذلك ، فوجد بها راحةً كبيرة . وكانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له

---

(١) زيادة من التاريخ البـاهر .

(٢) راجع النص التالي في التاريخ البـاهر ١٥٩ . ونص ص يختلف في بعض العبارات عن نص ابن الأثير . على أن فحوى النصين واحد .

في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم حمامُ المدينة التي تجاورهم ، فإذا رأوا او سمعوا أمراً كتبوه لوقته ، وعلّقوه على الطير ، وسرحوه الى المدينة التي هو[1] منها في[2] ساعته ، فتنتقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد التي تجاورهم في الجهة التي فيهـا نور الدين ، وهكذا الى ان تصل الأخبار اليه . فاحتفظت الثغور بذلك ، حتى ان طائفةً من الفرنج نازلوا ثغراً له ، فأتاه الخبر ليومه . فكتب الى العساكر المجاورة له بالاجتماع والمسير بسرعة ، وكبسَ العدوّ ، ففعلوا ذلك ، فظفروا بهم . وكان الفرنج قـد أمنوا لبعد نور الدين عنهم . فرحمه الله ورضي عنه . فما كان أحسنَ نظره في الرعايا والبلاد . ووفق الملوك الى الاقتداء بسيرته .

وما أحسنَ قول القاضي الفاضل في وصف الحمام : الطيور ملائكة الملوك ، يشير بذلك الى نزولها على الملوك من جوٍّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء ، مع فرط ما فيها من الأمانة لا يتوهم من جهتها خيانة . وقد أطنب في ذلك العماد الكاتب ، وأطرب وأعجب وأغرب .

وفيها أسقطَ الملكُ الناصر صلاح الدين عن أهل مصر المكوسَ والضرائب . وقرىء المنشور[3] بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة . وكان مقدارُ ما أسقطه في السنة من العين مائتي ألف دينار .

وفيها[4] عزل الخليفةُ المستضيءُ ابن رئيس الرؤساء وقبض على ابنـه كمال الدين . وكان كمال الدين هذا كثير الظلم والعنف في الأحـكام . وكان سبباً في عزل والده . تظلمت اليه يوماً امرأةٌ كان يعذّب زوجها ، وقالت : خَفْ من

---

(١) في ص هي .

(٢) في ص : قرب من .

(٣) راجع نص المنشور في الروضتين ٥٢٢ .

(٤) راجع الخبر التالي في المرآة ٢٨٦ .

دعوة تصادفُ إجابة ، فاستهزأ ، وقال : تحري لها وقت السحر . فلم يكن بعد ذلك إلا أياماً قلائل حتى نـُكب . وأنشدَ بعضُهم :

أتحتقر الدعـــاءَ وتزدريه ... وما يُدريك ما صنع الدعاءُ
سهامُ الليل لا تخطي ولكن ... لهـا أمدٌ وللأمد انقضاءُ

ويقال : إن المرأة صادفته بعد ذلك ، فقالت : يا هذا ، انتفعت برأيـك ومشورتك .

سنة ٥٦٨

فيها [١] بعث صلاح الدين هديةً الى نور الدين فيها فيلٌ وحمارٌ عتابي مخطط كثوب عتابي ، فأهدى نور الدين الفيل الى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيءٍ من تـُحفِ الثياب والعود والعنبر ، وجهّز الحمار العتّابيّ الى بغداد مع هدايا وتحف سنايا . وخرج الناس للفرجة . وكان فيهم رجلٌ عتابي كثير الدعاوى ، وهو بليدٌ ناقصُ الفضيلة[٢] ، فقال رجل : إن كان بُعث الينا حمارٌ عتابي فنحن عندنا عتابي حمار .

وفيها [٣] سار نور الدين الى الموصل وصلى في الجـــامع الذي بناه [وسط البلد] [٤] ، وتصدّق بمال كثير . فلما علم صلاح الدين بتوجهــه الى الموصل ، خرج بعساكر مصر الى الشام وحاصر الكرك والشوبك ، ونهب أعمالها . وكان

---

(١) ورد الخبر التالي في المـرآة ٢٩٣ مع شيء من الاختلاف .
(٢) يقول صـاحب المـرآة عنه إنه (رجل نحوي قاصر في كل شيء قد تعلق بطرف من النحو) .
(٣) راجع الخبر التالي في المـرآة ٢٩٣ .
(٤) زيادة من المـرآة .

جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلّوهم على المسلمين ، فنهبهم صلاح الدين وقتل بعضهم ، وأجلى من بقي عن أرض الكرك . ثم عاد الى مصر . قال ابن شداد[1] : وهي أول غزاة غزاها صلاح الدين من مصر .

وعاد[2] نور الدين من الموصل ، وقطع الفرات وقصد بلاد الروم [وفتح مرعش وبهسنا] [3] . وسببه أنّ الملك عزّ الدين قليج أرسلان[4] [بن مسعود بن قليج أرسلان] [5] بن سليمان السلجوقي قد قصد ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما ، وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً . فسار الى نور الدين مستجيراً بـه . فأكرمه وأحسن اليه ، ووعده النصر والسّعيَ في ردّ ملكه اليه . وراسل قليج أرسلان ، وشفع اليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يُجبه الى ذلك . فسار نور الدّين نحوه ، وفتح من بلاده بهسنا ومرعش ومرزبان وما بينها من الحصون . وسيّرَ طائفةً من عسكره الى سيواس فملكوها . فلما رأى قليجُ أرسلان ذلك ، خاف منه ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصفح عنه والصلح ، وردّ بلاد ابن الدانشمند ، فأجابه الى ذلك بشروط[6] : منها أن يجدّد إسلامه على يد رسول نور الدين ، لأنه كان يتّهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة ، ومنها إذا طلب عسكره الى الغزاة يسيّره ، ومنها أن يزوج ابنته لسيف الدين غازي ولد أخي نور الدين ، وذكر أموراً

---

(١) النوادر السلطانية ٣٦ .

(٢) راجع الخبر التالي في المرآة ٢٩٤ - ٢٩٥ ، والتاريخ الباهر ١٦٠ - ١٦١ . والروضتين ج١ ق٢ / ٥٤٢ وما بعدها .

(٣) زيادة من المرآة .

(٤) في ص : رسلان .

(٥) زيادة من ف .

(٦) وردت هذه الشروط في رسالة من نور الدين . راجع نص الرسالة في الروضتين والتاريخ الباهر .

غيرها . فلما سمع قليجُ أرسلان الرسالة قال : ما قصد نور الدين إلا الشناعة عليَّ بالزندقة ، وقد أجبته الى ما طلب . أنا أجدِّدُ إسلامي على يد رسوله واستقر الصلح . وترك عسكراً في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ابن الدانشمند . فأقام عنده حتى توفي نور الدين ؛ فرحل العسكرُ عنها ، وعاد قليج أرسلان ملكها .

وفيها [1] شرع نور الدين ببناء مدرسةٍ للشافعية بقرب الجاروخية ، وهي المدرسة المعروفة بالعادلية الآن ، فأدركه أجله وقد وضع المحراب وبعض البنيان ، وبقي أمرُها على حاله الى أن جاءَ العادلُ أبو بكر [بن أيوب] [2] فأزال تلك العمارةَ وبناها هذا البناءَ المتقن المحكم ودُفن بها .

وفيها اجتمع الفرنجُ بالشام لقصد زرع ، فوصلوا الى بسمكين[3] ، فبرز اليهم نور الدين ، فهربوا منه الى الفوار ، ثم الى السواد ، ثم الى الشلالة ، فبعث سريةً الى طبرية ، فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين . ورجع الفرنج خائبين .

وفيها [4] اجتمع السودانُ العبيدُ من بلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين تملك بلاد مصر ، وصاروا الى أعمال الصعيد ، وصمموا على قصدِ أسوان وحصارها ونهبِ قراها . وكان بها كنزُ الدولة ، فأرسل يعلم الملك الناصر ، وطلب منه نجدة ، فأنفذ قطيعةً من جيشه مع الشُّجاع [البعلبكي] [5] ، فلما وصل الى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها ، فاتبعهم

---

(١) راجع الخبر التالي في المرآة ٢٩٤ .

(٢) زيادة من المرآة .

(٣) في ص : سمسكين ، وفي ف غسكين (تقرأ شمسكين) .

(٤) راجع الخبر التالي في الروضتين ج١ ق٢ / ٥٣١ .

(٥) زيادة من الروضتين .

الشجاع و كنز الدولة ، فجرى بينهم حربٌ كثير قـُتل فيها من الفريقين عـــالم عظيم . ورجع الشجـــاعُ الى القاهرة ، وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم في بلاد الصعيد . فأرسل الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكرٍ كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار اليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام ، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة ، وخلـّص جماعةً من الأسرى ، وأسر من وجد فيها ، وهرب صاحبها . ثم رجع شمس الدولة [الى أسوان ثم الى قوص] [1] .

وخلا بالقلعة[2] شخصٌ من الأكراد يقال له ابراهيم[3] ، وانضم اليه جماعةٌ من الأكراد البطـّـــالين ، فشنـّوا الغارات على بلاد النوبة حتى برحوا بهم ، واكتسبوا أموالاً كثيرة . ثم إنهـــم قصدوا جزيرةً في البحر [تـُعرف بجزيرة دندان] [4] ، فغرق أميرُهم وجماعةٌ من أصحابه ، ورجع من بقيَ ، وأخذوا جميع ما كان فيها ، وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين ، فعاد النوبة اليها وملكوها. وأنفذ ملكُ النوبة رسولاً الى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح ، ومع الرسول هديةٌ وعبدٌ وجارية ، فكتب له جواب كتابه ، وأعطاه زوَجيْ نشاب وقال : مالك عندي جزاء إلا هذا . وجهّز معه رسولاً يُعرف بمسعود الحلبي ، وأوصاه أن يكشف له خبر بلادهم . فسار الحلبيُّ مــع الرسول حتى وصل دنقلة ، وهي مدينة الملك . قال مسعود : فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة ، وعندهم نخلٌ صغار منه أدامهم ، قال : ودنقلة ليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط ، وباقيها أخصاص . قاله ابن أبي طي .

---

(١) زيادة من الروضتـين .

(٢) أي ابريم .

(٣) وهو ابراهيم الكردي وكان في صُحبة شمس الدولة ، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم فأقطعه أياها ، وأنفذ معه جماعةً من الأكراد البطـّالين ، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقـاً وشنوا الغارات الخ . راجع الروضتـين ج١ ق٢ / ٥٣٢ .

(٤) زيادة من الروضتـين .

وفيها [١] كانت وفاةُ الأمير نجم الدين أيوب بن شادي والد صلاح الدين . سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام رحمه الله تعالى . وكان صلاح الدين قد عاد من الكرك ، فبلغه خبره بالطريق فحزن عليه ، وتأسف حيث لم يحضره .

وفيها [٢] وصل شهـاب الدين بن أبي عصرون من بغداد وقد أدى الرسالة بالخطبة العباسية ، ومعه توقيعٌ لنور الدين بدربِ هارون وصريفين ، قريتان من أعمال العراق كانتا قديماً لأبيه عماد الدين زنكي . فأراد نور الدين أن يُنشيء ببغداد مدرسةً على حافـّة الدجلة ويقف عليها القريتين ، فأدركه أجله ، وعاقه القدرُ عن ذلك . وجاءَ مع شهاب الدين خمسون دينـــاراً من دنانير النثار التي نثرت يوم دخوله الى بغداد بالبشارة ، وزنُ كل دينار عشرة دنانير .

وفيها [٣] بعث صلاح الدين سريةً صُحبة قراقش مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه الى بلاد افريقية ، فملكوا طائفةً كثيرة منها ، من ذلـــك مدينة طرابلس الغرب وعدة مدن معها .

وفيها [٤] أرسل نور الدين وزيره الموفق خالد بن القيسراني الى صلاح الدين ليقيم حساب الديار المصرية ، وذلك لأن نور الدين استقلّ الهـدية التي أرسلت اليه من خزانة العاضد. وكان مقصوده أن يقرّر على الديار المصرية خراجاً يُحمل اليه في كل سنة .

---

(١) راجع خبر موته وسيرته في الروضتـين ٥٣٣ وما بعدها .

(٢) الخبر التـــالي في الروضتـين ٥٤٩ .

(٣) راجع الخبر التالي في البداية والنهـاية ١٢/٢٧١ . ويقول صاحب المـرآة بأن الذي بعث الجيش الى المغرب هو تقي الدين عمر مع مملوك له اسمه يوبا . المـرآة ٢٩٤ - ٢٩٥ . وفي الروضتـين : قراقوش .

(٤) ورد الخبر في الروضتـين ٥٢٥ مع اختلاف في اللفظ ، والنص هنا منقول من البداية والنهـاية ١٢/٢٧٠ .

سنة ٥٦٩

فيها [١] قال ابن الجوزي في **المنتظم** : إنه سقط ببغداد بردٌ كالنارنج، ومنه ما وزنه سبعةُ أرطال . ثم أعقب ذلك سيلٌ عظيم وزيادة عظيمةٌ في دجلة ، لم يُعهد مثلها أصلاً ، فخربت شيئاً كثيراً من العمران والقرى والمزارع حتى القبور . وخرج الناس الى الصحراء ، وكثر الضجيج والابتهال الى الله تعالى حتى حصل الفرج وتناقص الماء . قال: وأما الموصل فإنه كان بها نحو ما كان ببغداد، وانهدم بالماء نحو من ألفي دار ، واستهدم بسببه مثل ذلك ، وهلك تحت الهدم خلقٌ كثير ، وكذلك الفرات زاد زيادة عظيمة هلك بسببها شيء كثير من القرى ، وغلت الأسعار بالعراق في هذه السنة في الزروع والثمار ، ووقع الموت في الغنم ، وأُصيب كثيرٌ ممن أكل منها بالعراق وغيرها . وفيها قال **ابن الساعي**: توالت الأمطار بديار بكر وغيرها والموصل أربعين يوماً وليلة لم يروا الشمس سوى مرتين لحظتين يسيرتين ثم تتستر بالغيوم . فتهدّمت بيوتٌ كثيرة ومساكن على أهلها ، وزادت دجلة بسبب ذلك زيادة عظيمة ، وغرق كثيرٌ من مساكن بغداد والموصل ، ثم تناقص الماء بإذن الله تعالى .

وفيها [٢] سار نور الدين نحو بلاد الروم وفي خدمته الجيش ، وملك الأرمن وصاحب ملطية وخلق من الملوك والأمراء . فافتتح عدة من حصونهم ، وصالح على قلعة الروم ، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية . ثم عاد الى حلب وقد وجد النجاح في كلّ ما طلب . ثم أتى دمشق مسروراً محبوراً .

وفيها [٣] توجّه [شمس الدولة] توران شاه أخو صلاح الدين الى اليمن فملكها . قال **ابن أبي طي** : وكان سبب خروج توران شاه الى اليمن أنه كان

---

(١) راجع الخبر التالي في البداية والنهاية ١٢/٢٧٣ .

(٢) راجع الخبر التالي في البداية والنهاية ١٢/٣٧٣ .

(٣) راجع خبر اليمن في الروضتين ٥٥١ والبداية والنهاية ١٢/٢٧٣ - ٢٧٤ .

كريماً جواداً . وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بقوته ، ولا ينهض بمروءته . وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر . وكان من أهل اليمن . وكان إذا خلا به وصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها وضعف من فيها ، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها . ووافق ذلك أنه كاتبه رجلٌ من أهل اليمن شريفٌ يقال له هاشم بن غانم ، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان تعدّى على هذا الشريف . فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن ، فأجابوه . وتجهّز ثم دخل على أخيه صلاح الدين ، واستأذنه في دخول اليمن ، فأذن له ، وأطلق له مغلّ قوص سنة ، وزوّده فوق ما كان في نفسه [وأصحبه جماعةً من الأمراء والجند ومقدار ألف فارس خارجاً عمن سيّره من حلقته][1] . وسار في البرّ والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأزواد والعدد. فوصل الى مكة زادها الله شرفاً ، فاعتمر بها ، ثم خرج الى اليمن . فلقيه الشريف هاشم بن غانم الحسيني وجمع الأشراف من بني سليمان في جمع كبير ، فوصل زبيد . فخرج اليه عبد النبي فقاتله فهزمه توران شاه وأسره ، وأسر زوجته الحرة، وكانت ذات أموالٍ جزيلة وذخائر جليلة، ونهب الجيش زبيد . ثم سار الى عدن ففتحها عنوة ، وولاها عزّ الدين الزنجيلي ، ثم فتح صنعاءَ وحصون اليمن والمدائن فيقال إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة ، واستولى على أموالها وذخائرها ، وقتل عبد النبي بن مهدي . وكان هذا قد تغلّب على بلاد اليمن ودعا الى نفسه ، وتسمّى بالإمام ، وزعم أنه سيملك الأرض كلّها . وقد كان أخوه علي بن مهدي قد تغلّب قبله عليها، وانتزعها من أيدي أهل زبيد. واستقر توران شاه في ملك اليمن ، وخطب للخليفة العباسي ، وصفت اليمن من أكدارها ، وعادت الى ما سبق من مضمارها ، وكتب الى أخيه الملك الناصر يخبره بما فتح الله عليه وأحسن اليه . فكتب الملك الناصر بذلك الى نورالدين،

---

(١) زيادة من ف الى الجند والباقي من الروضتين .

فأرسل نور الدين بذلك الى الخليفة يبشّره بفتح اليمن والخطبة بهـــا وبكسر الروم مرة ثانية . وكان مما تضمنه كتاب البشارة : ولم ينجُ من عشرة آلاف غير عشر حمر مستنفرة فرت من قسورة .

وفيهـــا أكثر نور الدين من الصدقات والصلاة ، وزاد في الأوقاف وكسا الأيتـام ، وزوج الأرامل ، وأغنى الفقراء ، وكشف المظالم بحيث لم يبــقَ في بلاده مظلمة .

وفيها [1] وصل رسول نور الدين الموفق خـــالد ابن القيسراني الى الديار المصرية واجتمع بالملك الناصر ، وأنهى اليه رسالة نور الدين ، فطــالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع اليه من ارتفاع البلاد . فصعُبَ ذلك على صلاح الدين، وأراد شقّ العصا ، وتوجّه بالمخالفة والإباء ، ولكنه عاد الى طِباعه الحسنة ، وأظهر الطاعة المستحسنة . وأمر بكتابة الحساب وتحرير الجواب . فبادر الى ذلك جماعةُ الدواوين والحسّاب . وعرضه على ابن القيسراني ، وأراه جرائد الأجناد وبمبلغ إقطاعاتهم وكميات جامكياتهم [2] ورواتب نفقاتهم . فلمـــا حصل عندَه جميع ذلك ، أرسلَ معه هديةً إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى ، وهي خمس ختمات شريفات إحداها ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق ، مصببة بصفائح الذهب وعليها أقفال ذهب مكتوبة بالذهب بخط يانس، وختمةٌ مغشاةٌ بديباج فستقي عشرة أجزاء بخطّ راشد ، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد ، وختمة بخطّ مهلهل جزء واحد ، وختمة بخطّ الحاكم البغدادي ، وثلاثة أحجار بَلخش وزنُ احداها اثنان وعشرون مثقالاً ، وحجرٌ وزنُه اثنا عشر مثقالاً، وحجرٌ وزنُه عشرةُ مثاقيل ونصف، وستُّ قصباتِ زمرد [قصبةٌ] وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع وسدس ، وقصبة وزنها مثقالان وثلث ، وحجر

---

(١) راجـع الروضتـين ٥٥٨ وما بعدها .

(٢) أي رواتب الجند .

[أزرق][1] وزنه سبعة[2] مثاقيل وسدس، ومائةُ عقد من الجواهر النفيسات وزنها جميعاً ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً ، وخمسون قارورة دُهن بلسان ، وعشرونَ قطعة بلور ، وأربع قطع جزع ، وابريق يشم ، وطشت يشم ، وسقرق ميناء مذهب ، وصحون صيني وزبادي وسكارج[3] أربعون قطعة ، وكرتان عود قماري وزن إحداها ثلاثون رطلاً بالمصري ، والأخرى واحد وعشرون رطلاً، ومائة ثوب أطلس، وأربعةٌ وعشرون ثوباً من الحرير، وأربعة وعشرون ثوباً من الوشي ، وحلة فلفلي مذهبة وغير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسةٌ وعشرون ألف دينار مصرية ، وعدة من الخيل [والغِلمان][4] والجواري ، وشيء كثير من السلاح على اختلاف ضروبه ، ومن الذّهب عشرةُ صناديق مقفلات مختومات لم يعلم مقدار ما فيها . فلما فصلت العير عن الديار المصرية لم تصل إلى الشام حتى ماتَ نور الدين رحمه الله . فمنها ما أُعيد ، ومنها ما استُهلك لأن الفقيهَ عيسى وابنَ القيسر اني وضعا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها . وقيل إنها وصلَتْ جميعها إلى السلطان لأنه اتصل به خبرُ موتِ نور الدين ، فأنفذ من ردها .

وفيها [5] صُلب عمارةُ اليمني الشاعر وأصحابه . وسببُ ذلك أنه اجتمع جماعةٌ من رؤوس الدولة الفاطميةِ الذين كانوا فيها حكاماً ، فاتفقوا فيما بينهم أن يردّوا الدولةَ الفاطمية ، فكتبوا إلى الفرنج يَستدعونهم إليهم ، وعينوا خليفةً من الفاطميين ووزيراً ، وذلك في غيبةِ السلطان ببلاد الكرك . ثم اتفق مجيئه ، فحرض عمارة شمسَ الدولة توران شاه على المسير إلى اليمن ليضعف بذلك الجيش

---

(١) زيادة من الروضتين .

(٢) في ف : ستة .

(٣) جمع سكرجة أي الصحفة .

(٤) زيادة من ف .

(٥) راجع أخبار عمارة مفصلة في الروضتين ج ١ ق ٢ / ٥٦٠ وما بعدها .

عن مقاومة الفرنج إذا قَـدِموا لنُـصرة الفاطميين. فخرج توران شاه ولم يَخْرج معه عُمارة ، بل أقامَ في القاهرة يفيض في هذا الحديث ويداخل المتكلمين فيه ويصافيهم ، وكاد أمرهم أن يتم (ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره) (التوبة : ٣٢) فأدخلوا في الشُورى الواعظ زينَ الدين بن نجا ، فأظهر لهم أنه معهم ، ثم جـاء إلى صلاح الدين وأخبره بما تمالأوا وتعاقدوا عليه ، وطلب من السلطان مـا لابن كامل من الحواصل والعقار فبذله له، وأمره بمُخالَـطَـتِهم وتعريفِ شأنهـم ، فصار يعلمه بكل متجدد . فجاء رسولُ ملكُ الفرنج بالسـاحـل الى صلاح الدين بهدية ورسالة ، وفي الباطن اليهم . وأتى الخبرُ الى صلاح الدين بجلية الحـال من بلاد الفرنج .

وقيل إنّ عبدَ الصمد الكاتب كان يلقى الفاضلَ بخضوعٍ زائد ، فلقيه يوماً فلم يلتفت اليه ، فقال القاضي الفاضل : ما هذا الا ّ لِسَبب . فأحضر ابنَ نجا الواعظ وأخبره الحال ، وطلب منه كشفَ الأمر ، فأخبرَه بأمرهم، فبعثَه الى صلاح الدين فأوضح له الأمر ، فاستدعاهم السلطانُ واحداً واحـدا وقررهم ، فأقروا بذلك فاعتقلهم . ثم استفتى الفقهاءَ في أمرِهم فأفتوه بقتلهم . فعند ذلك أمرَ بقتلِ رؤوسهم وأعيانِهم وأتباعِهم وعلمائِهم ، وأمر بنَفْيِ من بقي من جيش العبيديين إلى أقصى البلاد ، وأفرد ذريةَ العاضد وأهلَ بيته في دار فـلا يصلُ إليهم إصلاحٌ ولا إفساد ، وأجرى عليهم ما يليقُ بهـم من الأرزاق والثياب . وقد كان عُمارة معادياً للقاضي الفاضل . فلما حضر عُمارةُ بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل إلى السلطان ليشفع فيه عنده ، فتوهم عُمارةُ أنـه يتكلم فيه ، فقال : يا مولانا السلطان ، لا تسمع منه . فغضِبَ القاضي الفاضل وخرجَ من القصر . فقال له السلطان : انما كان يشفع فيك . فندم ندماً عظيماً . ولما ذهبَ به ليصلب طلب أن يمروا به على مجلس القاضي القاضي الفاضـل ، فاجتازوا به عليه ، فأغلق بابه ، فقال عُمارة :

عبد الرحيم قد احتجب   إنّ الخلاصَ هو العجب

وصلب هو والجماعة بين القصرين . وكان الذين صُلبوا منهم : الفضل بن القاضي وهو أبو القاسم هبةُ الله قاضي قضاةِ الديار المصرية زمنَ الفاطميين ، وابن عبد القوي داعي الدعاة ، وقد كان يعلم بدفائن القصر ، فعوقب ليدل عليها فامتنع من ذلك ، فمات واندرست ، والعوريس ، وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشبرما كاتب السر ، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين ، ونجاح الحمامي ، ورجل منجم نصراني قد قال لهم إن أمرهم يَتم بطَريق علم النجوم ، وعمارة اليمني . وكان عُمارة هذا ينتسب إلى الرفض ويتهم بالزندقة والكفر . ذكر العماد الكاتب في الخريدة أنه قال في قصيدته التي يقول في أولها :

العلم مذ كان محتاج[1] إلى العلم   وشفرة السيف تستغني عن القلم

[قال] :

قد كان أول هذا الدين من رجل   سعى الى أن دعوه سيّد الأمم

قال العماد : ويجوزُ أنْ يكون هذا البيتُ معمولا عليه ، فأفتى فقهاءُ مصر بقتله . قال : ولعمارة في مصلوب بمصر يقال له طرخان ، وكان قد خرج على الصالح بن رزّيك فظفر به الصالح فصلبه ، فقال فيه عمارة :

أراد علوْ مرتبةٍ وقدر   فأصبح فوقَ جذعٍ وهو عال

ومد على صليب الجذع منه   يمينا لا تطول الى الشمالِ

ونكس رأسَه لعتاب قلب   دعاه الى الغوايةِ والضّلالِ

قال العماد : فكأنه وصف حاله وما آل اليه أمره .

---

(١) في ص : محتاجاً .

وحكى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز أن القاضي العوريس رأى عيسى ابنَ مريم عليه السلام و كأنه أخرج رأسَه من السماء. فقال له العوريس: الصلبُ حق ، فقال له عيسى بن مريم : نعم ، فعبرها العابر ، وقال : صاحبُ هـذه الرؤيا يصلب لأن عيسى معصوم ولا يمكن أن يكون ذلك راجعا إليه لانّ الله تعالى قصّ لنا أنه لم يصلب ،فينبغي أن يكون راجعاً الى الرائي،وكان الأمر كما قال : و كتب صلاح الدين الى نور الدين بما وقع منهم وبهم من الخزي والنكال . قال **العماد** : فوصل الكتاب يوم وفاة نور الدين .

وفيهـــا وصل أسطول الفرنج [1] من صقلية ، فنازلوا الاسكندرية بغتة، (جاء بناءً) على مراسلة الذين صلبوا . وكان معهم ألف وخمسمائة فرس ، وعدتهم ثلاثون ألف مقاتل ما بين فارس وراجل . وكان معهم مـائتا شيني [2] وست سفن كبار [3] [وأربعون مركباً] [4] . فبدر الى حربهم أهـــل الثغر ، فحملوا على المسلمين حملة أوصلتهم الى السور ، ففقد من المسلمين فوق المـــائتين . فلما أصبحوا ، زحفوا على الاسكندرية ، ونصبوا ثلاثَ دبابات بكباشها ، وهي الأبراج ، وثلاث مناجيق ترمي بحجارةٍ سُود استصحبوها من صقلية . وزحفوا الى أن قاربوا السّورَ ، فرأى الفرنجُ من شجاعةِ أهلِ الاسكندرية ما راعهم . وبعثت بطاقة الى الملك الناصر ، فبادر وحضر ، واستمرّ القتالُ يومين . وفي اليوم الثالث فتحَ المسلمون بابَ البلد و كبسوا الفرنج على غفلة ، فـــأحرقوا الدباباتِ ، وصدقوا اللقـــاء ، ودامَ القتالُ الى العصر ، ونزلَ من الله النصر . وقتل من الفرنج خلق . وَردّ المسلمون الى البلد لأجـل الصلاة ، ثم كبروا عند

---

(١) راجع بشأن خبر أسطول الفرنج الروضتين ج ١ ق٢ / ٥٩٨ - ٦٠٠ ؛ والبداية والنهاية ١٢ / ٢٧٧ .

(٢) جمع شواني وهي السفن الحربية .

(٣) كانت هذه السفن تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار. راجع الروضتين.

(٤) زيادة من ف .

المغرب وهاجموا الفرنج في خيامهم ، فتسلموها بما حوت ْ وقتلوا من الرجالة ما لا يحصى ، واقتحم المسلمون البحرَ فغرقوا المراكب وحرقوها ، وهربت بقية المراكب ، وصار العدو بين أسير وقتيل وغريق . واحتمى ثلاثمائة فارس في تل فأخذوا أسرى . وغنم المسلمون غنيمة عظيمة ولله الحمد .

وفيها[1] كانت وفاةُ الملك العادل نور الدين . وكان رحمه الله قد ركب يوم عيد الفطر الى الميدان الأخضر القبلي وصلى فيه صلاة العيد ، ورمى القبق في الميدان الأخضر الشمالي ، ومدّ سماطا حافلا ، وطهّر ولدَه الملكَ الصالحَ اسماعيل في هذا اليوم ، وزينت ْ له البلد ، وضربت البشائر . وكان يوم الأحد . ثم ركب يوم الاثنين وأوكب على العادة ، وكان معه هُمام الدين مودود ، فقال لنور الدين : هل تكون ها هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين : قل هل تكون بعد شهر ، فان السنة بعيدة ! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق ، فان نور الدين لم يصل الى الشهر وهمام الدين لم يصل الى العام .

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه ، فاعترضه بعضُ الأمراء وقال له : باش . فغضب لذلك ، ولم يكن ذلك من سجيته . وساق ودخل في القلعة ، فحصل له نبو مزاج ، واشتغل بنفسه وأوجاعه ، وتنكرت عليه جميع حواسه وطباعه ، واحتبس اسبوعا عن الناس ، والناس في شغل عنه بما هم فيه من اللعب والانشراح في الزينة التي نصبوها لأجل ظهور ولده ، فانعكست تلك الافراح بالأتراح ونسخ الجد ذلك المزاح ، وحصل للملك العادل خوانيق في حلقه منعته من النطق . وكان قد أشير عليه بالفصد فلم يقبل ، وبالمبادرة الى المعالجة فلم يفعل ، وكان امرُ الله قدراً مقدوراً . فلما كان يوم الاربعاء الحادي عشر من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمة الله تعالى وقتَ طلوع الشمس عن ثمان وخمسين سنة ، مكث منها في المُلك ثمانيةً وعشرين سنة ، وصُلّي عليه

---

(١) راجع الروضتين ٥٧٩ وما بعدها . الورقة التالية مهزوزة في ص فاعتمدنا على ف .

بجامع القلعة ، ودُفن بالقلعة ، ثم نُقل إلى تربةٍ تجاورُ مدرستَه التي بناها لاصحاب ابي حنيفة بجوار الخواصين . وكانت دار سليمان بن عبد الملك رحمه الله تعالى وقبره بها يزار ويخلّق شباكه ويطيب ، ويتبرك به كل مار ويقول : قبرُ نور الدين الشهيد لما حصل له من الخوانيق ، وكذا [كان][1] يقال لأبيه الشهيد لأنه قتل ظلما .

وفيها بويع [2] بعد موت نور الدين لولده الملك الصالح اسماعيل . وكان صغيراً لم يبلغ الحلم ، وجعل أتابكه الأمير شمس الدين [محمد] بن المقدم ، وحلف له الأمراء والمقدّمون بدمشق ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام . وأطاعه صلاح الدين بمصر وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها .

ثم بعد ذلك اختلفت الأمراء، وحارت الآراء ، وظهرتِ الشّرور،وكثرت الخمور ، وقد كانت لا توجد في زمانه ، ولا يجسُرُ أحدٌ أن يتعاطى شيئاً منها ولا من الفواحش . وانتشرت الفواحش وظهرت حتى إن ابن أخي نور الدين سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل لما تحقق موت عمه – وكان محصوراً منه – نادى مناديه في البلد بالمسامحة في اللعب واللهو والشراب المنكر والطرب، ومع المنادي دن وقدح ومزمار الشيطان ، فانا لله وانا اليه راجعون . وقد كان ابن أخيه هذا وغيره من الأمراء والملوك الذين حكم عليهم لا يستطيع أحد منهم أن يفعل شيئاً من المناكر والفواحش . فلما مات برح أمرهم وعاثوا في الأرض فسادا . وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين .

وعزم[3] الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدي المسلمين ، فبرزَ اليهم ابن المقدم الأتابك ، فواقعهم عند بانياس وضعف عن مقاومتهم فهادنهم مدة ،

---

(١) زيادة من البداية والنهاية .

(٢) راجع بصدد البيعة للملك الصالح اسماعيل التاريخ الباهر ١٦٢ والروضتين ٥٨٥ .

(٣) راجع الخبر الثاني في البداية والنهاية ١٢ / ٢٨٥ .

ودفع اليهم أمولاً جزيلة عجّلها لهم، ولولا أنه خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين لما هادنوه . ولما بلغ ذلــك صلاحَ الدين، كتب الى الأمراء وخاصة ابن المقدم يلومهم على مــا صنعوا من المهادنة ودفـع الأموالِ الى الفرنج ، وهم أقل وأذل ، وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية ليحفظها من الفرنج . فردوا اليه كتاباً فيه غلظة ، وكلاماً فيــه بشاعـة . وكتبوا الى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم ليدفع عنهم كيْدَ صلاح الدين ، فلم يجبهم لأنه خاف أن تكون مكيدة منهم .

ثم توجه الملك الصالح الى حلب، وأقام بها إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين. وكان صالحا كما سمي : لما اشتد به المرض وضعف وصف له الأطباء قليل خمر ، فقال : لاأفعل حتى أسال الفقهاء . فأفتاه بعضهم بالجواز فلم يفعل ، وقـال : ان كان الله قد قرب الأجل يؤخره شربُ الخمر ؟ قيل له لا، قال : فوالله لا لقيتُ اللهَ وقد فعلتُ ما حرّمَ الله . قال : فمات ولم يشربه . رحمه الله ورحم أباه وجده ، وعوضهم الجنة بمنه وكرمه ، والحمد لله رب العالمين .

الفهـــارس

١. الأعلام .

٢. الأمكنة .

٣. أسماء الطوائف والقبائل والجماعات والمصطلحات .

٤. الكتب .



١. الأعـــلام

ت

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

٢. الأمكنة

ت

ج

ح

خ

ك

ل

م

ن

٣. أسماء الطوائف والقبائل والجماعات والمصطلحات

٤ . الكتب

محتويات الكتاب

استدراكات

الصفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	٣	دار الكتاب	دار الكتب
٧	٧	دار الكتاب	دار الكتب
٨	١٨	بجامه	بجامعة
	١٨	بيروت	بيروت الأميركية
١٥	١	مولدده	مولده
١٣٢	١	بعد	بعده
١٥٤	٧	ملك شاه	ملكشاه
١٩٢	هامش ٤	للنحو	النحو
٢٠٣	١٦	عصورن	عصرون
٢٢٧	٩	(جاء بناء)	جاء بناء

طُبع هذا الكتاب
على مطابع « الأمان »
تلفون : ٧٧ – درعون ـ لبنان